Vol. 5

تفسیر کبیر

امام فخر الدین رازی

Tafseer kabeer

Fakrud-Din Raazi,

J & KASHMIR UNIVERSITY
LIBRARY
No. 5828
Date 25-8-52
SRINAGAR

PA82

RO

ALLAMA IQBAL LIBRARY
5828

297.226
R11T

﴿ فهرسة الجزء الخامس من الفخر الرازى ﴾

صحيفة

٥ المسئلة الاولى فى بيان طريق اثبات نبوة الانبياء عليهم الصلاة والسلام
١٣ المسئلة الاولى فى بيان حقيقة الولى
١٥ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على أن أهل الثواب لا يحصل لهم خوف فى محفل القيامة
٥٠ (سورة هود عليه السلام وفيها المسائل الآتية)
٨٣ المسئلة الثانية فى بيان صفة سفينة نوح عليه السلام
١٠٧ المسئلة الثالثة فى بيان قصة ابراهيم عليه السلام مع ضيفه
١٤٩ (سورة يوسف عليه السلام وفيها من القصص ما لا يخفى)
٢٥٨ (سورة الرعد وفيها المسائل الآتية)
٢٥٩ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال باحوال السموات على وجود الصانع
٢٦٣ الكلام فى الاستدلال بخلقة الارض وأحوالها على وجود الصانع
٢٦٤ المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال بعجائب خلقة النبات على وجود الصانع
٢٦٦ المسئلة الاولى فى بيان أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث لاجل الاتصالات الفلكية
٢٧٩ المسئلة الثالثة فى بيان الاستدلال بحدوث البرق والسحاب والرعد على قدرة الله تعالى وحكمته
٢٨٥ المسئلة الاولى فى بيان استدلال أهل السنة على مسئلة خلق الافعال
٢٨٦ المسئلة الثانية فى بيان انه هل يجوز أن يطلق عليه تعالى اسم الشئ أم لا
٢٨٦ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال المعتزلة على قولهم ان الله تعالى عالم بذاته لا بالعلم
٢٩٧ الكلام فى بيان شبهات منكرى النبوة والجواب عنها
٣١٠ المسئلة الخامسة فى ابطال استدلال الرافضة على قولهم ان البداء جائز على الله تعالى
٣١٢ الكلام فى بيان الاستدلال على نبوته عليه الصلاة والسلام
٣١٣ (سورة ابراهيم عليه السلام وفيها المسائل الآتية)
٣١٣ المسئلة الثانية فى استدلال المعتزلة على قولهم ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض
٣١٤ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال المعتزلة على ابطال القول بالجبر
٣١٧ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال أهل السنة على أن الخالق لافعال العباد هو الله تعالى

صحيفة

٣١٩ المسئلة الثانية فى بيان استدلال بعض الناس على ان اللغات اصطلاحية لاتوقيفية
٣١٩ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال العيسوية على أن محمدا مرسل الى العرب خاصة
٣١٩ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال أهل السنة على أن الهدى والضلال من الله تعالى
٣٢٨ المسئلة الثانية فى بيان أن الفطرة الاولية شاهدة بوجود الصانع الحكيم
٣٣٠ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال أهل السنة على انه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة
٣٤٢ المسئلة الاولى فى بيان استدلال المعتزلة على أن العبد خالق لافعال نفسه
٣٤٣ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على أن الشيطان الاصلى هو النفس وفى بيان حقيقتها
٣٥٤ الكلام فى بيان الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم المختار
٣٥٩ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الكفر والايمان بخلق الله تعالى
٣٧٢ (سورة الحجر وفيها المسائل الآتية)
٣٧٧ المسئلة الثالثة فى بيان استدلال أهل السنة على ان من قتل فهو ميت بأجله
٣٨١ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على ان الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار
٣٨٥ الكلام فى الاستدلال بالاحوال السماوية على وجود الصانع المختار
٣٨٦ الكلام فى الاستدلال بالاحوال الارضية على وجود الصانع المختار
٣٩٠ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المعتزلة على أن المعدوم شئ والجواب عنه
٣٩٢ الكلام فى الاستدلال بحصول الاحياء والاماتة لهذه الحيوانات على وجود الصانع المختار
٣٩٣ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على أنه لابد من انتهاء الناس الى انسان هو أول الناس
٤٠٠ المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال على أن الكذب فى غاية الخساسة
٤٢١ (سورة النحل وفيها المسائل الآتية)
٤٢٥ الكلام فى بيان أن دلائل الالهيات هى التمسك بطريقة الامكان امافى الذات أوفى الصفات
٤٢٦ الكلام فى الاستدلال على وجود الصانع بخلقة الانسان

صحيفة
٤٢٧ المسئلة الاولى فى بيان وجه الاستدلال بأحوال النفس الانسانية على وجود الصانع
٤٢٨ المسئلة الثانية فى بيان منافع الانعام
٤٣٢ المسئلة الثانيـة فى بيان احتجاج المعتزلة على أنه يجب على الله تعالى الارشاد والهداية
٤٣٢ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على انه تعالى ماشاء هداية الكفار
٤٣٢ الكلام فى بيان الاستدلال بعجائب أحوال النبات على وجود الصانع الحكيم المختار
٤٣٥ المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال على أنه لايجوز أن يكون حدوث الحوادث بتأثير الطبائع
٤٣٧ الكلام فى بيان الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر وفى بيان منافع البحار
٤٣٩ الكلام فى ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض
٤٤٢ المسئلة الاولى فى بيان ابطال عبادة غير الله تعالى
٤٤٣ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن العبد غير خالق لافعال نفسه
٤٤٣ المسئلة الاولى فى بيان أن العبد لا يمكنه الاتيان بالعبودية على سبيل التمام والكمال
٤٤٤ المسئلة الثانية فى بيان انه هل لله على الكافر نعمة أم لا
٤٥٤ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الهدى والضلال من الله تعالى
٤٥٧ المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج أهل السنة على قدم القرآن
٤٥٩ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على انه تعالى ما ارسل أحدا من النساء ولا من الملائكة
٤٦٠ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج نفاة القياس على قولهم والجواب عنه
٤٦٧ المسئلة الثانية فى بيان استدلال القائلين بالفوقية والجواب عنه
٤٦٧ المسئلة الرابعة فى بيان استدلال من قال ان الملك أفضل من البشر
٤٦٨ المسئلة الاولى فى بيان قوله لاتتخذوا الهين اثنين وفى تقرير ان الاثنينية منافية للالهية
٤٧١ المسئلة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على ان الايمان حصل بخلق الله
٤٧٥ المسئلة الثانيـة فى بيان استدلال المعتزلة على بطلان القول بالجبر وجواب أهل

صحيفة

السنة عنه
٤٧٦ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء والجواب عنه
٤٧٦ المسئلة الثانية فى بيان الاحتجاج على أن الاصل فى المضار الحرمة
٤٨١ المسئلة الثالثة فى بيان كيفية هضم الاغذية ووصول منافعها الى الاعضاء
٤٨٢ المسئلة الربعة فى بيان اشتمال حدوث اللبن فى الثدى على حكم عجيبة وأسرار بديعة
٤٨٤ المسئلة الخامسة فى بيان الاستدلال بحدوث اللبن على امكان الحشر والنشر
٤٨٥ المسئلة الاولى فى بيان مايصدر من النحل من الاعمال العجيبة التى يعجز عنها البشر
٤٨٩ المسئلة الاولى فى بيان مراتب عمر الانسان وفى استدلال الطبائعيين على قولهم والجواب عنه
٤٩٧ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج الفقهاء على أن العبد لايملك شيئا
٥٠٠ المسئلة الثالثة فى بيان أقسام المعارف والعلوم
٥٠١ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال بخلقة الطير وتسخيرها فى الجو على قدرة الله وحكمته
٥٠٨ المسئلة الاولى فى بيان فضائل قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية
٥١٣ المسئلة الثالثة فى اتفاق أهل السنة والمعتزلة على ان تذكر الاشياء من فعل الله تعالى
٥٢٠ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج الشافعى رضى الله عنه على ان القرآن لاينسخ بالسنة
٥٢٠ الكلام فى حكاية شبهة من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتقرير الجواب عنها
٥٢٤ المسئلة الرابعة فى بيان الاكراه الذى يجوز عنده التلفظ بكلمة الكفر
٥٢٤ المسئلة السادسة فى بيان الاستدلال على انه لايجب على المكره التكلم بكلمة الكفر
٥٢٥ المسئلة الثامنة فى بيان مايقبل الاكراه عليه من الافعال ومالايقبل
٥٢٥ المسئلة العاشرة فى بيان الاستدلال على أن محل الايمان هو القلب
٥٤٠ ﴿ سورة بنى اسرائيل وفيها المسائل الآتية ﴾
٥٤١ المسئلة الثانية فى بيان الاختلاف فى كيفية الاسراء
٥٤٨ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على قولهم فى مسئلة القضاء والقدر
٥٦٠ المسئلة الثالثة فى استدلال أهل السنة على أن وجوب شكر المنعم لايثبت بالعقل بل بالسمع
٥٦٢ المسئلة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على صحة مذهبهم فى الارادة

صحيفة

٥٨١ المسئلة الثانية فى بيان أن الاصل فى القتل هو الحرمة المغلظة
٥٨٨ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج نفاة القياس على قولهم والجواب عنه
٥٩٤ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج المعتزلة على أن افعال الله تعالى معللة بالاغراض والجواب عنه
٥٩٤ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على انه تعالى ما أراد الايمان من الكفار
٦١٧ الكلام فى ذكر النعم التى بها فضل الانسان على غيره
٦٢٦ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء والجواب عنه
٦٢٦ المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج أهل السنة على أنه لا عصمة عن المعاصى الا بتوفيق الله
٦٣١ المسئلة الخامسة فى بيان فوائد قوله تعالى وقرآن الفجر الآية
٦٣٧ الكلام فى بيان أن القرآن شفاء من الامراض الروحانية ومن الامراض الجسمانية
٦٤٠ المسئلة الاولى فى بيان المراد من الروح المذكورة فى قوله تعالى ويسألونك عن الروح الآية
٦٤١ المسئلة الثانية فى ذكر سائر الاقوال المقولة فى الروح المذكورة فى هذه الآية
٦٤٣ المسئلة الثالثة فى شرح مذاهب الناس فى حقيقة الانسان
٦٤٦ المسئلة الرابعة فى شرح مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود فى داخل البدن
٦٤٨ المسئلة الخامسة فى بيان دلائل مثبتى النفس من جهة العقل
٦٥٤ المسئلة السادسة فى اثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية
٦٥٦ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بأن القرآن مخلوق والجواب عنه
٦٥٦ المسئلة الاولى فى بيان كيفية اعجاز القرآن
٦٦٤ المسئلة الثانية فى بيان ماذكر فى القرآن من معجزات موسى عليه السلام
٦٧٢ (سورة الكهف وفيها المسائل الآتية)
٦٧٣ المسئلة الثالثة فى بيان ان انزال الكتاب نعمة على الرسول عليه الصلاة والسلام ونعمة علينا
٦٧٦ المسئلة الثانية فى بيان الطوائف الذين أثبتوا الولد لله تعالى وفى ابطال مقالاتهم
٦٨٢ المسئلة السادسة فى بيان احتجاج أهل السنة الصوفية على صحة القول بالكرامات
٦٩١ المسئلة السابعة فى بيان الفرق بين الكرامات والاستدراج
٦٩٣ المسئلة الثامنة فى بيان أن الولى هل يعرف كونه وليا أم لا
٧٠٤ المسئلة الثالثة فى مذهب أهل السنة والمعتزلة فى ارادة الافعال وعدمها

صحيفه

٧٠٤ المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج القائلين بان المعدوم شئ على قولهم والجواب عنه
٧٠٧ المسئلة الرابعة فى بيان اختلاف الناس فى زمان أهل الكهف وفى مكانهم
٧٠٨ المسئلة الخامسة فى بيان أن مدار القول بالبعث والقيامة على أصول ثلاثة
٧١٠ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج أهل السنة على انه تعالى هو الذى يخلق الجهل والغفلة
٧١٣ المسئلة الثانية فى استدلال المعتزلة على ان الكفر والايمان والطاعة والمعصية مفوض الى العبد
٧١٣ المسئلة الثالثة فى بيان فوائد قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
٧٢٥ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المشبهة على انه تعالى يحضر فى المكان والجواب عنه
٧٤١ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على ان الاستطاعة لا تكون قبل الفعل
٧٤١ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء على قولهم والجواب عنه
٧٥٠ المسئلة الثانية فى بيان ان ذا القرنين من هو وفى سبب تسميته بهذا الاسم
٧٥٢ المسئلة الثالثة فى بيان أن ذا القرنين هل كان من الانبياء أم لا
٧٦٢ ﴿ سورة مريم عليها السلام وفيها المسائل الآتية ﴾
٧٧٧ القول فى فوائد قصة زكريا عليه السلام
٧٩٨ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على قدم كلام الله تعالى
٨٠٨ الكلام فى تقرير احتجاج من طعن فى عصمة الانبياء والجواب عنه

(تمت)

528

الجزء الخامس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين

ابن العلامة ضياء الدين عمر

المشتهر بخطيب الرى

نفع الله به المسلمين

آمين

م

* (وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود) *

(ويستنبئونك) أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار (أحق هو) أحق خبر قدم على المبتدا الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك وقرئ آلحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق (قل) لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضبا عما قصدوا وبانيا للامر على أساس الحكمة (اى وربى) اى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (انه) أى العذاب الموعود (لحق) لثابت البتة أكد الجواب بأتم وجوه التاكيد حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لامحالة وهو اما معطوف على جواب القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور (ولو أن لكل نفس ظلمت) بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا (ما فى الارض) أى ما فى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت (لافتدت به) أى جعلته فدية لها * لمن * من العذاب من افتداه بمعنى فداه (وأسروا) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى صورة الافراد أيضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

* قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو قل اى وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون) اعلم انه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين واجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم انهم رجعوا الى الرسول مرة أخرى فى عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا أحق هو واعلم ان هذا السؤال جهل محض من وجوه (أولها) انه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون فى الاعادة فائدة (وثانيها) انه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولا من عند الله وهو بيان كون القرآن معجزا واذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه فهذه المعانى توجب الاعراض عنهم وترك الالتفات الى سؤالهم واختلفوا فى الضمير فى قوله أحق هو وقيل أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع وقيل ما تعدنا من البعث والقيامة وقيل ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا ثم انه تعالى أمره ان يجيبهم بقوله قل اى وربى انه لحق والفائدة فيه أمور (أحدها) ان يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر ان من أخبر عن شئ وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وادخله فى باب الجد (وثانيها) ان الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشئ الا بالبرهان الحقيقى ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقى بل ينتفع بالاشياء الاقناعية نحو القسم فان الاعرابى الذى جاء الرسول عليه السلام وسال عن نبوته ورسالته اكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم فكذا ههنا ثم انه تعالى اكد ذلك بقوله وما أنتم بمعجزين ولا بد فيه من تقدير محذوف فيكون المراد وما أنتم بمعجزين

ما توهم من فرض كون جميع ما فى الارض لكل واحدة من النفوس وإيثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه (الندامة) على مافعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا (لما رأوا العذاب) أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال مالم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا ﴿ ٣ ﴾ بشئ فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ما تقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الامر أشد من أن يعتريهم هناك شئ غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة اخلصوها لان اسرارها اخلاصها أو لان سر الشئ خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل اظهروا الندامة من قولهم سر الشئ وأسره اذا أظهره حين عيل صبره وفنى تجلده (وقضى بينهم) أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به (بالقسط) بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لايساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا (وهم) أى الظالمون (لايظلمون) فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية (ألا ان لله ما فى السموات والارض) أى ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء

لمن وعدكم بالعذاب ان ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحدا لا يجوز ان يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى ثم انه تعالى بين ان هذا الجنس من الكلمات انما يجوز عليهم ماداموا فى الدنيا فاما اذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا باشياء أخرى ثم انه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء (أولها) قوله ولو ان لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به الآن ذلك متعذر لانه فى محفل القيامة لايملك شيئا كما قال تعالى وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وبتقدير ان يملك خزائن الارض لاينفعه الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون وقال فى صفة هذا اليوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (وثانيها) قوله وأسروا الندامة لما رأوا العذاب واعلم ان قوله واسروا الندامة جاء على لفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة الا انها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى واعلم ان الاسرار هو الاخفاء والاظهار وهو من الاضداد أما ورود هذه اللفظة بمعنى الاخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الاظهار فهو من قولهم سر الشئ وأسره اذا أظهره اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد منه اخفاء تلك الندامة والسبب فى هذا الاخفاء وجوه (الاول) انهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق بكلمة (الثانى) انهم أسروا الندامة من سفلتهم واتباعهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم فان قيل ان مهابة ذلك الموقف تمنع الانسان عن هذا التدبير فكيف قدموا عليه قلنا ان هذا الكتمان انما يحصل قبل الاحتراق بالنار فاذا احترقوا تركوا هذا الاخفاء واظهروه بدليل قوله تعالى قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا (الثالث) انهم أسروا تلك الندامة لانهم اخلصوا لله فى تلك الندامة ومن اخلص فى الدعاء اسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم يعنى انهم لما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته لم ينفعهم بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف وأما من فسر الاسرار بالاظهار فقوله ظاهر لانهم انما اخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفى القيامة بطل هذا الغرض فوجب الاظهار (وثالثها) قوله تعالى وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون فقيل بين المؤمنين والكافرين وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل بين الكفار بانزال العقوبة عليهم واعلم ان الكفار وان اشتركوا فى العذاب فانه لابد وان يقضى الله تعالى بينهم لانه لايمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه فيكون فى ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضى أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ولا سبيل اليه الا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين * قوله تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض ألا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون هو يحيى ويميت واليه ترجعون) اعلم ان من الناس من قال ان تعلق هذه الآية بما قبلها هو انه تعالى

قال قبل هذه الآية ولوان لكل نفس ظلمت مافى الارض لافتدت به فلاجرم قال فى هذه الآية ليس للظالم شئ يفتدى به فان كل الاشياء ملك الله تعالى وملكه واعلم ان هذا التوجيه حسن اما الاحسن أن يقال انا قد ذكرنا أن الناس على طبقات فمنهم من يكون انتفاعه بالاقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات أما المحققون فانهم لايلتفتون الى الاقناعيات وانما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة فلما حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا أحق هو أمر الرسول عليه السلام بأن يقول اى ور بى وهذا جار مجرى الاقناعيات فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره ان القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على اثبات الاله القادر الحكيم وان كل ماسواه فهو ملكه وملكه فعبر عن هذا المعنى بقوله الا ان لله مافى السموات والارض ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية لانه تعالى قد استقصى فى تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة وهو قوله ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض وقوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها وذكر ان كل مافى العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ومتى كان الامر كذلك كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات غنيا عن جميع الحاجات منزها عن النقائص والآفات فهو تعالى لكونه قادرا على جميع الممكنات يكون قادرا على انزال العذاب على الاعداء فى الدنيا وفى الآخرة و يكون قادرا على ايصاله الرحمة الى الاولياء فى الدنيا وفى الآخرة و يكون قادرا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة و يكون قادرا على اعلاء شأن رسوله واظهار دينه وتقوية شرعه ولما كان قادرا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزها عن النقائص والآفات كان منزها عن الخلف والكذب وكل ماوعد به فلابد وان يقع هذا اذا قلنا انه تعالى لايراعى مصالح العباد أما اذا قلنا انه تعالى يراعيها فنقول الكذب انما يصدر عن العاقل اما للعجز أو للجهل أو للحاجة ولما كان الحق سبحانه منزها عن الكل كان الكذب عليه محالا فلما اخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار و بحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه فثبت بهذا البيان ان قوله تعالى الا ان لله مافى السموات والارض مقدمة توجب الجزم بصحة قوله الا ان وعد الله حق ثم قال ولكن أكثرهم لايعلمون والمراد انهم غافلون عن هذه الدلائل مغرورون بظواهر الامور فلاجرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ثم انه أكد هذه الدلائل فقال هو يحيى و يميت واليه ترجعون والمراد انه لما قدر على الاحياء فى المرة الاولى فاذا أماته وجب أن يبقى قادرا على احيائه فى المرة الثانية فظهر بما ذكرنا انه تعالى أمر رسوله بأن يقول اى ور بى ثم انه تعالى اتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة واعلم ان فى قوله الا ان لله مافى السموات والارض دقيقة اخرى وهى كلمة الا وذلك لان هذه الكلمة انما تذكر عند

تنبيه

اظهار الاسم الجليل لتفخيم شان الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو امابمعنى الموعود أى جميع ما وعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وما ذكر فى أثناء بيان حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدرى أى وعده بجميع ما ذكر فمعنى قوله تعالى (حق) على الاول ثابت واقع لامحالة وعلى الثانى مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ماسلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (ولكن أكثرهم) لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة المعتادة (لايعلمون) ذلك فيقولون مايقولون و يفعلون مايفعلون (هو يحيى و يميت) فى الدنيا من غير دخل لاحد فى ذلك (واليه ترجعون) فى الآخرة بالبعث والحشر

تنبيه الغافلين وايقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر الى الاسباب الظاهرة فيقولون البستان للامير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شئ الى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين فى نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الاضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله ألا ان لله مافى السموات والارض وذلك لانه لما ثبت بالعقل ان ماسوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وثبت ان الممكن مستند الى الواجب لذاته اما ابتداء او بواسطة فثبت ان ماسواه ملكه وملكه واذا كان كذلك فليس لغيره فى الحقيقة ملك فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به لاجرم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر هذا النداء لعل واحدا منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة * قوله تعالى (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الطريق الى اثبات نبوة الانبياء عليهم السلام أمران (الاول) أن نقول ان هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك فهو رسول من عند الله حقا وصدقا وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى فى هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه فى قوله وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقد ذكرنا فى تفسير هذه الآية ما يقوى الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات (وأما الطريق الثانى) فهو أن نعلم بعقولنا ان الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو فكل من جاء ودعا الخلق اليه وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية فى نقل الناس من الكفر الى الايمان ومن الاعتقاد الباطل الى الاعتقاد الحق ومن الاعمال الداعية الى الدنيا الى الاعمال الداعية الى الآخرة فهو النبى الحق الصادق المصدق وتقريره ان نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا ونحن نعلم بعقولنا ان سعادة الانسان لا تحصل الا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وحاصله يرجع الى حرف واحد وهو ان كل ما قوى نفرتك عن الدنيا ورغبتك فى الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية واذا كان الامر كذلك كانوا محتاجين الى انسان كامل قوى النفس مشرق الروح علوى الطبيعة ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان الى مقام الكمال وذلك هو النبى فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة الناقصون والكاملون الذين لا يقدرون على تكميل الناقصين والقسم الثالث هو الكامل الذى يقدر على تكميل الناقصين فالقسم الاول هو عامة الخلق والقسم الثانى هم الاولياء والقسم الثالث هم الانبياء ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان الى درجة

(ياأيها الناس) التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وايذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم (قد جاءتكم موعظة) هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أى موعظة كائنة من مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى (وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)

الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة لا جرم كانت درجات الانبياء فى قوة النبوة مختلفة ولهذا السر قال النبى صلى الله عليه وسلم علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل اذا عرفت هذه المقدمة فنقول انه تعالى لما بين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق المعجزة ففى هذه الآية بين صحة نبوته بالطريق الثانى وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها فالاستدلال بالمعجز هو الذى تسميه المنطقيون برهان الان وهذا الطريق هو الطريق الذى يسمونه برهان اللم وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى وصف القرآن فى هذه الآية بصفات أربعة (أولها) كونه موعظة من عند الله (وثانيها) كونه شفاء لما فى الصدور (وثالثها) كونه هدى (ورابعها) كونه رحمة للمؤمنين ولابد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول ان الارواح لما تعلقت بالاجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعى وحب للروح على الجسد ثم ان جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسدانى وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها ومن المعلوم ان نور العقل انما يحصل فى آخر الدرجة حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية فصار ذلك الاستغراق سببا لحصول العقائد الباطلة والاخلاق الذميمة فى جوهر الروح وهذه الاحوال تجرى مجرى الامراض الشديدة لجوهر الروح فلابد لها من طبيب حاذق فان من وقع فى المرض الشديد فان لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لامحالة وان اتفق ان صادفه مثل هذا الطبيب وكان هذا البدن قابلا للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم اذا عرفت هذا فنقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب الحاذق وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التى بتركيبها تعالج القلوب المرضية ثم ان الطبيب اذا وصل الى المريض فله معه مراتب أربعة (الاولى) أن ينهاه عن تناول مالا ينبغى و يأمره بالاحتراز عن تلك الاشياء التى بسببها وقع فى ذلك المرض وهذا هو الموعظة فانه لامعنى للوعظ الا الزجر عن كل مايبعد عن رضوان الله تعالى والمنع عن كل مايشغل القلب بغير الله (وثانيها) الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الاخلاط الفاسدة الموجبة للمرض فكذلك الانبياء عليهم السلام اذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل مالا ينبغى فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة فى ازالة الاخلاق الذميمة وتحصيل الاخلاق الحميدة وأوائلها ماذكره الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وذلك لانا ذكرنا ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة جارية مجرى الامراض فاذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهرا عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت (والمرتبة الثالثة) حصول الهدى وهذه المرتبة لايمكن حصولها الابعد المرتبة الثانية لان جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والاضواء الالهية وفيض الرحمة

أى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن أحوال الاعمال حسناتها وسيآتها مرغب فى الاولى ورادع عن الاخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم

عام غير منقطع على ماقال عليه الصلاة والسلام ان لربكم فى أيام دهركم نفحات الافتعرضوا لها وأيضا فالمنع انما يكون اما للعجز أوللجهل أوللبخل والكل فى حق الحق ممتنع فالمنع فى حقه ممتنع فعلى هذا عدم حصول هذه الاضواء الروحانية انما كان لاجل ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة طبعها طبع الظلمة وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النورفاذا زالت تلك الاحوال فقد زال العائق فلابد وأن يقع ضوء عالم القدس فى جوهر النفس القدسية ولا معنى لذلك الضوء الا الهدى فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت وأول هذه المرتبة هو قوله يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك وأوسطها قوله تعالى ففروا الى الله وآخرها قوله قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ومجموعها قوله ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه ومار بك بغافل عما تعملون وسيجىء تفسير هذه الآيات فى مواضعها باذن الله تعالى وهذه المرتبة هى المراد بقوله سبحانه وهدى (وأما المرتبة الرابعة) فهى أن تصير النفس البالغة الى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على اجرام هذا العالم وذلك هو المراد بقوله ورحمة للمؤمنين وانما خص المؤمنين بهذا المعنى لان أرواح المعاندين لا تستضىء بأنوار أرواح الانبياء عليهم السلام لان الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذى يكون وجهه مقابلا لوجه الشمس فان لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه فكذلك كل روح لم لم تتوجه الى خدمة أرواح الانبياء المطهرين لم تنتفع بأنوارهم ولم يصل اليها آثار تلك الارواح المطهرة المقدسة وكما أن الاجسام التى لاتكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب فى البعد عن هذه المقابلة ولاتزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهى ذلك الجسم الى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس فلاجرم يبقى خالص الظلمة فكذلك تتفاوت مراتب النفوس فى قبول هذه الانوار عن أرواح الانبياء ولا تزال تتزايد حتى تنتهى الى النفس التى كمنت ظلمتها وعظمت شقاوتها وانتهت فى العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة الى أقصى الغايات وأبعد النهايات فالحاصل أن الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغى وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الارواح عن العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى وهو اشارة الى ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة وهى اشارة الى كونها بالغة فى الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهى النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ماتقدم ذكره ولاتقديم ماتأخر ذكره ولما نبه الله تعالى فى هذه الآية على هذه الاسرار العالية الالهية قال قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون والمقصود منه الاشارة الى ماقرره حكماء الاسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق فى مواضع كثيرة

(قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بان يغتنموا مافى مجىء القرآن العظيم من الفضل والرحمة (بفضل الله وبرحمته) المراد بهما امامافى مجىء القرآن من الفضل والرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل (فبذلك فليفرحوا) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثانى عليه والفاء الاولى جزائية

من هذا الكتاب المبالغة فى تقرير هذا المعنى فلا فائدة فى الاعادة انتهى (المسئلة الثالثة) قوله قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا تقديره بفضل الله و برحمته فليفرحوا ثم يقول مرة أخرى فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد وأيضا قوله فبذلك فليفرحوا يفيد الحصر يعنى يجب أن لا يفرح الانسان الا بذلك واعلم ان هذا الكلام يدل على أمرين (أحدهما) أنه يجب أن لا يفرح الانسان بشئ من الاحوال الجسمانية و يدل عليه وجوه (الاول) ان جماعة من المحققين قالوا لا معنى لهذه اللذات الجسمانية الا دفع الآلام والمعنى العدمى لا يستحق أن يفرح به (والثانى) ان بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية لكنها معنوية من وجوه (الاول) ان التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها الا ترى ان أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ولا شك ان الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية (والثانى) أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة فانه لا سبيل الى تحصيل اللذة الجسمانية الا بهذين الطريقين أعنى لذة البطن والفرج وأما الآلام فان كل جزء من أجزاء بدن الانسان معه نوع آخر من الآلام ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخرة (والثالث) ان اللذات الجسمانية لا تكون خالصة البتة بل تكون ممزوجة بانواع من المكاره فلو لم يحصل فى لذة الاكل والوقاع الا اتعاب النفس فى مقدماتها وفى لواحقها لكفى (الرابع) ان اللذات الجسمانية لا تكون باقية فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد ولذلك قال المعرى ان حزنا فى ساعة الموت أضعا * ف سرور فى ساعة الميلاد

فمن المعلوم ان الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته (الخامس) ان اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء لان لذة الاكل لا تبقى بحالها بل كما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالاكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة (السادس) ان اللذات الجسمانية التذاذ باشياء خسيسة فانها التذاذ بكيفيات حاصلة فى أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير فاما اللذات الروحانية فانها بالضد فى جميع هذه الجهات فثبت ان الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء (والبحث الثانى) من مباحث هذه الآية أنه اذا حصلت اللذات الروحانية فانه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هى هى بل يجب أن يفرح بها من حيث انها من الله تعالى و بفضل الله و برحمته فلهذا السبب قال الصديقون من فرح بنعمة الله من حيث انها تلك النعمة فهو مشرك أما من فرح بنعمة الله من حيث انها من الله كان فرحه بالله وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا يعنى فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هى هى بل من حيث انها بفضل الله و برحمة الله فهذه اسرار عالية اشتملت عليها هذه الالفاظ التى ظهرت من عالم الوحى والتنزيل هذا ما لخص عندنا فى هذا الباب

والثانية للدلالة على السببية والاصل ان فرحوا بشئ فبذلك ليفرحوا لا بشئ آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الاشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته و يجوز أن يراد بفضل الله و برحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا و يجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أى جاءتكم موعظة بفضل الله و برحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقرئ فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن أبى بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله و برحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقيل فضله الاسلام ورحمته ما وعد عليه (هو) أى ما ذكر من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وقرئ تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما يجمعون ايها المخاطبون

﴿ اما ﴾

(قل أرأيتم) اى أخبرونى (ما انزل الله لكم من رزق) ما منصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلا لانه مقدر فى السماء محصل هو أو ما يتوقف عليه وجودا أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين (فجعلتم منه) اى جعلتم بعضه (حراما) اى حكمتم بانه حرام (وحلالا) اى وجعلتم بعضه حلالا اى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه ﴿ ٩ ﴾ أنعام وحرث حجر الآية وقولهم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قل) تكرير لتأكيد الامر بالاستخبار اى أخبرونى (آلله أذن لكم) فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى (أم على الله تفترون) أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ما يفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ماسيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم ﴿ ٢ ﴾ خا بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد التسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا لاظهار كمال قبح ما افتعلوا وكونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل (يوم القيامة) ظرف لنفس الظن اى أى شئ ظنهم فى ذلك

أما المفسرون فقالوا فضل الله الاسلام و رحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن و رحمته ان جعلكم من أهله (المسئلة الرابعة) قرئ فلتفرحوا بالتاء قال الفراء وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبى فبذلك فافرحوا والاصل فى الامر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد وذلك لان حكم الامر فى الصورتين واحد الا ان العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله وحذفوا التاء أيضا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائى يعيب قولهم فليفرحوا لانه وجده قليلا فجعله عيبا الا أن ذلك هو الاصل و روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض المشاهد لتاخذوا مصافكم يريد به خذوا هذا كله كلام الفراء وقرئ تجمعون بالتاء و وجهه انه تعالى عنى المخاطبين والغائبين الا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الانسان حصل فيه معنى يدعوه الى خدمة الله تعالى والى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات وفيه معنى آخر يدعوه الى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية ومادام الروح متعلقا بهذا الجسد فانه لا ينفك عن حب الجسد وعن طلب اللذات الجسمانية فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين وقال حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الالهية و بين النوازع النفسانية الجسدانية والترجيح لجانب العقل لانه يدعو الى فضل الله و رحمته والنفس تدعو الى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لان الآخرة خير وأبقى وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل * قوله تعالى (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الناس ذكروا فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها ولا أستحسن واحدا منها والذى يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان (الاول) ان المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث فى اثبات النبوة وتقريره انه عليه الصلاة والسلام قال للقوم انكم تحكمون بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه على سبيل الافتراء على الله تعالى وتعلمون أنه حكم حكم الله به والاول طريق باطل بالاتفاق فلم يبق الا الثانى ثم من المعلوم انه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة ولما بطل هذا ثبت ان هذه الاحكام انما وصلت اليكم بقول رسول أرسله الله اليكم ونبى بعثه الله اليكم وحاصل الكلام ان حكمكم بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل فى الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة واذا كان الامر كذلك فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة فى انكار

اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الامور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الاحوال لكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم اى أى شئ ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون انهم لا يسئلون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا ولاجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا انهم ﴿ ١٠ ﴾ لفى أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقرئ على لفظ الماضى اى اى ظن ظنوا يوم القيامة وايراد صيغة الماضى لانه كائن فكأنه قد كان (ان الله لذو فضل) اى عظيم لا يكتنه كنهه (على الناس) جميعا حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل وبين لهم الاسرار التى لا تستقل العقول فى ادراكها وأرشدهم الى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد (ولكن أكثرهم لا يشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لا يدرك الا به وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل سبق مقرر لمضمونه (وما تكون فى شأن) اى فى أمر من شأنت شأنه اى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول (وما تتلو منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف اى تلاوة كائنة من الشأن اذ هى معظم شؤنه عليه السلام أو للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية ﴿ وهو أو تبعيضية أو لله عزوجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى (من قرآن) مزيدة لتأكيد النفى او ابتدائية على الوجه الاول وبيانية أو تبعيضية على الثانى والثالث (ولا تعملون من عمل) تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل من المقامين ما يليق به حيث ذكر أولا من الاعمال ما فيه فخامة وجلالة وثانيا ما يتناول الجليل

النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذى ذكرته طريق حسن معقول (الطريق الثانى) فى حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه و بين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم فى انكارها أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم فى شرائعهم وأحكامهم و بين ان التمييز بين هذه الاشياء بالحل والحرمة مع أنه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد والمقصود ابطال مذاهب القوم فى أديانهم وفى أحكامهم وأنهم ليسوا على شئ فى باب من الابواب (المسئلة الثانية) المراد بالشئ الذى جعلوه حراما ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأيضا قوله تعالى وقالوا هذه أنعام وحرث حجر الى قوله وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وأيضا قوله تعالى ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين والدليل عليه أن قوله فجعلتم منه حراما اشارة الى أمر تقدم منهم ولم يحك الله تعالى عنهم الا هذا فوجب توجه هذا الكلام اليه ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وهذه القسمة صحيحة لان هذه الاحكام اما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله فان كانت من الله تعالى فهو المراد بقوله آلله أذن لكم وان كانت ليست من الله فهو المراد بقوله أم على الله تفترون ثم قال تعالى وما ظن الذين يفترون على الله الكذب وهذا وان كان فى صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفترى على الله وقرأ عيسى بن عمر وما ظن على لفظ الفعل ومعناه أى ظن ظنوه يوم القيامة وجئ به على لفظ الماضى لما ذكرنا ان أحوال القيامة وان كانت آتية الا أنها لما كانت واجبة الوقوع فى الحكمة لا جرم عبر الله عنها بصيغة الماضى ثم قال ان الله لذو فضل على الناس أى باعطاء العقل وارسال الرسل وانزال الكتب ولكن أكثرهم لا يشكرون فلا يستعملون العقل فى التأمل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله (المسئلة الثالثة) ما فى قوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله فيه وجهان (أحدهما) بمعنى الذى فينتصب برأيتم والآخر أن يكون بمعنى أى فى الاستفهام فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وجاز أن يعبر عن الخلق بالانزال لان كل ما فى الارض من رزق فمما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما فلما كان ايجاده بالانزال سمى انزالا ﴿ قوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه لما أطال الكلام فى أمر الرسول بايراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار وفى أمره بايراد الجواب عن شبهاتهم وفى أمره بتحمل أذاهم وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين وتمام الخوف والفزع للمذنبين

والحقير (الا كنا عليكم شهودا) استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة اى ماتلابسون بشئ منها فى حال من الاحوال الاحال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له (اذ تفيضون فيه) اى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث اريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى أيضا أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة اذا التى تفيد المضارع معنى الماضى (ومايعزب عن ربك) اى لايبعد ولايغيب عن علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف مالايخفى وقرئ بكسر الزاى (من مثقال ذرة) كلمة من مزيدة لتأكيد النفى اى مايعزب عنه مايساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء (فى الارض ولا فى السماء) اى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لاتعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال أهلها والمقصود اقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كأنه قيل لايعزب عن ربك شئ ما لكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا و يعزب بمعنى يبين و يصدر والمعنى لايصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ (ألا ان أولياء الله) بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل ما يأتون وما يذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع مافى السماء والارض و كون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعدما أشير الى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وماسيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق

وهو كونه سبحانه عالما بعمل كل واحد و بما فى قلبه من الدواعى والصوارف فان الانسان ربما أظهر من نفسه نسكا وطاعة وزهدا وتقوى و يكون باطنه مملوأ من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك فاذا كان الحق سبحانه عالما بما فى البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى خصص الرسول فى أول هذه الآية بالخطاب فى أمرين ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين فى شئ واحد أما الامران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام (فالاول) منهما قوله وماتكون فى شأن واعلم ان ماههنا جحدوا الشأن الخطب والجمع الشؤن تقول العرب ماشأن فلان أى ماحاله قال الاخفش وتقول ماشأنت شأنه اى ماعملت عمله وفيه وجهان قال ابن عباس وماتكون يامحمد فى شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن فى شأن من شان الدنيا وحوائجك فيها (والثانى) منهما قوله تعالى وماتتلو منه من قرآن واختلفوا فى أن الضمير فى قوله منه الى ماذا يعود وذكروا فيه ثلاثة أوجه (الاول) أنه راجع الى الشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه وعلى هذا التقدير فكان هذا داخلا تحت قوله وماتكون فى شأن الا أنه خصه بالذكر تنبيها على علو مرتبته كما فى قوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وكما فى قوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم (الثانى) ان هذا الضمير عائد الى القرآن والتقدير وماتتلو من القرآن من قرآن وذلك لانه كما أن القرآن اسم للمجموع فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والاضمار قبل الذكر يدل على التعظيم (الثالث) أن يكون التقدير وماتتلو من قرآن من الله اى نازل من عند الله وأقول قوله وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن أمران مخصوصان بالرسول صلى الله عليه وسلم وأما قوله ولاتعملون من عمل فهذا خطاب مع النبى ومع جميع الامة والسبب فى أن خص الرسول بالخطاب أولا ثم عمم الخطاب مع الكل هو ان قوله وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن وان كان بحسب الظاهر خطابا مختصا بالرسول الا ان الامة داخلون فيه ومرادون منه لانه من المعلوم أنه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب والدليل عليه قوله تعالى ياأيها النبى اذا طلقتم النساء ثم انه تعالى بعد أن خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال ولاتعملون من عمل فدل ذلك على كونهم داخلين فى الخطابين الاولين ثم قال تعالى الا كنا عليكم شهودا وذلك لان الله تعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ أما على أصول أهل السنة والجماعة فالامر فيه ظاهر لانه لامحدث ولاخالق ولاموجد الا الله تعالى فكل مايدخل فى الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة فكلها حصلت بايجاد الله تعالى واحداثه والموجد للشئ لابد وأن يكون عالما به فوجب كونه تعالى عالما بكل المعلومات وأما على أصول المعتزلة فقد قالوا انه تعالى حى وكل من كان حيا فانه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات

والموجب لتلك العالمية هو ذاته سبحانه فنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضي حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالما بجميع المعلومات أما قوله تعالى اذ تفيضون فيه فاعلم ان الافاضة ههنا الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه وهو الانبساط في العمل يقال افاض القوم في الحديث اذا اندفعوا فيه وقد أفاضوا من عرفة اذا دفعوا منه بكثرتهم فتفرقوا فان قيل اذ ههنا بمعنى حين فيصير تقدير الكلام الا كنا عليكم شهودا حين تفيضون فيه وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه فيلزم منه أن يقال انه تعالى ماعلم الاشياء الا عند وجودها وذلك باطل قلنا هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه وهذا ممنوع فان الشهادة لاتكون الا عند وجود المشهود عليه وأما العلم فلا يمتنع تقدمه على الشيء والدليل عليه ان الرسول عليه السلام لو أخبرنا عن زيد أنه يأكل غدا كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها واعلم ان حاصل هذه الكلمات أنه لايخرج عن علم الله شيء ثم انه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد فقال ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أصل العزوب من البعد يقال كلأ عازب اذا كان بعيد المطلب وعزب الرجل بابله اذا أرسلها الى موضع بعيد من المنزل والرجل سمي عزبا لبعده عن الاهل وعزب الشيء عن علمي اذا بعد (المسئلة الثانية) قرأ الكسائي ومايعزب بكسر الزاي والباقون بالضم وفيه لغتان عزب يعزب وعزب يعزب (المسئلة الثالثة) قوله من مثقال ذرة اى وزن ذرة ومثقال الشيء مايساويه في الثقل والمعنى مايساوي ذرة والذر صغار النمل واحدها ذرة وهي تكون خفيفة الوزن جدا وقوله في الارض ولا في السماء فالمعنى ظاهر فان قيل لم قدم الله ذكر الارض ههنا على ذكر السماء مع انه تعالى قال في سورة سبأ عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض قلنا حق السماء أن تقدم على الارض الا انه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الارض وأعمالهم ثم وصل بذلك قوله لايعزب عنه ناسب أن تقدم الارض على السماء في هذا الموضع ثم قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وفيه قراءتان قرأ حمزة ولا أصغر ولا أكبر بالرفع فيهما والباقون بالنصب واعلم ان قوله ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة تقديره ومايعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ مثقال عند دخول كلمة من عليه مجرور بحسب الظاهر ولكنه مرفوع في المعنى فالمعطوف عليه ان عطف على الظاهر كان مجرورا الا ان لفظ أصغر وأكبر غير منصرف فكان مفتوحا وان عطف على المحل وجب كونه مرفوعا ونظيره قوله ماأتاني من أحد عاقل وعاقل وكذا قوله مالكم من اله غيره وغيره وقال الشاعر ❊ فلسنا بالجبال ولا الحديدا ❊ هذا ماذكره النحويون قال صاحب

التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولي لغة القريب والمراد باولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم (لاخوف عليهم) في الدارين من لحوق مكروه (ولاهم يحزنون) من فوات مطلوب اى لايعتريهم مايوجب ذلك لا انه يعتريهم لكنهم لايخافون ولايحزنون ولا انه لايعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار * ١٢ * الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعي في اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفي وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لايعتريهم ذلك لان مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لاريب في حصوله والاحتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ماعدا ذلك من الامور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهي بمعزل عن الانتظام في سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عزوجل (الذين آمنوا) اى بكل ماجاء من عندالله تعالى (وكانوا يتقون) اى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل بيان وتفسير لهم اشارة الى مابه نالوا مانالوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال ومحل الموصول الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف ❊الكشاف❊ كأنه قيل من أولئك وماسبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على انه وصف مادح للاولياء ولايقدح في ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة

الكشاف اوضح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية ومايعزب عنه شئ فى الارض ولافى السماء الافى كتاب وحينئذ يلزم أن يكون الشئ الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله تعالى وانه باطل وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين (الاول) أنا بينا ان العزوب عبارة عن مطلق البعد واذا ثبت هذا فنقول الاشياء المخلوقة على قسمين قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والارض وقسم آخر اوجده الله بواسطة القسم الاول مثل الحوادث الحادثة فى عالم الكون والفساد ولاشك ان هذا القسم الثانى قد يتباعد فى سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله ومايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولااكبر الافى كتاب مبين اى لايبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء الاوهو فى كتاب مبين وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه ومتى كان الامر كذلك فقد كان عالما بها محيطا بأحوالها والغرض منه الرد على من يقول انه تعالى غير عالم بالجزئيات وهو المراد من قوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (والوجه الثانى) فى الجواب أن نجعل كلمة الافى قوله الافى كتاب مبين استثناء منقطعا بمعنى لكن هو فى كتاب مبين وذكر أبو على الجرجانى صاحب النظم عنه جوابا آخر فقال قوله ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولاأكبر ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر وهو قوله الافى كتاب مبين اى وهو أيضا فى كتاب مبين قال والعرب تضع الا موضع واو النسق كثيرا على معنى الابتداء كقوله تعالى انى لايخاف لدى المرسلون الامن ظلم يعنى ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الاالذين ظلموا يعنى والذين ظلموا وهذا الوجه فى غاية التعسف وأجاب صاحب الكشاف بوجه رابع فقال الاشكال انما جاء اذا عطفنا قوله ولاأصغر من ذلك ولاأكبر على قوله من مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء اما بحسب الظاهر أو بحسب المحل لكنا لانقول ذلك بل نقول الوجه فى القراءة بالنصب فى قوله ولاأصغر من ذلك الحمل على نفى الجنس وفى القراءة بالرفع الحمل على الابتداء وخبره قوله فى كتاب مبين وهذا الوجه اختيار الزجاج * قوله تعالى

(ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) اعلم انا بينا ان قوله تعالى وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن مما يقوى قلوب المطيعين ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور فى هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انا نحتاج فى تفسير هذه الآية الى أن نبين أن الولى من هو ثم نبين تفسير نفى الخوف والحزن عنه فنقول أما ان الولى من هو فيدل عليه القرآن والخبر والاثر والمعقول أما القرآن فهو قوله فى هذه الآية الذين آمنوا وكانوا يتقون فقوله آمنوا اشارة الى كمال حال القوة النظرية وقوله وكانوا يتقون

لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك اعنى تنز الانسان عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عزوجل ولاتعملون من عمل خلا أنهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجا استعداداتهم الفائضة عل بموجب المشيئة المبنية على الحكم الالهية اقصاها ماانته اليه همم الانبياء عليهم السلا حتى جمعوا بذلك بين رياست النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الاشباح عن الاستغراق فى عالم الارواح ولم تصدهم الملابسة بمصا الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدس فلاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فاولياء الله هم المؤمنو المتقون ويقرب منه ماقيل من انهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولايخالف ماقيل من انهم الذين يذكر الله برؤيتهم لماروى عن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم اى بسمتهم واخباتهم وسكينتهم ولاماقيل من انهم المتحابون فى الله لماروى عن ع رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ليسوا بانبياء ولاشهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يارسول الله خبرنا من هم وماأعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولاأموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولايحزنون اذا حزن الناس فانما ذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الاحكام الدنيوية اللازمة للايمان

التقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هنالك من احكامهما فلعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الاقوال والافعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم ﴿ ١٤ ﴾ وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم و بينهم من جهة النسب والقرابة تأكيدا ما بينهم من الاخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوافقهم فى الدين من ارحامهم وأما ما ذكر من انه يغبطهم الانبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل قوله عزوجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) تفسير لتوليه تعالى اياهم ولا ريب فى أن اعتبار القيد الاخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل الا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم و يستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى ﴿ وحزن ﴾ بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الاول تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل

اشارة الى كمال حال القوة العملية وفيه مقام آخر وهو أن يحمل الايمان على مجموع الاعتقاد والعمل ثم نصف الولى بانه كان متقيا فى الكل أما التقوى فى موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر فالصديق اذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرا على ذلك المقدار الذى عرفه ووصفه به واذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت انه ابدا يكون فى مقام الخوف والتقوى وأما الاخبار فكثيرة روى عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ هذه الآية وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم قال أهل التحقيق السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ولما ذكر الله تعالى سبحانه فى قوله سيماهم فى وجوههم من أثر السجود واما الاثر فقال أبو بكر الاصم أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه وأما المعقول فنقول ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب فولى كل شئ هو الذى يكون قريبا منه والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال فالقرب منه انما يكون اذا كان القلب مستغرقا فى نور معرفة الله تعالى سبحانه فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك فى خدمة الله وان اجتهد اجتهد فى طاعة الله فهنالك يكون فى غاية القرب من الله فهذا الشخص يكون وليا لله تعالى واذا كان كذلك كان الله تعالى وليا له ايضا كما قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ويجب ان يكون الامر كذلك لان القرب لا يحصل الا من الجانبين وقال المتكلمون ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة فهذا كلام مختصر فى تفسير الولى وأما قوله تعالى فى صفتهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ففيه بحثان (البحث الاول) أن الخوف انما يكون فى المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شئ فى المستقبل من المخوف والحزن انما يكون على الماضى اما لاجل أنه كان قد حصل فى الماضى ما كرهه أو لانه فات شئ أحبه (البحث الثانى) قال بعض المحققين ان نفى الحزن والخوف اما أن يحصل للاولياء حال كونهم فى الدنيا أو حال انتقالهم الى الآخرة والاول باطل لوجوه (أحدها) أن هذا لا يحصل فى دار الدنيا لانها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصا لا يخلو من ذلك على ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعلى ما قال حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (وثانيها) ان المؤمن وان صفا عيشه فى الدنيا فانه لا يخلو من هم بأمر الآخرة شديد

لهم مايسرهم فى الدارين وتقديم الاول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع مافيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الاهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور و بشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الاولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الاسباب والبشرى ﴿ ١٥ ﴾ مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل مافى الخبر من معنى الاستقرار اى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة اى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور اى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس *عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله و يحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به ❁ أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أوترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة ❁ وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ومايرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم ومايقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بماسيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لالذواتها ولايخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لايساعده جلالة شأن التنزيل الكريم

وحزن على مايفوته من القيام بطاعة الله تعالى واذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى لاخوف عليهم ولاهم يحزنون على أمر الآخرة فهذا كلام محقق وقال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب فولى الله تعالى هو الذى يكون فى غاية القرب من الله تعالى وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه فى معرفة الله تعالى بحيث لايخطر بباله فى تلك اللحظة شئ مما سوى الله ففى هذه الساعة تحصل الولاية التامة ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فان صاحبها لايخاف شيئا ولايحزن بسبب شئ وكيف يعقل ذلك والخوف من الشئ والحزن على الشئ لايحصل الابعد الشعور به والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ماسوى الله تعالى فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن وهذه درجة عالية ومن لم يذقها لم يعرفها ثم ان صاحب هذه الحالة قد تزول عنه هذه الحالة وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الاحوال الجسمانية كما يحصل لغيره وسمعت أن ابراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه فاتفق فى بعض الليالى ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس فى موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا منها والشيخ ماكان فازعا من تلك السباع فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففى الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة فقال المريد كيف تليق هذه الحالة بماقبلها فقال الشيخ انا انما تحملنا البارحة ماتحملناه بسبب قوة الوارد الغيبى فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى (المسئلة الثانية) قال أكثر المحققين ان أهل الثواب لايحصل لهم خوف فى محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون و بقوله تعالى لايحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة وأيضا فالقيامة دار الجزاء فلايليق به ايصال الخوف ومنهم من قال بل يحصل فيه أنواع من الخوف وذكروا فيه أخبارا تدل عليه الا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد وأما قوله الذين آمنوا وكانوا يتقون ففيه ثلاثة أوجه (الاول) النصب بكونه صفة للاولياء (والثانى) النصب على المدح (والثالث) الرفع على الابتداء وخبره لهم البشرى وأما قوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ففيه أقوال (الاول) المراد منه الرؤيا الصالحة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وعنه عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لايضره وعنه صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وعن ابن مسعود الرؤيا ثلاثة الهم يهم به الرجل من النهار فيراه فى الليل وحضور الشيطان والرؤيا التى هى الرؤيا الصادقة وعن ابرهيم الرؤيا ثلاثة فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزأ من النبوة والشئ يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان فاذا رأى أحدكم مايحزنه

لاتبديل لكلمات الله) لاتغيير لاقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا ويثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة المراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والاخروية بل عدم الخلف بينها وبين ما دل على ثبوتها ووقوعها فيما يأتى بطريق الوعد ✻ ١٦ ✻ من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر (ذلك) اشارة الى ما ذكر من ان لهم البشرى فى الدارين (هو الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة التى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شانه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام يتصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض (ولا يحزنك قولهم) تسلية لرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الاذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم اثر بيان أن له ولاتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرئ ولا يحزنك من أحزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لاتحزن بقولهم ولاتبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتفوهون به فى شانك مما لاخير فيه وانما وجه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر باصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لاأرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق ✻ والكرامة ✻ للحزن أيضا لما انه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الاوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى (ان العزة) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف اى الغلبة والقهر (لله جميعا) إى فى ملكته وسلطانه لايملك أحد شيئا منها أصلا لاهم ولاغيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم

فليقل أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياى التى رأيتها أن تضرنى فى دنياى أو فى آخرتى واعلم أنا اذا حملنا قوله لهم البشرى على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى أن لاتحصل هذه الحالة الالهم والعقل أيضا يدل عليه وذلك لان ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ومن كان كذلك فهو عند النوم لايبقى فى روحه الامعرفة الله ومن المعلوم أن معرفة الله ونور جلال الله لايفيده إلا الحق والصدق وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم فانه اذا نام يبقى كذلك فلاجرم لااعتماد على رؤياه فلهذا السبب قال لهم البشرى فى الحياة الدنيا على سبيل الحصر والتخصيص (القول الثانى) فى تفسير البشرى أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم اياه بالثناء الحسن عن أبى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن واعلم أن المباحث العقلية تقوى هذا المعنى وذلك أن الكمال محبوب لذاته لالغيره وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال صار محبوبا بالكل أحد ولاكمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله مستغرق اللسان بذكر الله مستغرق الجوارح والاعضاء بعبودية الله فاذا ظهر عليه أمر من هذا الباب صارت الالسنة جارية بمدحه والقلوب مجبولة على حبه وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر كانت هذه المحبة أقوى وأيضا فنور معرفة الله مخدوم بالذات ففى أى قلب حضر صار ذلك الانسان مخدوما بالطبع ألاترى ان البهائم والسباع قد تكون أقوى من الانسان ثم انها اذا شاهدت الانسان هابته وفرت منه وماذاك الالمهابة النفس الناطقة (والقول الثالث) فى تفسير البشرى انها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى فى الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وسلام الله عليهم كما قال سلام قولا من رب رحيم ويندرج فى هذا الباب ماذكره الله فى هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم ومايلقون فيها من الاحوال السارة فكل ذلك من المبشرات (والقول الرابع) ان ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه ودليله قوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان واعلم ان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل فى هذه الآية ومجموع الامور المذكورة مشتركة فى هذه الصفة فيكون الكل داخلا فيه فكل مايتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله لهم البشرى فى الحياة الدنيا وكل مايتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله وفى الآخرة ثم انه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم قال تعالى لاتبديل لكلمات الله والمراد انه لاخلف فيها والكلمة والقول سواء ونظيره قوله مايبدل القول لدى وهذا أحد مايقوى أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب

وقد كان كذلك فهي من جملة المبشرات العاجلة وقرئ بفتح ان على صريح التعليل أي لان العزة لله (هو السميع العليم) يسمع
مايقولون في حقك ويعلم مايعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا ان لله من في السموات ومن في الارض) أي العقلاء من
الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا
عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فاعداهم ﴿ ١٧ ﴾ من الموجودات أولى بذلك وهو مع مافيه من التأكيد لما

والكرامة لمن أطاعه بقوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ثم بين تعالى ان ذلك هو الفوز العظيم وهو كقوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ثم قال القاضي قوله لاتبديل لكلمات الله يدل على أنها قابلة للتبديل وكل ماقبل العدم امتنع أن يكون قديما ونظير هذا الاستدلال بحصول النسخ على ان حكم الله تعالى لايكون قديما وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه * قوله تعالى (ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم ألا ان لله من في السموات ومن في الارض ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) اعلم ان القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التي حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالاجوبة التي فسرناها وقررناها عدلوا الى طريق آخر وهو انهم هددوه وخوفوه وزعموا انا أصحاب التبع والمال فنسعى في قهرك وفي ابطال أمرك والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا واعلم أن الانسان انما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده لوجوز كونه مؤثرا في حاله فاذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لايؤثر خرج من أن يكون سببا لحزنه ثم انه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا فاذا كان الله تعالى هو الذي أرسله الى الخلق وهو الذي أمره بدعوتهم الى هذا الدين كان لامحالة ناصراله ومعينا ولما ثبت ان العزة والقهر والغلبة ليست الا له فقد حصل الامن وزال الخوف فان قيل فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفا حتى احتاج الى الهجرة والهرب ثم من بعد ذلك يخاف حالا بعد حال قلنا ان الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقا والوقت ماكان معينا فهو في كل وقت كان يخاف من أن لايكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام في هذا الوقت وأما قوله تعالى ان العزة لله جميعا ففيه ابحاث (البحث الاول) قال القاضي ان العزة بالالف المكسورة وفي فتحها فساد يقارب الكفر لانه يؤدي الى ان القوم كانوا يقولون ان العزة لله جميعا وان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك أما اذا كسرت الالف كان ذلك استئنافا وهذا يدل على فضيلة علم الاعراب قال صاحب الكشاف وقرأ أبو حيوة ان العزة بالفتح على حذف لام العلة يعني لان العزة على صريح التعليل (البحث الثاني) فائدة ان العزة لله في هذا المقام أمور (الاول) المراد منه ان جميع العزة والقدرة هي لله تعالى يعطي مايشاء لعباده والغرض منه أنه لايعطي الكفار قدرة عليه بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم فآمنه الله تعالى بهذا القول من اضرار الكفار به بالقتل والايذاء ومثله قوله تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلي انا لننصر رسلنا (الثاني) قال الاصم المراد ان المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الاشياء كلها لله تعالى فهو القادر

سبق من اختصاص العزة لله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى (ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وبرهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما امانافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أي مايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى (ان يتبعون الا الظن) أي مايتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله مايتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة في بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوا عليه من ظنهم شركاءها معبودين مع كونهم عبيدا له

سبحانه واما استفهامية ﴿ ٣ ﴾ خا أي وأي شئ يتبعون أي لايتبعون شيئا مايتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها الخ وقرئ تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأي شئ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة

ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق (وان هم الا يخرصون) يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه و يحزرون و يقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة

تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فبصرا حال والا فلكم مفعوله الثاني أو هو حال كما في الوجه الاول والمفعول الثاني لتسكنوا فيه أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما في الاولى والتقدير هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما يجيء نظيره في قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله الآية فحذف في كل واحد من الجانبين ما ذكر في الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك واسناد الابصار الى النهار مجازي كالذي في نهاره صائم (ان في ذلك) أي في جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته (لآيات) عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر (لقوم يسمعون) أي هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع انها منصوبة لمصلحة الكل لا ﴿ قول ﴾ انهم المنتفعون بها (قالوا) شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيلهم و بيان بطلانه (اتخذ الله ولدا) أي تبناه (سبحانه) تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغني) على الاطلاق عن كل شيء في كل شيء وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله

على أن يسلب منهم كل تلك الاشياء وان ينصرك و ينقل أموالهم وديارهم اليك فان قيل قوله ان العزة لله جميعا كالمضاد لقوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين قلنا لا مضادة لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله أما قوله هو السميع العليم أي يسمع ما يقولون و يعلم ما يعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك وأما قوله ألا ان لله من في السموات و من في الارض ففيه وجهان (الاول) انه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة ألا ان لله ما في السموات والارض وهذا يدل على ان كل ما لا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له وأما ههنا فكلمة من مختصة بمن يعقل فتدل على ان كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالا على ان الكل ملكه وملكه (والثاني) ان المراد من في السموات العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان وانما خصهم بالذكر ليدل على ان هؤلاء اذا كانوا له وفي ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحا في جعل الاصنام شركاء لله تعالى ثم قال تعالى وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وفي كلمة ما قولان (الاول) انه نفي وجحد والمعنى انهم ما اتبعوا شريك الله تعالى انما اتبعوا شيئا ظنوه شريكا لله تعالى و مثاله ان أحدنا لو ظن ان زيدا في الدار وما كان فيها فخاطب انسانا في الدار ظنه زيدا فانه لا يقال انه خاطب زيدا بل يقال خاطب من ظنه زيدا (الثاني) ان ما استفهام كأنه قيل أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعني انهم ليسوا على شيء ثم قال تعالى ان يتبعون الا الظن والمعنى انهم انما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة ثم بين ان هذا الظن لا حكم له وان هم الا يخرصون وذكرنا معنى الخرص في سورة الانعام عند قوله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون * قوله تعالى (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) اعلم انه تعالى لما ذكر قوله ان العزة لله جميعا احتج عليه بهذه الآية والمعنى انه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل النهار مبصرا أي مضيئا لتهتدوا به في حوائجكم بالابصار والمبصر الذي يبصر والنهار يبصر فيه وانما جعله مبصرا على طريق نقل الاسم من السبب الى المسبب فان قيل ان قوله هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه يدل على انه تعالى ما خلقه الا لهذا الوجه وقوله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيرة من الدلائل قلنا ان قوله تعالى لتسكنوا لا يدل على أنه لا حكمة فيه الا ذلك بل ذلك يقتضي حصول تلك الحكمة أما قوله تعالى ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون فالمراد يتدبرون ما يسمعون و يعتبرون به * قوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات و ما في الارض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون) اعلم أن هذا نوع آخر من الاباطيل التي حكاها الله تعالى عن الكفار وهي قولهم اتخذ الله ولدا و يحتمل أن يكون المراد حكاية

قول من يقول الملائكة بنات الله ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول الاوثان أولاد الله ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم انه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده هو الغنى له مافى السموات ومافى الارض واعلم ان كونه تعالى غنيا مالكا لكل مافى السموات والارض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد وبيان ذلك من وجوه (الاول) أنه سبحانه غنى مطلقا على مافى هذه الآية والعقل أيضا يدل عليه لانه لو كان محتاجا لافتقر الى صانع آخر وهو محال وكل من كان غنيا فانه لا بدوان يكون فردا منزها عن الاجزاء والابعاض وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الانسان ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله واذا كان هذا محالا ثبت ان كونه تعالى غنيا يمنع من ثبوت الولد له (الحجة الثانية) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا كان قديما أزليا باقيا سرمديا وكل من كان كذلك امتنع عليه الانقراض والانقضاء والولد انما يحصل للشئ الذى ينقضى و ينقرض فيكون ولده قائما مقامه فثبت ان كونه تعالى غنيا يدل على انه يمتنع أن يكون له ولد (الحجة الثالثة) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا فانه يمتنع أن يكون موصوفا بالشهوة واللذة واذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد (الحجة الرابعة) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له ولد لان اتخاذ الولد انما يكون فى حق من يكون محتاجا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة فمن كان غنيا مطلقا امتنع عليه اتخاذ الولد (الحجة الخامسة) ولد الحيوان انما يكون ولدا له بشرطين اذا كان مساويا له فى الطبيعة والحقيقة و يكون ابتداء وجوده وتكونه منه وهذا فى حق الله تعالى محال لانه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا كان واجب الوجود لذاته فلو كان لواجب الوجود ولد لكان ولده مساويا له فيلزم أن يكون ولده واجب الوجود أيضا واجب الوجود لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره واذا لم يكن متولدا من غيره لم يكن ولدا فثبت ان كونه تعالى غنيا من أقوى الدلائل على انه تعالى لا ولد له وهذه الثلاثة مع الثلاثة الاول فى غاية القوة (الحجة السادسة) أنه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع أن يكون له أب وأم وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدسا عن الاولاد فان قيل يشكل هذا بالوالد الاول قلنا الوالد الاول لا يمتنع كونه ولدا لغيره لانه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الاول من أبوين يقدمانه اما الحق سبحانه فانه يمتنع افتقاره الى الابوين والا لما كان غنيا مطلقا (الحجة السابعة) انه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا امتنع أن يفتقر فى احداث الاشياء الى غيره اذا ثبت هذا فنقول هذا الولد اما أن يكون قديما أو حادثا فان كان قديما فهو واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكن الوجود لافتقر الى المؤثر وافتقار القديم الى المؤثر يقتضى ايجاد الموجود وهو محال واذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولدا لغيره بل كان موجودا مستقلا بنفسه واما ان كان هذا الوالد حادثا والحق

عزوجل (له مافى السموات ومافى الارض) أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ماسواه وقوله تعالى (ان عندكم من سلطان) أى حجة (بهذا) أى بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ماأقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفى و بهذا متعلق اما بسلطان لانه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل ان عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام والافحام وتأكيد ما فى قوله تعالى (اتقولون على الله مالا تعلمون) من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهى جهالة وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم (ان الذين يفترون على الله الكذب) أى فى كل أمر فيدخل مانحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا (لا يفلحون) أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه (متاع فى الدنيا) كلام مستأنف سيق لبيان أن مايتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لا يفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير الى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا (ثم الينا مرجعهم) أى بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح

وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل انه افتراؤهم ولا يخفى ان المتاع انما يطلق على ما يكون متبوعا عند النفس مرغوبا فيه في نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار اجراء حكم ما يؤدي اليه من رياستهم عليه مما لا وجه له فالوجه ما ذكر أولا وليس ببعيد ما قيل ان المحذوف هو الخبر أي لهم ﴿ ٧٠ ﴾ متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة في الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل (واتل عليهم) اى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد (نبأ نوح) أي خبره الذي له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم ليزدجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بانك لم تسمع ذلك من أحد ليس الا بطريق الوحي وفيه من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وافعالهم ما لا يخفى ﴿ من ﴾ (اذ قال) معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأيا ما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ما جرى بينه وبين قومه واللام في قوله تعالى (لقومه) للتبليغ (ياقوم ان كان كبر) أي عظم وشق (عليكم مقامي) أي نفسي كما يقال فعلته لمكان فلان أي لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه أي خاف ربه أو قيامي ومكثي بين ظهرانيكم مدة

سبحانه غني مطلقا فكان قادرا على احداثه ابتداء من غير شريك شيء آخر فكان هذا عبدا مطلقا ولم يكن ولدا فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله هو الغني الدالة على انه يمتنع أن يكون له ولد أما قوله له ما في السموات وما في الارض فاعلم انه نظير قوله ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا وحاصله يرجع الى أن ما سوى الواحد الاحد الحق ممكن وكل ممكن محتاج وكل محتاج محدث فكل ما سوى الواحد الاحد الحق محدث والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول باثبات الصاحبة والولد ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا اليه عطف عليهم بالانكار والتوبيخ فقال ان عندكم من سلطان بهذا منبها بهذا على أنه لا حجة عندهم في ذلك البتة ثم بالغ في ذلك الانكار فقال أتقولون على الله ما لا تعلمون وقد ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها في ابطال التقليد في أصول الديانات ونفاة القياس وأخبار الآحاد قد يحتجون بها في ابطال هذين الاصلين وقد سبق الكلام فيه ﴿ قوله تعالى (قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) اعلم انه تعالى لما بين بالدليل القاهر أن اثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بين انه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به اليه فبين ان من هذا حاله فانه لا يفلح البتة ألا ترى انه تعالى قال في أول سورة المؤمنون قد أفلح المؤمنون وقال في آخر هذه السورة انه لا يفلح الكافرون واعلم أن قوله ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال في ذات الله تعالى وفي صفاته قولا بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلا في هذا الوعيد ومعنى قوله لا يفلح قد ذكرناه في أول سورة البقرة في قوله تعالى وأولئك هم المفلحون وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول الى المقصود والمطلوب فمعنى انه لا يفلح هو انه لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر ومن الناس من اذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد الاقصى والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال ان ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا ثم لا بد من الموت وعند الموت لا بد من الرجوع الى الله وعند هذا الرجوع لا بد وأن يذيقه الله العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم وهذا كلام في غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة والله أعلم * قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) اعلم انه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات شرع بعد ذلك في بيان قصص الانبياء عليهم السلام لوجوه (أحدها) ان الكلام اذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع

طويلة اوقيامى (وتذكيرى بآيات الله) فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم (فعلى الله توكلت) جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى و يجوز أن يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فأجمعوا أمركم) عطف على الجواب والفاء لترتيب الامر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أوهو الجواب وماسبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هومتعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسى أجمعت الامر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعدما كان متفرقا وتفر[قه] أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا واذا ع[زم] على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا (وشركاءكم) بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما يدل عليه القراءة بالر[فع] عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأ[كيد] واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أى وادعوا شركاءكم وقد قرئ كذلك وقرئ فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى اهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم (ثم لايكن امركم) ذلك (عليكم غمة) أى مستورا من غمه اذاستره بل مكشوفا مشهورا تجاهروننى به فان السر انما يصار اليه لسداد باب تداركه الخلاص بالهرب أونحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه و بماوعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة واظهار الامر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الامر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم مايعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة الغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لايكن

من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد من نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا (وثانيها) ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء فان الرسول اذا سمع ان معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ماكانت الاعلى هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت (وثالثها) أن الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا ان الجهال وان بالغوا فى ايذاء الانبياء المتقدمين الا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل فى صدورهم وحينئذ يقللون من أنواع الايذاء والسفاهة (ورابعها) انا قد دللنا على ان محمدا عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه الاقاصيص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحى والتنزيل * واعلم انه تعالى ذكر فى هذه السورة من قصص الانبياء عليهم السلام ثلاثة (فالقصة الاولى) قصة نوح عليه السلام وهى المذكورة فى هذه الآية وفيها وجهان من الفائدة (الاول) ان قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار وداعية الى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة (والثانى) ان كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذى يذكره الرسول عليه السلام لهم وكانوا يقولون له كذبت فانه ماجاءنا هذا العذاب فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لانه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا (المسئلة الثانية) ان نوحا عليه السلام قال لقومه ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت وهذه جملة من الشرط والجزاء أما الشرط فهو مركب من قيدين (القيد الاول) قوله ان كان كبر عليكم مقامى قال الواحدى فى البسيط يقال كبر يكبر كبرا فى السن وكبر الامر والشئ اذا عظم يكبر كبرا وكبارة قال ابن عباس ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمقام بفتح الميم مصدر كالاقامة يقال أقام بين أظهرهم مقاما واقامة والمقام بضم الميم الموضع الذى يقام فيه وأراد بالمقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله كبر عليكم مقامى جار مجرى قولهم فلان ثقيل الظل واعلم أن سبب هذا الثقل أمران (أحدهما) انه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما (والثانى) ان أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة فى الدين فانه يثقل عليه أن يدعى الى خلافها ويذكر له ركاكتها فان اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية فان اقترن به ايراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب فى حصول ذلك الثقل (والقيد الثانى) هو قوله وتذكيرى بآيات الله واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات

العاجلة تكون شديدة النفرة عن الامر بالطاعات والنهى عن المعاصى والمنكرات قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فانه يستثقل الانسان الذى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفى الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله معناه انهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود واعلم ان هذا هو الشرط المذكور فى هذه الآية أما الجزاء ففيه قولان (الاول) ان الجزاء هو قوله فعلى الله توكلت يعنى ان شدة بغضكم لى تحملكم على الاقدام على ايذائى وانا لا أقابل ذلك الشر الا بالتوكل على الله واعلم أنه عليه السلام كان أبدا متوكلا على الله تعالى وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله فى هذه الساعة لكن المعنى انه انما توكل على الله فى دفع هذا الشر فى هذه الساعة (والقول الثانى) وهو قول الاكثرين ان جواب الشرط هو قوله فاجمعوا أمركم وشركاءكم وقوله فعلى الله توكلت كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول فى الكلام ان كنت أنكرت على شيئا فالله حسبى فاعمل ما تريد واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب (القيد الاول) قوله فأجمعوا أمركم وفيه بحثان (البحث الاول) قال الفراء الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وأنشد

يا ليت شعرى والمنى لا ينفع * هل اغدون يوما وأمرى مجمع

فاذا أردت جمع المتفرق قلت جمعت القوم فهم مجموعون وقال أبو الهيثم أجمع أمره أى جعله جميعا بعد ما كان متفرقا قال وتفرقه أى جعل يتدبره فيقول مرة افعل كذا ومرة افعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه اى جعله جميعا فهذا هو الاصل فى الاجماع ومنه قوله تعالى وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى فقيل أجمعت على الامر أى عزمت عليه والاصل أجمعت الامر (البحث الثانى) روى الاصمعى عن نافع فاجمعوا أمركم بوصل الالف من الجمع وفيه وجهان (الاول) قال أبو على الفارسى فاجمعوا ذوى الامر منكم فحذف المضاف وجرى على المضاف اليه ما كان يجرى على المضاف لو ثبت (الثانى) قال ابن الانبارى المراد من الامر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير ولا تدعوا من أمركم شيئا الا أحضرتموه (والقيد الثانى) قوله وشركاءكم وفيه أبحاث (البحث الاول) الواو ههنا بمعنى مع والمعنى فأجمعوا أمركم مع شركائكم ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ولو خليت نفسك والاسد لاكلك (البحث الثانى) يحتمل أن يكون المراد من الشركاء الاوثان التى سموها بالآلهة ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم فان كان المراد هو الاول فانما حث الكفار على الاستعانة بالاوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع وان كان المراد هو الثانى فوجه الاستعانة بهم ظاهر (البحث الثالث) قرأ الحسن وجماعة من القراء

مالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل (ثم اقضوا الى ولا تنظرون) أى ادوا الى أى أحكموا ذلك الامر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أو أدوا الى ما هو حق عليكم عندكم من اهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسيط ما يحصل بعد الاهلاك بين الامر بالعزم على مباديه و بين الامر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه وقرئ أفضوا ﴿ ٢٢ ﴾ بالفاء أى انتهوا الى بشركم أو ابرزوا الى من أفضى اذا خرج الى الفضاء (فان توليتم) الفاء لترتيب التولى على ما سبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث تولى مخصوص أى ان أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى وما شاهدتم منى من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى اياكم جميعا الى تحقيق ما تريدون بى من السوء غير مبال بكم و بما يأتى منكم واحجامكم من الاجابة لعلمكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز (فما سألتكم) بمقابلة وعظى وتذكيرى (من أجر) تؤدونه لى حتى يؤدى ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياى بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسؤل عليكم أو حتى يضرنى توليكم المؤدى الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم ما يصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى ان توليتم فاعلموا أن ليس فى ما يصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل (ان أجرى الا على الله) ينتظم المعنيين جميعا خلا أنه على الاول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه ﴿ وشركاؤكم ﴾ عليه السلام عنهم أى ما ثوابى على العظة والتذكير الا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم (وأمرت أن أكون من المسلمين) المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل ما يصيبنى من البلاء فى طاعة الله تعالى (فكذبوه) فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة و بين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا

جرم حقت عليهم كلمة العذاب فنجيناه ومن معه فى الفلك) من المسلمين وكانوا ثمانين (وجعلناهم خلائف) من الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين والايذان ﴿ ٢٣ ﴾ بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام (ثم بعثنا) أى أرسلنا (من بعده) أى من بعد نوح عليه السلام (رسلا) التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير (الى قومهم) أى الى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كل رسول منهم الى أقوام الكل أو الى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص (فجاؤهم) أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به (بالبينات) أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ما قالوا والباء اما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاؤا أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين ضميرى جاؤهم كما أشير اليه (فما كانوا ليؤمنوا) بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار ايمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الاقوام فى وقت من الاوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم ان كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير

وشركاؤكم بالرفع عطفا على الضمير المرفوع والتقدير فأجمعوا أنتم وشركاؤكم قال الواحدى وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله اسكن أنت وزوجك الجنة لان قوله أمركم فصل بين الضمير وبين المنسوق فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة لانها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود فى المصاحف (القيد الثالث) قوله ثم لا يكن أمركم عليكم غمة قال ابو الهيثم أى مبهما من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم اذا التبس قال طرفة

لعمرى ما أمرى على بغمة * نهارى ولا ليلى على بسرمد

وقال الليث انه لفى غمة من أمره اذا لم يهتد له قال الزجاج اى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا (القيد الرابع) قوله ثم اقضوا الى وفيه بحثان (البحث الاول) قال ابن الانبارى معناه ثم امضوا الى بمكروهكم وما توعدوننى به تقول العرب قضى فلان يريدون مات ومضى وقال بعضهم قضاء الشئ احكامه وامضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضى لانه اذا حكم فقد فرغ فقوله ثم اقضوا الى أى افرغوا من أمركم وامضوا ما فى أنفسكم واقطعوا ما بينى وبينكم ومنه قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب أى أعلمناهم اعلاما قاطعا قال تعالى وقضينا اليه ذلك الامر قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة الى فى هذا الموضع من قولهم برئت اليك وخرجت اليك من العهد وفيه معنى الاخبار فكأنه تعالى قال ثم اقضوا الى ما يستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه (البحث الثانى) قرئ ثم افضوا الى بالفاء بمعنى ثم انتهوا الى بشركم وقيل هو من أفضى الرجل اذا خرج الى الفضاء أى أصحروا به الى وابرزوه الى (القيد الخامس) قوله ولا تنظرون معناه لا تمهلون بعد اعلامكم اياى ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الالفاظ وقد نظم القاضى هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال انه عليه السلام قال فى أول الامر فعلى الله توكلت فانى واثق بوعد الله جازم بانه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم اياى بالقتل والايذاء يمنعنى من الدعاء الى الله تعالى ثم انه عليه السلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال فأجمعوا أمركم فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الاسباب التى توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا الى أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون ان حالهم يقوى بمكانهم وبالتقرب اليهم ثم لم يقتصر على هذين بل ضم اليهما ثالثا وهو قوله ثم لا يكن أمركم عليكم غمة وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية فى المكاشفة والمجاهرة ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم اليها رابعا فقال ثم اقضوا الى والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور الى ثم ضم الى ذلك خامسا وهو قوله ولا تنظرون أى عجلوا ذلك باشد ما تقدرون عليه من غير انظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم ان مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله تعالى وانه كان قاطعا بان كيدهم لا يصل اليه ومكرهم لا ينفذ فيه * وأما قوله تعالى فان توليتم فما سألتكم من أجر

فقال المفسرون هذا اشارة الى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم الى دين الله تعالى ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال انه عليه السلام بين انه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لان الخوف انما يحصل بأحد شيئين اما بايصال الشر أو بقطع المنافع فبين فيما تقدم انه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية انه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا لانه ما أخذ منهم شيئا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا * ثم قال ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين وفيه قولان (الاول) انكم سواء قبلتم دين الاسلام أو لم تقبلوه فانا مأمور بأن أكون على دين الاسلام (والثانى) أنى مأمور بالاستسلام لكل ما يصل الى لاجل هذه الدعوة وهذا الوجه أليق بهذا الموضع لانه لما قال ثم اقضوا الى بين لهم أنه مامور بالاستسلام لكل ما يصل اليه فى هذا الباب والله اعلم * قوله تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) اعلم انه تعالى لما حكى الكلمات التى جرت بين نوح و بين أولئك الكفار ذكر ما اليه رجعت عاقبة تلك الواقعة أما فى حق نوح وأصحابه فأمران (أحدهما) انه تعالى نجاهم من الكفار (الثانى) أنه جعلهم خلائف بمعنى انهم يخلفون من هلك بالغرق وأما فى حق الكفار فهو انه تعالى أغرقهم وأهلكهم وهذه القصة اذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدا وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الانبياء عليهم السلام وأما تفاصيل هذه القصة فهى مذكورة فى سائر السور * قوله تعالى (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين) اعلم أن المراد ثم بعثنا من بعد نوح رسلا ولم يسمهم وكان منهم هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات وهى المعجزات القاهرة فأخبر تعالى عنهم انهم جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ولم يزجرهم ما بلغهم من اهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك فلهذا قال فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل وليس المراد عين ما كذبوا به لان ذلك لم يحصل فى زمانهم بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات لان البينات الظاهرة على الانبياء عليهم السلام أجمع كأنها واحدة ثم قال تعالى كذلك نطبع على قلوب المعتدين واحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الايمان بهذه الآية وتقريره ظاهر قال القاضى الطبع غير مانع من الايمان بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ولو كان هذا الطبع مانعا لما صح هذا الاستثناء (والجواب) ان الكلام فى هذه المسئلة قد سبق على الاستقصاء فى تفسير

ليه فى قوله عزوجل (بما كذبوا به من قبل) تكذيبهم من حين مجئ الرسل الى زمان الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بانه بين بنفسه غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجئ الرسل الى آخره وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجئ رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجئ الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف

﴿ قوله ﴾

وقيل الباء السببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى أن ذلك يؤدى الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفى ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الاذهان مالا يخفى من التعسف (كذلك) اى مثل ذلك الطبع المحكم (نطبع) بنون العظمة وقرئ بالياء على أن الضمير لله سبحانه (على قلوب المعتدين) المتجاوزين عن الحدود ﴿ ٢٥ ﴾ المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وفى أمثال هذه دلالة على أن الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد (ثم بعثنا) عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة (من بعدهم) اى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (موسى وهرون) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير اليه اشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام (الى فرعون وملئه) اى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم فى اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل اليهم فى النوازل والملمات (بآياتنا) اى متلبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الاعراف (فاستكبروا) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك ﴿ ٤ ﴾ خا ﴿ فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ (وكانوا قوما مجرمين) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترؤا على ما اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لا يساعده قوله

قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا فائدة فى الاعادة (القصة الثانية) قصة موسى عليه السلام * قوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) اعلم أن هذا الكلام غنى عن التفسير وفيه سؤال واحد وهو ان القوم لما قالوا ان هذا لسحر مبين فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا أسحر هذا على سبيل الاستفهام (وجوابه) ان موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا أسحر هذا بل قال أتقولون للحق لما جاءكم ما تقولون ثم حذف عنه مفعول أتقولون لدلالة الحال عليه ثم قال مرة أخرى أسحر هذا وهذا استفهام على سبيل الانكار ثم احتج على أنه ليس بسحر وهو قوله ولا يفلح الساحرون يعنى أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه ولا يفلح الساحرون وأما قلب العصا حية وفلق البحر فعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه فثبت أنه ليس بسحر قوله تعالى (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام وعللوا عدم القبول بأمرين (الاول) قوله أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا قال الواحدى اللفت فى أصل اللغة الصرف عن أمر وأصله اللى يقال لفت عنقه اذا لواها ومن هذا يقال التفت اليه اى أمال وجهه اليه قال الازهرى لفت الشئ وفتله اذا لواه وهذا من المقلوب واعلم ان حاصل هذا الكلام انهم قالوا لا نترك الدين الذى نحن عليه لانا وجدنا آباءنا عليه فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الاصرار (والسبب الثانى) فى عدم القبول قوله وتكون لكما الكبرياء فى الارض قال المفسرون المعنى ويكون لكما الملك والعز فى أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا وأيضا فالنبى اذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته اليه فصار أكبر القوم واعلم أن السبب الاول اشارة الى التمسك بالتقليد والسبب الثانى اشارة الى الحرص على طلب الدنيا والجد فى بقاء الرياسة ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا وما نحن لكما بمؤمنين واعلم ان القوم لما ذكروا هذه المعانى حاولوا بعد ذلك وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ليظهروا عند الناس ان ما أتى به موسى من باب السحر فجمع فرعون السحرة وأحضرهم فقال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فان قيل كيف أمرهم بالكفر والسحر

عز وعلا (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين) فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجىء الحق الذى
سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبئ عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء
فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى فألقى عصاه
فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم

والامر بالكفر كفر قلنا انه عليه السلام أمرهم بالقاء الحبال والعصى ليظهر للخلق ان ما أتوا به عمل فاسد وسعى باطل لا على طريق انه عليه السلام أمرهم بالسحر فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل والغرض منه ان القوم قالوا لموسى ان ما جئت به سحر فذكر موسى عليه السلام ان ما ذكرتموه باطل بل الحق أن الذى جئتم به هو السحر والتمويه الذى يظهر بطلانه ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل وقد أخبر الله تعالى فى سائر السور انه كيف أبطل ذلك السحر وذلك بسبب ان ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى (المسئلة الثانية) قوله ما جئتم به السحر ما ههنا موصولة بمعنى الذى وهى مرتفعة بالابتداء وخبرها السحر قال الفراء وانما قال السحر بالالف واللام لانه جواب كلام سبق ألا ترى انهم قالوا لما جاءهم موسى هذا سحر فقال لهم موسى بل ما جئتم به السحر فوجب دخول الالف واللام لان النكرة اذا عادت عادت معرفة يقول الرجل لغيره لقيت رجلا فيقول له من الرجل فيعيده بالالف واللام ولو قال له من رجل لم يقع فى فهمه انه سأله عن الرجل الذى ذكره له وقرأ أبو عمرو آلسحر بالاستفهام وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء وجئتم به فى موضع الخبر كأنه قيل أى شئ جئتم به ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع آلسحر كقوله تعالى أأنت قلت للناس. والسحر بدل من المبتدا ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوى المبدل منه فى أنه استفهام كما تقول كم مالك أعشرون أم ثلاثون فجعلت أعشرون بدلا من كم ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر لانك اذا أبدلته من المبتدا صار فى موضعه وصار ما كان خبرا عن المبدل منه خبرا عنه ثم قال تعالى ان الله سيبطله اى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين اى لا يقويه ولا يكمله ثم قال ويحق الله الحق ومعنى احقاق الحق اظهاره وتقويته وقوله بكلماته اى بوعده موسى وقيل بما سبق من قضائه وقدره وفى كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية وقد ذكرناها فى بعض مواضع من هذا الكتاب * قوله تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين)

واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ثم انه تعالى بين أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر فبين ان له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الاعجاز فى مرأى العين أعظم ومع ذلك فما آمن به منهم الا الذرية واختلفوا فى المراد بالذرية على وجوه (الاول) ان الذرية ههنا معناها تقليل العدد قال ابن عباس لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ولا سبيل الى حمله على التحقير على وجه الاهانة فى

وعنادهم ان هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أو فائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرئ لساحر (قال موسى) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى (أتقولون للحق) الذى هو أبعد شئ من السحر الذى هو الباطل البحت (لما جاءكم) اى حين مجيئه اياكم ووقوفكم عليه أو من أول الامر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ماقبله ومابعده عليه وايذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ما تقولون من انه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه ونظيره الذكر فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين

فقوله عز وجل (أسحر هذا) انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ﴿ هذا ﴾ ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الاول فظاهر وأما على الثانى فوجه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه

بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ماوما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار مافيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لايرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بانه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق ومافيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (ولايفلح الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلاضمير كما فى قول من قال جاء الشتاء ولست أملك عدة وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق انه سحر والحال أنه لايفلح فاعله أى لايظفر بمطلوب ولاينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولايفلح الساحرون فمما لايساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلان ماقالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ماتعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى مالايفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين باذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلان قوله عز وجل (قالوا أجئتنا) الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن

هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد (الثانى) قال بعضهم المراد أولاد من دعاهم لان الآباء استمروا على الكفر امالان قلوب الاولاد ألين أودواعيهم على الثبات على الكفر أخف (الثالث) ان الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بنى اسرائيل (الرابع) الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها وأما الضمير فى قوله من قومه فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أومن قوم فرعون لان ذكرهما جميعا قد تقدم والاظهر أنه عائد الى موسى لانه أقرب المذكورين ولانه نقل ان الذين آمنوا به كانوا من بنى اسرائيل أما قوله على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ففيه أبحاث (البحث الاول) ان أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدا لانه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى فاذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه (البحث الثانى) انما قال وملئهم مع أن فرعون واحد لوجوه (الاول) انه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم قال الله تعالى انا نحن نزلنا الذكر (الثانى) أن المراد بفرعون آل فرعون (الثالث) ان هذا من باب حذف المضاف كأنه اريد بفرعون آل فرعون ثم قال أن يفتنهم اى يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم ثم قال وان فرعون لعال فى الارض اى لغالب فيها قاهر وانه لمن المسرفين قيل المراد انه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه فى أمر من الامور والغرض منه بيان السبب فى كون أولئك المؤمنين خائفين وقيل انما كان مسرفا لانه كان من أخس العبيد فادعى الالهية * قوله تعالى (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ان قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين جزاء معلق على شرطين أحدهما متقدم والآخر متأخر والفقهاء قالوا المتأخر يجب أن يكون متقدما والمتقدم يجب أن يكون متأخرا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته ان دخلت الدار فأنت طالق ان كلمت زيدا وانما كان الامر كذلك لان مجموع قوله ان دخلت الدار فأنت طالق صار مشروطا بقوله ان كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ متقدما فى المعنى وأن يكون المتقدم فى اللفظ متأخرا فى المعنى والتقدير كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا ان دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا التعليق قبل ان كلمت زيدا لم يقع الطلاق اذا عرفت هذا فنقول قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين يقتضى أن يكون كونهم مسلمين شرطا لان يصيروا مخاطبين بقوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا فكأنه تعالى يقول للمسلم حال اسلامه ان كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والامر كذلك لان الاسلام عبارة عن الاستسلام وهو اشارة الى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى واظهار الخضوع

الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا (لتلفتنا) اى لتصرفنا فان الفتل واللفت اخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) ❊ ٢٨ ❊ اى من عبادة الاصنام ولا ريب فى أن ذلك انما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه (وتكون لكما الكبرياء) اى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى (فى الارض) اى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله اياه (وما نحن لكما بمؤمنين) اى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لاحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسندا الى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) توحيد الفعل لان الامر من وظائف ❊ دين ❊
فرعون اى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول (ائتونى بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار (فلما جاء السحرة) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لامر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام اى

وترك التمرد وأما الايمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد وان ماسواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره الى الله تعالى ويحصل فى القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الاسرار والتوكل على الله عبارة عن تفويض الامور بالكلية الى الله تعالى والاعتماد فى كل الاحوال على الله تعالى واعلم أن من توكل على الله تعالى فى كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه (المسئلة الثانية) أن هذا الذى أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذى حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال فعلى الله توكلت وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لان نوحا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاما وكان موسى عليه السلام فوق التمام (المسئلة الثالثة) انما قال فعليه توكلوا ولم يقل توكلوا عليه لان الاول يفيد الحصر كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير والامر كذلك لانه لما ثبت أن كل ماسواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره امتنع فى العقل أن يتوكل الانسان على غيره فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا على الله توكلنا اى توكلنا عليه ولا نلتفت الى أحد سواه ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء فطلبوا من الله تعالى شيئين (أحدهما) أن قالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين وفيه وجوه (الاول) أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لانك لو سلطتهم علينا لوقع فى قلوبهم انا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قوية فى اصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم (الثانى) انك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد فى الآخرة وذلك يكون فتنة لهم (الثالث) لا تجعلنا فتنة لهم اى موضع فتنة لهم اى موضع عذاب لهم (الرابع) أن يكون المراد من الفتنة المفتون لان اطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق والتكوين بمعنى المكون والمعنى لا تجعلنا مفتونين أى لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وأما المطلوب الثانى فى هذا الدعاء فهو قوله تعالى ونجنا برحمتك من القوم الكافرين واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم وذلك لانا ان حملنا قولهم ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين على انهم ان سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم فى ان هذا الدين باطل فتضرعوا الى الله تعالى فى أن يصون اولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لانفسهم وذلك يدل على ان عنايتهم بمصالح

فاتوا به فلما جاؤا (قال لهم موسى) لكن لا فى ابتداء مجيئهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ماحكى عنهم فى السور الاخر من قولهم اما ان تلقى وأما أن نكون نحن الملقين ونحوذلك (ألقوا ما أنتم ملقون) اى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر (فلما ألقوا) ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكترث بهم و بما صنعوا (ما جئتم به السحر) ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره اى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أوهو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ماجئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ماجئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر (ان الله سيبطله) اى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أوسيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) اى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أوعملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه اى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه و يسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له (ويحق الله الحق) عطف على قوله سيبطله اى يثبته و يقويه واظهار الاسم الجليل فى المقامين الاخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة (بكلماته) بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم (فما آمن لموسى) معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع اخر أى فألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون الخ وانما لم يذكر تعو يلا

دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وان حملناه على أن لا يمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضا دليلا على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة ❊ قوله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلوة و بشر المؤمنين) اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون باتخاذ المساجد والاقبال على الصلوات يقال تبوأ المكان أى اتخذه مبوأ كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون اليه للعبادة والصلاة ثم قال واجعلوا بيوتكم قبلة وفيه أبحاث (البحث الاول) من الناس من قال المراد من البيوت المساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ومنهم من قال المراد مطلق البيوت أما الاولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة ثم قالوا والمراد من قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أى اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقال الفراء واجعلوا بيوتكم قبلة أى الى القبلة وقال ابن الانبارى واجعلوا بيوتكم قبلة أى قبلا يعنى مساجد فأطلق لفظ الوحدان والمراد الجمع واختلفوا فى أن هذه القبلة أين كانت فظاهر أن لفظ القرآن لا يدل على تعيينه الا أنه نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام وكان الحسن يقول الكعبة قبلة كل الانبياء وانما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى فى أيام الرسول عليه السلام بعد الهجرة وقال آخرون كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة فى هذه الآية مطلق البيت فهؤلاء لهم فى تفسير قوله قبلة وجهان (الاول) المراد بجعل تلك البيوت قبلة أى متقابلة والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض وقال آخرون المراد واجعلوا دوركم قبلة أى صلوا فى بيوتكم (البحث الثانى) انه تعالى خص موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب فقال أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهرون أن يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يفوض الى الانبياء ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لان ذلك واجب على الكل ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال و بشر المؤمنين وذلك لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على ان الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هرون تبع له (البحث الثالث) ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة (الاول) ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام

على ذلك وايثار اللايجاز وايذانا بان قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما فى قوله عزوجل فاتبعوا أمر فرعون وما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث اى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿ ٣٠ ﴾ (الاذرية من قومه) اى الأولاد من أولاد قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون أو اجابته طائفة من شبانهم قيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد (على خوف) اى كائنين على خوف عظيم (من فرعون وملئهم) الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لان المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أن يفتنهم) اى يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول خوف فان اعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عزوجل أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما أو مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لانه الآمر بالتعذيب (وان فرعون لعال فى الارض) لغالب فى أرض مصر (وانه لمن المسرفين) فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الانبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما سبق ﴿ وقال موسى ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) اى صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) وبه ثقوا ولا تخافوا أحدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر (ان كنتم مسلمين) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان

فى مكة (الثانى) قيل انه تعالى لما أرسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون (الثالث) أنه تعالى لما أرسل موسى اليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الاعداء * قوله تعالى (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) اعلم أن موسى لما بالغ فى اظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو أنهم لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين فلهذا السبب قال موسى عليه السلام ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا والزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والمال ما زيد على هذه الاشياء من الصامت والناطق ثم قال ليضلوا عن سبيلك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وعاصم ليضلوا بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يضل الناس ويريد اضلالهم وتقريره من وجهين (الاول) ان اللام فى قوله ليضلوا لام التعليل والمعنى أن موسى قال يارب العزة انك أعطيتهم هذه الزينة والاموال لاجل أن يضلوا فدل هذا على انه تعالى قد يريد اضلال المكلفين (الثانى) أنه قال واشدد على قلوبهم فقال الله تعالى قد أجيبت دعوتكما وذلك أيضا يدل على المقصود قال القاضى لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ويدل عليه وجوه (الاول) انه ثبت انه تعالى منزه عن فعل القبيح وارادة الكفر قبيحة (والثانى) أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم لانه لا معنى للطاعة الا الاتيان بما يوافق الارادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الاموال وشد القلوب (والثالث) انا لو جوزنا أن يريد اضلال العباد لجوزنا أن يبعث الانبياء عليهم السلام للدعاء الى الضلال ولجاز أن يقوى الكذابين الضالين المضلين باظهار المعجزات عليهم وفيه هدم الدين وابطال الثقة بالقرآن (والرابع) أنه لا يجوز أن يقول لموسى وهرون عليهما السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وأن يقول ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ثم انه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكى يضلوا لان ذلك كالمناقضة فلابد من حمل أحدهما على موافقة الآخر (الخامس) أنه لا يجوز أن يقال ان موسى عليه السلام دعا ربه بان يطمس على أموالهم لاجل ان لا يؤمنوا مع تشدده فى ارادة الايمان واعلم أنا بالغنا فى تكثير هذه الوجوه فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب

المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لايتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فاحسن اليه ان قدرت عليه (فقالوا) مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك (على الله توكلنا) لانهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين (ربنا لاتجعلنا فتنة) اى موقع فتنة (للقوم الظالمين) اى لاتسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتنوا بنا ﴿٣١﴾ ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ماوصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوا) أن مفسرة لان فى الوحى معنى القول اى اتخذا مباءة (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) تلك (قبلة) مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها (وأقيموا الصلوة) اى فيها أمروا بذلك فى اول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم (وبشر المؤمنين) بالنصرة فى الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير أولا لان التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم تشاور ثم جمع لان جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لان بشارة الامة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان والاشعار بأنه المدار فى التبشير (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة) اى ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها (وأموالا) وأنواعا كثيرة من المال (فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) دعاء عليهم بلفظ الامر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لايكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت

واذا ثبت هذا فنقول وجب تأويل هذه الكلمة وذلك من وجوه (الاول) أن اللام فى قوله ليضلوا لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال وقد أعلمه الله تعالى لاجرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ (الثانى) أن قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك أى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله يبين الله لكم أن تضلوا والمراد أن لاتضلوا وكقوله تعالى قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة والمراد لئلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير فى الكلام (الثالث) أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالانكار والتقدير كأنك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فانهم لاينفقون هذه الاموال الافيه وكأنه قال أآتيتهم زينة وأموالا لاجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما فى قول الشاعر

كذبتك عينك أم رأيت بواسط ❊ غلس الظلام من الرباب خيالا

أراد أكذبتك فكذا ههنا (الرابع) قال بعضهم هذه اللام لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيقال ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك (الخامس) أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الامر لافى نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الاموال وصارت تلك الاموال سببا لمزيد البغى والكفر أشبهت هذه الحالة حالة من اعطى المال لاجل الاضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لاجل هذا المعنى (السادس) بينا فى تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا فى أول سورة البقرة ان الضلال قد جاء فى القرآن بمعنى الهلاك يقال ضل الماء فى اللبن أى هلك فيه اذا ثبت هذا فنقول قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك معناه ليهلكوا ويموتوا ونظيره قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا فهذا جملة ماقيل فى هذا الباب واعلم انا قد أجبنا عن هذه الوجوه مرارا كثيرة فى هذا الكتاب ولابأس بأن نعيد بعضها فى هذا المقام فنقول الذى يدل على أن حصول الاضلال من الله تعالى وجوه (الاول) ان العبد لايقصد الا حصول الهداية فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذى لايريده علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى فان قالوا انه ظن بهذا الضلال انه هدى فلاجرم قد أوقعه وأدخله فى الوجود فنقول فعلى هذا يكون اقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال فثبت ان هذه الجهالات والضلالات لابد من انتهائها الى جهل أول وضلال أول وذلك لايمكن أن يكون باحداث العبد وتكوينه لانه كرهه وانما أراد ضده فوجب أن يكون من الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حبا شديدا لايمكنه ازالة هذا الحب عن نفسه البتة وكان حصول هذا الحب يوجب الاعراض

أوللعلة لان ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولانهم لماجعلوها ذريعة الى الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوافيكون ربنا تكريرا للاول تأكيدا أوتنبيها على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس المحو وقرئ بضم الميم اى أهلكها (واشدد على قلوبهم) اى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لاتنشرح للايمان كما هوقضية شأنهم ﴿ ٣٢ ﴾ (فلايؤمنوا) جواب للدعاء أودعاء بلفظ النهى وعطف على ليضلوا ومابينهما اعتراض (حتى يروا العذاب الاليم) اى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لاينفعهم ذلك اذذاك قال قد أجيبت دعوتكما) يعنى موسى وهرون عليهما السلام لانه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولاتستعجلا فان ماطلبتما كائن فى وقته لامحالة روى انه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الامور بالحكم والمصالح أوسبيل الجهلة فى الاستعجال أوعدم الوثوق بوعدالله تعالى وقرئ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولاتتبعان من تبع ولاتتبعان أيضا (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) هومن جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية اى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ جوزنا وهومن التجويز المرادف للمجاوزة لاماهو بمعنى التنفيذ نحو ماوقع فى قول الاعشى * كما جوز السكى فى الباب فيتق * والاقيل وجوزنا بنى اسرائيل فى البحر ولخلا النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين أذهبه وذهب به (فأتبعهم) يقال تبعته حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته اى أدركهم ولحقهم (فرعون وجنوده) حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان (بغيا وعدوا) ظلما واعتداء اى باغين

عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات الى قوله وذلك يوجب الكفر فهذه الاشياء بعضها يتأدى الى البعض تأديا على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هوالذى خلق الانسان مجبولا على حب المال والجاه (الثالث) وهوالحجة الكبرى ان القدرة بالنسبة الى الضدين على السوية فلايترجح أحد الطرفين على الثانى الالمرجح وذلك المرجح ليس من العبد والالعاد الكلام فيه فلابد وان يكون من الله تعالى واذا كان كذلك كانت الهداية والاضلال من الله تعالى (الرابع) انه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالا وقوى حب ذلك المال والجاه فى قلوبهم وأودع فى طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له لاسيما وكان فرعون كالمنعم فى حقه والمربى له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة فى القلوب وكل ذلك يوجب اعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام واصرارهم على انكار صدقه فثبت بالدليل العقلى ان اعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لابد وأن يكون موجبا لضلالهم فثبت ان ما أشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ فى مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جدا اذا عرفت هذا فنقول (أما الوجه الاول) وحمل اللام على لام العاقبة فضعيف لان موسى عليه السلام ماكان عالما بالعواقب فان قالوا ان الله تعالى أخبره بذلك قلنا فلما أخبرالله عنهم انهم لايؤمنون كان صدور الايمان منهم محالا لان ذلك يستلزم انقلاب خبرالله كذبا وهومحال والمفضى الى المحال محال (وأما الوجه الثانى) وهو قولهم يحمل قوله ليضلوا عن سبيلك على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول ان هذا التاويل ذكره أبوعلى الجبائى فى تفسيره وأقول انه لما شرع فى تفسير قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ثم نقل عن بعض أصحابنا انه قرأ فمن نفسك على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار ثم انه استبعد هذه القراءة وقال انها تقتضى تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ فى انكار تلك القراءة وهذا الوجه الذى ذكره ههنا شر من ذلك لانه قلب النفى اثباتا والاثبات نفيا وتجويزه يفتح باب أن لايبقى الاعتماد على القرآن لافى نفيه ولافى اثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية وهذا بعينه هوالجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الانكار فان تجويزه يوجب تجويز مثله فى سائر المواطن فلعله تعالى انما قال أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة على سبيل الانكار والتعجب وأما بقية الجوابات فلايخفى ضعفها ثم انه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال ربنا اطمس على أموالهم وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى من قبل أن نطمس وجوها والطمس هوالمسخ قال ابن عباس رضى الله عنهما بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وجعل سكرهم حجارة ثم قال واشدد على قلوبهم ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لايدخلها

﴿ الايمان ﴾

الايمان قال الواحدي وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال ثم قال فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وفيه وجهان (احدهما) أنه يجوز أن يكون معطوفا على قوله ليضلوا والتقدير ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وقوله ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم يكون اعتراضا (والثاني) يجوز أن يكون جوابا لقوله واشدد والتقدير اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا فانها تستحق ذلك ثم قال تعالى قد أجيبت دعوتكما وفيه وجهان (الاول) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال قد أجيبت دعوتكما وذلك لان من يقول عند دعاء الداعي آمين فهو أيضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعي سائل أيضا (الثاني) لا يبعد أن يكون كل واحد منهما ذكر هذا الدعاء غاية ما في الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا الا أن هذا لا ينافي أن يكون هرون قد ذكر ذلك الدعاء ايضا وأما قوله فاستقيما يعني فاستقيما على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة الا قليلا فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة وأما قوله ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ففيه بحثان (البحث الاول) المعنى لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء انسان في مطلوبه الا أنه انما يوصله اليه في وقته المقدر والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال لنوح عليه السلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين واعلم ان هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه (البحث الثاني) قال الزجاج قوله ولا تتبعان موضعه جزم والتقدير ولا تتبعان الا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها فاختير لها الكسرة لانها بعد الالف تشبه نون التثنية وقرأ ابن عامر ولا تتبعان بتخفيف النون * قوله تعالى (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) اعلم أن تفسير اللفظ في قوله وجاوزنا ببني اسرائيل البحر مذكور في سورة الاعراف والمعنى أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بني اسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله فأتبعهم اي لحقهم يقال اتبعه حتى لحقه وقوله بغيا وعدوا البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم روي أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا الى طرف

وعادين أو البغي والعدوان وقرئ وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل ﴿ ٣٣ ﴾ الى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم (حتى اذا أدركه الغرق) اي لحقه وألجمه (قال آمنت انه) اي بأنه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيرا له (لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل) لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بني اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة (وأنا من المسلمين) اي الذين أسلموا نفوسهم لله اي جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم اما بني اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الاول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثاني يحتمل الحالية أيضا من ضمير ﴿ ٥ ﴾ خا المتكلم أي آمنت مخلصا لله منتظما في سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضي الى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات ما فات وأنى ما هو آت وقوله عز وجل (آلآن) مقول لقول مقدر معطوف على قال اي فقيل آلآن وهو

الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار التوبيخى على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك ﴿٣٤﴾ وفى حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكى فى صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب مالا يخفى كما يفصح عنه ماروى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبى عليهما السلام فلو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية اى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما فى ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته مالا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تاخير الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه اى الآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا (وقد عصيت قبل) حال من فاعل الفعل المقدر جئ به لتشديد التوبيخ والتقريع على تاخير الايمان الى

البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم فوقعوا فى خوف شديد لانهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقا فى البحر على ماذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها فى سائر السور ثم ان موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسا ليطمع فرعون وجنوده فى التمكن من العبور فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بان أوصل أجزاء الماء بعضها ببعض وأزال الفلق فهو معنى قوله فأتبعهم فرعون وجنوده وبين ما كان فى قلوبهم من البغى وهى محبة الافراط فى قتلهم وظلمهم والعدو وهو تجاوز الحد ثم ذكر تعالى انه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الاخلاص ظنا منه أنه ينجيه من تلك الآفة وههنا سؤالان (السؤال الاول) ان الانسان اذا وقع فى الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك (والجواب) من وجهين (الاول) ان مذهبنا أن الكلام الحقيقى هو كلام النفس لا كلام اللسان فهو انما ذكر هذا الكلام بالنفس لا بكلام اللسان ويمكن أن يستدل بهذه الآية على اثبات كلام النفس لانه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام وثبت بالدليل انه ما قاله باللسان فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب (الثانى) أن يكون المراد من الغرق مقدماته (السؤال الثانى) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب فى عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال انه لاجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الاقرار (والجواب) العلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان فى هذا الوقت غير مقبول لان عند نزول العذاب يصير الحال وقت الالجاء وفى هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة ولهذا السبب قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا (الوجه الثانى) هو انه انما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها الى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة فما كان مقصوده من هذه الكلمة الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونا بالاخلاص فلهذا السبب ما كان مقبولا (الوجه الثالث) هو أن ذلك الاقرار كان مبنيا على محض التقليد ألا ترى أنه قال لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله الا أنه سمع من بنى اسرائيل أن للعالم الها فهو أقر بذلك الاله الذى سمع من بنى اسرائيل أنهم أقروا بوجوده فكان هذا محض التقليد فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه فى سورة طه كان من الدهرية وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته الا بنور الحجج القطعية والدلائل اليقينية وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد لانه يكون ضما لظلمة التقليد الى ظلمة الجهل السابق (الوجه الرابع) رأيت فى بعض الكتب أن بعض أقوام من بنى اسرائيل لما جاوزوا البحر

﴿اشتغلوا﴾

هذا الآن بيان أنه لم يكن تاخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى (وكنت من المفسدين) عطف على عصيت داخل فى حيز الحال اى وكنت ﴿٣٥﴾ من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع الى نفسه والسارى الى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى اسرائيل عن الايمان والاول عن عصيانه الخاص به (فاليوم ننجيك) اى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرئ ننجيك من الانجاء ونحيك بالحاء من التنحية اى نلقيك بناحية الساحل (ببدنك) فى موضع الحال من ضمير المخاطب اى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لامع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لا طماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها

اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر (الوجه الخامس) ان اليهود كانت قلوبهم مائلة الى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل فى جسد ذلك العجل ونزل فيه فلما كان الامر كذلك وقال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فكأنه آمن بالاله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول وكل من اعتقد ذلك كان كافرا فلهذا السبب ما صح ايمان فرعون (الوجه السادس) لعل الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى والاقرار بنبوة موسى عليه السلام فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لا جرم لم يصح ايمانه ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه وأشهد أن محمدا رسول الله فكذا ههنا (الوجه السابع) روى صاحب الكشاف أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها ما قول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيها يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه اليه * أما قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ففيه سؤالات (السؤال الاول) من القائل له آلآن وقد عصيت قبل (الجواب) الاخبار دالة على أن قائل هذا القول هو جبريل وانما ذكر قوله وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وأنا من المسلمين ومن الناس من قال ان قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده فاليوم ننجيك ببدنك الى قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى (السؤال الثانى) ظاهر اللفظ يدل على انه انما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة (والجواب) مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلا وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية وأيضا فالتعليل ما وقع بمجرد المعصية السابقة بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين (السؤال الثالث) هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبا عليه (والجواب) الاقرب أنه لا يصح لان فى تلك الحالة اما أن يقال التكليف كان ثابتا أو ما كان ثابتا فان كان ثابتا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة لقوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وأيضا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة لان الاخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهرون عليهما

وقرئ بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان فى نفوسهم من عظمته

ماخيل اليهم انه لايهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه الى ان عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل أو نكون لمن يأتى بعدك من الامم اذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على ان الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرئ لمن خلفك فعلا ماضيا اى لمن خلفك من الجبابرة وقرئ لمن خلقك بالقاف اى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى امرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر ايذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس الاشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الاسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الاولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية اى كائنة لمن خلفك (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جئ به عند الحكاية تقرير الفحوى الكلام ﴿ عن المحكى (ولقد بوأنا بنى اسرائيل) كلام مستانف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال

السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الايمان ولو قيل ان جبريل عليه السلام انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بأمر ربك وقوله تعالى فى صفتهم وهم من خشيته مشفقون وقوله لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأما ان قيل ان التكليف كان زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لايبقى لهذا الفعل الذى نسب جبريل اليه فائدة أصلا ثم قال تعالى فاليوم ننجيك ببدنك وفيه وجوه (الاول) ننجيك ببدنك اى نلقيك بنجوة من الارض وهى المكان المرتفع (الثانى) نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق وقوله ببدنك فى موضع الحال اى فى الحال التى أنت فيه حينئذ لاروح فيك (الثالث) ان هذا وعدله بالنجاة على سبيل التهكم كما فى قوله فبشرهم بعذاب أليم كأنه قيل له ننجيك لكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال نعتقك ولكن بعد الموت ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت (الرابع) قرأ بعضهم ننحيك بالحاء المهملة اى نلقيك بناحية مما يلى البحر وذلك انه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر قال كعب رماه الماء الى الساحل كأنه ثور وأما قوله ببدنك ففيه وجوه (الاول) ماذكرنا أنه فى موضع الحال اى فى الحال التى كنت بدنا محضا من غير روح (الثانى) المراد ننجيك ببدنك كاملا سويا لم يتغير (الثالث) ننجيك ببدنك اى نخرجك من البحر عريانا من غير لباس (الرابع) ننجيك ببدنك اى بدرعك قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين فقوله ببدنك اى بدرعك وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف بها فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف أقول ان صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام وأما قوله لتكون لمن خلفك آية ففيه وجوه (الاول) أن قوما ممن اعتقدوا فيه الالهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لايموت فاظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم وقيل كان مطرحه على ممر بنى اسرائيل (الثانى) لايبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ماسمعوا منه قوله أنا ربكم الاعلى ليكون ذلك زجرا للخلق عن مثل طريقته ويعرفوا أنه كان بالامس فى نهاية الجلالة والعظمة ثم آل امره الى ما يرون (الثالث) قرأ بعضهم لمن خلقك بالقاف اى لتكون لخالقك آية كسائر آياته (الرابع) انه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم انه تعالى ما أخرج أحدا منهم من قعر البحر بل خصه بالاخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة وأما قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون فالاظهر انه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لامته

عن الاعراض عن الدلائل وباعثالهم على التأمل فيها والاعتبار بها فان المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار كما قال تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب

﴿ قوله تعالى (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) اعلم انه تعالى لما ذكر ماوقع عليه الختم فى واقعة فرعون وجنوده ذكر أيضا فى هذه الآية ماوقع عليه الختم فى أمر بنى اسرائيل وههنا بحثان (البحث الاول) ان قوله بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق اى أسكناهم مكان صدق اى مكانا محمودا وقوله مبوأ صدق فيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدرا أى بوأناهم تبوأ صدق (الثانى) أن يكون المعنى منزلا صالحا مرضيا وانما وصف المبوأ بكونه صدقا لان عادة العرب أنها اذا مدحت شيئا أضافته الى الصدق تقول رجل صدق وقدم صدق قال تعالى وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق والسبب فيه أن ذلك الشئ اذا كان كاملا فى وقته صالحا للغرض المطلوب منه فكل مايظن فيه من الخير فانه لابد وأن يصدق ذلك الظن (البحث الثانى) اختلفوا فى أن المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا فى زمن محمد عليه الصلاة والسلام (أما القول الاول) فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى وعلى هذا التقدير كان المراد بقوله ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق الشام ومصر وتلك البلاد فانها بلاد كثيرة الخصب قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والمراد من قوله ورزقناهم من الطيبات تلك المنافع وأيضا المراد منها أنه تعالى أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ثم قال تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرؤا التوراة فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم ثم بين تعالى ان هذا النوع من الاختلاف لابد وأن يبقى فى دار الدنيا وانه تعالى يقضى بينهم يوم القيامة (وأما القول الثانى) وهو ان المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية اليهود الذين كانوا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين قال ابن عباس وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق مابين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات والمراد ما فى تلك البلاد من الرطب والتمر التى ليس مثلها طيبا فى البلاد ثم انهم بقوا على دينهم ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور

واخلالهم بشكرها وأداء حقوقها اى أسكناهم وأنزلناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم (مبوأ صدق) اى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها (ورزقناهم من الطيبات) اى اللذائذ (فما اختلفوا) فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) اى الا بعدما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام الا من بعدما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب (فان كنت فى شك) أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شئ بشئ من غير تعرض لامكان شئ منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عزوجل قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما (مما أنزلنا اليك) من القصص التى من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل (فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاحبار حسبما هو

المسطور في كتبهم وان لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لا أشك ولا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبي عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع اى ان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم وقرئ فاسأل الذين يقرون الكتب (لقد جاءك الحق) الذي لا محيد عنه ولا ريب في حقيته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف مالا يخفى (فلا تكونن من الممترين) التزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام أن التكذيب من القبح والمحذور بحيث ينبغي ان ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة (فتكون) بذلك (من الخاسرين) ﴿ مؤمنا ﴾ أنفسا وأعمالا (انا لذين حقت عليهم) شروع

وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان (الاول) ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدا وبغيا وايثارا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم فبهذا الطريق صار نزول القرآن سببا لحدوث الاختلاف فيهم (الثاني) أن يقال ان هذه الطائفة من بني اسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارا محضا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم وأما قوله تعالى ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في ازالته في دار الدنيا وأنه تعالى في الآخرة يقضي بينهم فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق * قوله تعالى (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عند ما جاءهم العلم أورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ما يقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة فقال تعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي الشك في وضع اللغة ضم بعض الشيء الى بعض يقال شك الجواهر في العقد اذا ضم بعضها الى بعض ويقال شككت الصيد اذا رميته فضممت يده الى يده أو رجله الى رجله والشكائك من الهوادج ما شك بعضها ببعض والشكاك البيوت المصطفة والشكائك الادعياء لانهم يشكون أنفسهم الى قوم ليسوا منهم اى يضمون وشك الرجل في السلاح اذا دخل فيه وضمه الى نفسه وألزمه اياها فاذا قالوا شك فلان في الامور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين فيجوز هذا ويجوز هذا فهو يضم الى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه (المسئلة الثانية) اختلف المفسرون في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو فقيل النبي عليه الصلاة والسلام وقيل غيره أما من قال بالاول فاختلفوا على وجوه (الاول) أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر والمراد غيره كقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وكقوله لئن أشركت ليحبطن عملك وكقوله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ومن الامثلة المشهورة * اياك أعني واسمعي يا جاره * والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه (الاول) قوله تعالى في آخر السورة يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فبين ان المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح (الثاني) أن الرسول لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية (والثالث) ان بتقدير أن يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع انهم في الاكثر كفار وان حصل فيهم من كان

في بيان سر اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال اى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة (كلمة ربك) حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم الى آخره (لايؤمنون) ابدا اذ لاكذب

لكلامه ولا انتقاض لقضائه اى لايؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لان سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك (حتى يروا العذاب الاليم) كدأب آل فرعون وأضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة ايمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرئ كذلك اى فهلا كانت (قرية) من القرى المهلكة (آمنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها ايمانها) بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها (الا قوم يونس) استثناء منقطع اى لكن

مؤمنا الا أن قوله ليس بحجة لاسيما وقد تقرر أن ما فى أيديهم من التوراة والانجيل فالكل مصحف محرف فثبت أن الحق هو ان هذا الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان الكبير اذا كان له أمير وكان تحت راية ذلك الأمير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذى جعله أميرا عليهم ليكون ذلك أقوى تأثيرا فى قلوبهم (الوجه الثانى) انه تعالى علم أن الرسول لم يشك فى ذلك الا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفينى ما أنزلته على من الدلائل الظاهرة ونظيره قوله تعالى للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا (الوجه الثالث) هو ان محمدا عليه الصلاة والسلام كان من البشر وكان حصول الخواطر المشوشة والافكار المضطربة فى قلبه من الجائزات وتلك الخواطر لاتندفع الا بايراد الدلائل وتقرير البينات فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى ان بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس ونظيره قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك وأقول تمام التقرير فى هذا الباب ان قوله فان كنت فى شك فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا اشعار فيها البتة بأن الشرط وقع أو لم يقع ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها الا بيان ان ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط والدليل عليه أنك اذا قلت ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهو كلام حق لان معناه ان كون الخمسة زوجا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا فأما ان هذا الشك وقع أو لم يقع فليس فى الآية دلالة عليه والفائدة فى انزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد فى قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر ولهذا السبب أكثر الله فى كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة (والوجه الرابع) فى تقرير هذا المعنى أن تقول المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الايمان وذلك لانهم طالبوه مرة بعد أخرى بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات وذلك الاستحياء صار مانعا لهم عن قبول الايمان فقال تعالى فان كنت فى شك من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل يعنى أولى الناس بأن لا يشك فى نبوته هو نفسه ثم مع هذا ان طلب هو من نفسه دليلا على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فانه ليس فيه

قوم يونس (لما آمنوا) أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا) بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم و يجوز أن تكون الجملة ﴿ ٤٠ ﴾ فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية (ومتعناهم) بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم (الى حين) مقدر لهم فى علم الله سبحانه روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما اسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج ﴿ فى غاية ﴾ وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة

عيب ولا يحصل بسببه نقصان فاذا لم يستقبح منه ذلك فى حق نفسه فلان لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى فثبت ان المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وازالة الحياء عنهم فى تكثير المناظرات (الوجه الخامس) أن يكون التقدير انك لست شاكا البتة ولو كنت شاكا لكان لك طرق كثيرة فى ازالة ذلك الشك كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعا لزم منه المحال الفلانى فكذا ههنا ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع الى التوراة والانجيل لتعرف بهما ان هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة (الوجه السادس) قال الزجاج ان الله خاطب الرسول فى قوله فان كنت فى شك وهو شامل للخلق وهو كقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء قال وهذا أحسن الاقاويل قال القاضى هذا بعيد لانه متى كان الرسول داخلا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال سواء أريد معه غيره أو لم يرد وان جاز أن يراد هو مع غيره فما الذى يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر ثم قال ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل (الوجه السابع) هو أن لفظ ان فى قوله ان كنت فى شك للنفى اى ما كنت فى شك قبل يعنى لا نأمرك بالسؤال لانك شاك لكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه السلام بمعاينة احياء الموتى يقينا (وأما الوجه الثانى) وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس فى زمانه كانوا فرقا ثلاثة المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون فى أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال ان كنت أيها الانسان فى شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع كما فى قوله يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك و يا أيها الانسان انك كادح وقوله فاذا مس الانسان ضر ولم يرد فى جميع هذه الآيات انسانا بعينه بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثانى وهم المكذبون فقال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أن المسؤل منه فى قوله فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من هم فقال المحققون هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وعبدالله بن صوريا وتميم الدارى وكعب الاحبار لانهم هم الذين يوثق بخبرهم ومنهم من قال الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار لانهم اذا بلغوا عدد التواتر ثم قرؤا آية من التوراة والانجيل وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض فان قيل اذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل عليها قلنا انهم انما حرفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لانها لما بقيت مع توفر دواعيهم على ازالتها دل ذلك على أنها كانت

فى غاية الظهور وأما ان المقصود من ذلك السؤال معرفة اى الاشياء ففيه قولان (الاول) أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم (والثانى) أنه رجع ذلك الى قوله تعالى فاختلفوا حتى جاءهم العلم والاول أولى لانه هو الاهم والحاجة الى معرفته أتم واعلم انه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك وانتفاء التكذيب بآيات الله ويجوز أن يكون ذلك على طريق التهييج واظهار التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق ثم قال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة اما أن يكون من المصدقين بالرسول أو من المتوقفين فى صدقه أو من المكذبين ولاشك ان أمر المتوقف أسهل من أمر المكذب لاجرم قدم ذكر المتوقف بقوله ولا تكونن من الممترين ثم اتبعه بذكر المكذب وبين انه من الخاسرين ثم انه تعالى لما فصل هذا التفصيل بين أن لله عبادا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون وعبادا قضى لهم بالكرامة فلا يتغيرون فقال ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر كلمات على الجمع وقرأ الباقون كلمة على لفظ الواحد وأقول انها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية وكلمة واحدة بحسب الوحدة الجنسية (المسئلة الثانية) المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك واخباره عنه وخلقه فى العبد مجموع القدرة والداعية الذى هو موجب لحصول ذلك الاثر اما الحكم والاخبار والعلم فظاهر وأما مجموع القدرة والداعى فظاهر أيضا لان القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر الا لمرجح وذلك المرجح من الله تعالى قطعا للتسلسل وعند حصول هذا المجموع يجب الفعل وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه ثم قال تعالى ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم والمراد انهم لا يؤمنون البتة ولو جاءتهم الدلائل التى لا حد لها ولا حصر وذلك لان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (القصة الثالثة) من القصص المذكورة فى هذه السورة قصة يونس عليه السلام ✻ قوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) اعلم انه تعالى لما بين من قبل ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم اتبعه بهذه الآية لانها دالة على ان قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الايمان وذلك يدل على ان الكفار فريقان منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ومنهم من حكم عليه بخاتمة الايمان وكل ما قضى الله به فهو واقع وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى كلمة لولا فى هذه الآية طريقان (الاول) ان معناه النفى روى الواحدى فى البسيط قال قال أبو مالك صاحب ابن عباس كل

وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه اساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية ✻ ٤١ ✻ علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى وياحى محيى الموتى وياحى لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل ابن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض) تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لا يكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه ايمان من فى الارض من الثقلين لآمن (كلهم) بحيث لا يشذ عنهم احد (جميعا) مجتمعين على الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لا محالة ✻ ٦ ✻ حا (أفأنت تكره الناس) على ما لم يشا الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كانه قيل اربك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم (حتى يكونوا مؤمنين) فيكون الانكار متوجها

قوله ومابالربع من احد هو بقية بيت للنابغة وقفت فيها أصيلا لا اسائلها * عيت جوابا ومابالربع من احد * وقوله الا اوارى اول البيت الذى بعده اى أواخى الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى و يجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأياما كان فالمشيئة على اطلاقها اذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الالجاء خاصة فى انكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفى ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بأن الاكراه امر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء فى المشيئة كما اشير اليه (وما كان لنفس) بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلى عليها وجودا وعدما أى ما صح وما استقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن (ان تؤمن الا باذن الله) أى بتسهيله ومنحه للالطاف وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من اعم الاحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها الا حال كونها ملابسة باذنه تعالى ﴿ شبهة ﴾ فلا بد من كون الايمان مما يؤول اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لا محيص لها عنه فلا بد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التى علم الله انها لا تؤمن ليس لها حال

ما فى كتاب الله تعالى من ذكر لولا فمعناه هلا الا حرفين فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها وكذلك فلولا كان من القرون من قبلكم معناه فما كان من القرون فعلى هذا تقدير الآية فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس وانتصب قوله الا قوم يونس على انه استثناء منقطع عن الاول لان اول الكلام جرى على القرية وان كان المراد أهلها ووقع استثناء القوم من القرية فكان كقوله * ومابالربع من أحد * الا أوارى وقرئ أيضا بالرفع على البدل (الطريق الثانى) أن لولا معناه هلا والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت فى الايمان قبل معاينة العذاب الا قوم يونس وظاهر اللفظ يقتضى استثناء قوم يونس من القرى الا ان المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا (المسئلة الثانية) روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من ارض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العقاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وكان يونس قال لهم ان أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر فى السماء غيم أسود شديد السواد فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع فى المدينة وسود سطوحهم فخرجوا الى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض فعلت الاصوات وكثرت التضرعات وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن يردوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر بعد ان وضع عليه بناء أساسه فيرده الى مالكه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لا حى و ياحى يا محيى الموتى وياحى لا اله الا أنت فقالوا فكشف الله العذاب عنهم وعن الفضل بن عباس انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (المسئلة الثالثة) ان قال قائل انه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب فى آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق (والجواب) ان فرعون انما تاب بعد ان شاهد العذاب وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت لهم امارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل ان شاهدوا فظهر الفرق * قوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) اعلم ان هذه السورة من أولها الى هذا الموضع فى بيان حكاية شبهات الكفار فى انكار النبوة مع الجواب عنها وكانت احدى شبهاتهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب على الكافرين وبعد اتباعه ان الله ينصرهم ويعلى شانهم ويقوى جانبهم ثم ان الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك

تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها (ويجعل الرجس) أى الكفر بقرينة ماقبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة
عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما ﴿ ٤٣ ﴾ فى القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى اليه

شبهة فى الطعن فى نبوته وكانوا يبالغون فى استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ثم ان الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لايقدح فى صحة الوعد ثم ضرب لهذا أمثلة وهى واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات الى هذه المقامات ثم فى هذه الآية بين أن جد الرسول فى دخولهم فى الايمان لاينفع ومبالغته فى تقرير الدلائل وفى الجواب عن الشبهات لاتفيد لان الايمان لايحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته وارشاده وهدايته فاذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الايمان وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا على صحة قولهم بان جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى فقالوا كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا يقتضى أنه ماحصلت تلك المشيئة وماحصل ايمان أهل الارض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ماأراد ايمان الكل أجاب الجبائى والقاضى وغيرهما بأن المراد مشيئة الالجاء أى لوشاء الله أن يلجئهم الى الايمان لقدر عليه ولصح ذلك منه ولكنه مافعل ذلك لان الايمان الصادر من العبد على سبيل الالجاء لاينفعه ولايفيده فائدة ثم قال الجبائى ومعنى الجاء الله تعالى اياهم الى ذلك أن يعرفهم اضطرارا انهم لوحاولوا تركه حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لابد وأن يفعلوا ماالجئوا اليه كما أن من علم منا أنه ان حاول قتل ملك فانه يمنعه منه قهرا لم يكن تركه لذلك الفعل سببا لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا واعلم ان هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) ان الكافر ان كان قادرا على الكفر فهل كان قادرا على الايمان أوما كان قادرا عليه فان قدر على الكفر ولم يقدر على الايمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر فاذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم أن يقال انه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال انه أراد منه الكفر وأما ان كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم فرجحان أحد الطرفين على الآخر ان لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لالمرجح وهذا باطل وان توقف على مرجح فذلك المرجح اما أن يكون من العبد أو من الله تعالى فان كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال وان كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجبا لذلك الكفر فاذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الالزام (الثانى) ان قوله ولوشاء ربك لايجوز حمله على مشيئة الالجاء لان النبى صلى الله عليه وسلم ماكان يطلب أن يحصل لهم ايمان لايفيدهم فى الآخرة فبين تعالى انه لاقدرة للرسول على تحصيل هذا الايمان ثم قال ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا فوجب ان يكون المراد من الايمان المذكور فى هذه الآية هو هذا الايمان النافع حتى يكون الكلام منتظما فاما حمل اللفظ على مشيئة القهر والالجاء فانه لايليق بهذا الموضع (الثالث) المراد بهذا الالجاء اما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها ثم يأتى بالايمان عندها واما أن يكون المراد خلق الايمان فيهم والاول باطل لانه تعالى

وقرئ بنـون العظمة وقرئ بالزاى أى يجعل الكفر ويبقيه (على الذين لايعقلون) لايستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أو لايعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ (قل) مخاطبا لاهل مكة بعثا لهم على التدبر فى ملكوت السموات والارض ومافيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين لايعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا) أى تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى لام قل (ماذا فى السموات والارض) أى أى شئ بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على ان ماذا
جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر للمبتدا وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق

بين فيما قبل هذه الآية ان انزال هذه الآيات لايفيد وهو قوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم وقال أيضا ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ماكانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وان كان المراد هو الثانى لم يكن هذا الجاء الى الايمان بل كان ذلك عبارة عن خلق الايمان فيهم ثم يقال لكنه ماخلق الايمان فيهم فدل على انه ماأراد حصول الايمان لهم وهذا عين مذهبنا واعلم انه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين والمعنى انه لاقدرة لك على التصرف فى أحد والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست الا للحق سبحانه وتعالى (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على صحة قولهم انه لاحكم للاشياء قبل ورود الشرع بقوله وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله قالوا وجه الاستدلال به أن الاذن عبارة عن الاطلاق فى الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على انه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الايمان ثم قالوا والذى يدل عليه من جهة العقل وجوه (الاول) أن معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لايدل العقل على حصول نفع فيه فوجب أن لايجب ذلك بحسب العقل بيان الاول ان ذلك النفع اما أن يكون عائدا الى المشكور أو الى الشاكر والاول باطل لان فى الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر و يسوءه الكفران فلاجرم كان الشكر حسنا والكفران قبيحا أما الله سبحانه فانه لايسره الشكر ولايسوءه الكفران فلاينتفع بهذا الشكر أصلا (والثانى) أيضا باطل لان الشاكر يتعب فى الحال بذلك الشكر و يبذل الخدمة مع أن المشكور لاينتفع به البتة ولايمكن أن يقال ان ذلك الشكر علة الثواب لان الاستحقاق على الله تعالى محال فان الاستحقاق على الغير انما يعقل اذا كان ذلك الغير بحيث لولم يعط لاوجب امتناعه من اعطاء ذلك الحق حصول نقصان فى حقه ولما كان الحق سبحانه منزها عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك فى حقه فثبت ان الاشتغال بالايمان و بالشكر لايفيد نفعا بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع أن يكون العقل موجباله فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله قال القاضى المراد أن الايمان لايصدر عنه الا بعلم الله أو بتكليفه أو باقداره عليه وجوابنا ان حمل الاذن على ماذكرتم ترك للظاهر وذلك لايجوز لاسيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلى يقوى قولنا (المسئلة الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم ونجعل بالنون وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا على صحة قولهم بان خالق الكفر والايمان هو الله تعالى بقوله تعالى و يجعل الرجس على الذين لايعقلون وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح سواء كان كفرا أو معصية و بالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية الى طهارة الايمان والطاعة فلماذكر الله تعالى فيماقبل هذه الآية

بالاستفهام (وماتغنى) أى ماتنفع وقرئ بالتذكير (الآيات) وهى التى عبر عنها بقوله تعالى ماذا فى السموات والارض (والنذر) جمع نذير على انه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى ﴿ ٤٤ ﴾ لاتنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لايؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه فمانافية والجملة اماحالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية فى موضع النصب على المصدرية أى اى اغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) أى مشركو مكة وأضرابهم (الامثل ايام الذين خلوا) أى الا يوما مثل أيام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركى الامم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول باس الله بهم اذ لايستحقون غيره من قولهم ايام العرب لوقائعها (قل) تهديدا لهم (فانتظروا) ماهو عاقبتكم (انى معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجى رسلنا) بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا ومابينهما اعتراض جئ به مسارعة الى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل اهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس مافى قوله تعالى فنجيناه ومن معه فى الفلك الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عزوجل (كذلك) أى مثل ذلك الانجاء (حقا علينا)

﴿ ان ﴾

اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى (ننجى المؤمنين) أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلهما مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل

عليهم السلام والاتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وأياما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان (قل) لجمهور المشركين (ياأيها الناس) اوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهارا لكمال العناية بشأن مابلغ اليهم (ان كنتم فى شك من دينى) الذى اتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ماهو وماصفته (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى وقت من الاوقات (ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم) ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب اى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ماسواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الامر أوان كنتم فى شك من صحة دينى

أن الايمان لا يحصل الا بمشيئة الله تعالى وتخليقه ذكر بعده أن الرجس لا يحصل الا بتخليقه وتكوينه والرجس الذى يقابل الايمان ليس الا الكفر فثبت دلالة هذه الآية على ان الكفر والايمان من الله تعالى أجاب أبو على الفارسى النحوى عنه فقال الرجس يحتمل وجهين آخرين (أحدهما) أن يكون المراد منه العذاب فقوله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون أى يلحق العذاب بهم كما قال ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات (والثانى) أنه تعالى يحكم عليهم بانهم رجس كما قال انما المشركون نجس والمعنى ان الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم والجواب انا قد بينا بالدليل العقلى ان الجهل لا يمكن أن يكون فعلا للعبد لانه لا يريده ولا يقصد الى تكوينه وانما يريد ضده وانما قصد الى تحصيل ضده فلو كان به لما حصل الا ما قصده واوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب وأما حمل الرجس على العذاب فهو باطل لان الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقا صدقا صوابا وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم فهو فى غاية البعد لان حكم الله تعالى بذلك صفته فكيف يجوز أن يقال ان صفة الله رجس فثبت ان الحجة التى ذكرناها ظاهرة ❊ قوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والارض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة قل انظروا بكسر اللام لالتقاء الساكنين والاصل فيه الكسر والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة الى اللام (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما بين فى الآيات السالفة ان الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض فقال قل انظروا ماذا فى السموات والارض واعلم ان هذا يدل على مطلوبين (الاول) انه لا سبيل الى معرفة الله تعالى الا بالتدبر فى الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق (والثانى) وهو ان الدلائل اما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الارض أما الدلائل السماوية فهى حركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها ومافيها من الشمس والقمر والكواكب ومايختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد وأما الدلائل الارضية فهى النظر فى أحوال العناصر العلوية وفى أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الانسان خاصة ثم ينقسم كل واحد من هذه الاجناس الى أنواع لانهاية لها ولو ان الانسان أخذ يتفكر فى كيفية حكمة الله سبحانه فى تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل الى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد ولاشك ان الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل فى القرآن المجيد فلهذا السبب ذكر قوله قل انظروا ماذا فى السموات والارض ولم يذكر التفصيل فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية حتى ان العاقل يتنبه لاقسامها وحينئذ يشرع فى تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية البشرية ثم

وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ماهو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لاريب فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم

مالايخفى من التهديد والتعبير عماهم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى ما يمكن * روضة
للعاقل فى هذا الباب هوالشك فى صحته وأما القطع بعدمها فما السبيل اليه أوان كنتم فى شك من ثباتى على الدين
فاعلموا أنى لاأتركه ابدا (وأمرت أن أكون من المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو

انه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتامل بين بعد ذلك ان هذا التفكر والتدبر فى هذه الآيات لاينفع فى حق من حكم الله تعالى عليه فى الازل بالشقاء والضلال فقال وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون ما فى هذا الموضع تحتمل وجهين (الاول) أن تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لاتفيد الفائدة فى حق من حكم الله عليه بانه لايؤمن كقولك مايغنى عنك المال اذا لم تنفق (والثانى) أن تكون استفهاما كقولك أى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (المسئلة الثانية) الآيات هى الدلائل والنذر الرسل المنذرون أوالانذارات (المسئلة الثالثة) قرئ ومايغنى بالياء من تحت * قوله تعالى (فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) واعلم أن المعنى هل ينتظرون الأيام مثل أيام الامم الماضية والمراد ان الانبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجئ أيام مشتملة على أنواع العذاب وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية وكذلك الكفار الذين كانوا فى زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون ثم انه تعالى أمره بان يقول لهم فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم انه تعالى قال ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الكسائى فى رواية نصير ننجى خفيفة وقرأ الباقون مشددة وهما لغتان وكذلك فى قوله ننجى المؤمنين (المسئلة الثانية) ثم حرف عطف وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى ان نهلكهم سريعا ثم ننجى رسلنا (المسئلة الثالثة) لما أمر الرسول فى الآية الاولى أن يوافق الكفار فى انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال العذاب لاينزل الا على الكفار وأما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة ثم قال كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أى مثل ذلك الانجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض يعنى حق ذلك علينا حقا (المسئلة الثانية) قال القاضى قوله حقا علينا المراد به الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب الى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الافعال الشاقة واذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم والجواب أنا نقول انه حق بسبب الوعد والحكم ولانقول انه حق بسبب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لايستحق على خالقه شيئا * قوله تعالى (قل ياأيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولاتكونن من المشركين ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين) واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله باظهار دينه وباظهار المباينة عن المشركين لكى تزول الشكوك والشبهات فى أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر الى الاظهار فقال

تصريح بأن ماهو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وان يكون خاصا كما فى قوله بفعل الامر * امرتك الخير فافعل ماامرت به * (وأن أقم وجهك للدين)عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولاضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لايختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف الابالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال (حنيفا) حال من الدين أوالوجه أى مائلا عن الاديان الباطلة
(ولاتكونن من المشركين) عطف على أقم داخل تحت الامر اى لاتكونن منهم اعتقادا ولاعملا وقوله عز وعلا

(ولا تدع) عطف على قوله تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الامر وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الاول لان مابعده من الجمل الى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ماعليه المشركون أى لا تدع (من دون الله) استقلالا ولا اشتراكا (مالا ينفعك) اذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب (ولا يضرك) اذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فان فعلت) أى مانهيت عنه من دعاء مالا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية (فانك اذا من الظالمين) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه (وان يمسسك الله بضر) تقرير لما أورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه (فلا كاشف له) عنك كائنا من كان وما كان (الاهو) وحده فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية (وان يردك بخير) تحقيق لسلب الضرر الوارد

قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى واعلم ان ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ماكانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الخبر انهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين ابراهيم حنيفا مسلما لقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولقوله وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا ولقوله لا أعبد ماتعبدون والمعنى انكم ان كنتم لا تعرفون دينى فانا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورا (فالقيد الاول) قوله فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله وانما وجب تقديم هذا النفى لما ذكرنا أن ازالة النقوش الفاسدة عن اللوح لابد وأن تكون مقدمة على اثبات النقوش الصحيحة فى ذلك اللوح وانما وجب هذا النفى لان العبادة غاية التعظيم وهى لا تليق الا بمن حصلت له غاية الجلال والاكرام وأما الاوثان فانها أحجار والانسان أشرف حالا منها وكيف يليق بالاشرف أن يشتغل بعبادة الاخس (القيد الثانى) قوله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم والمقصود أنه لما بين انه يجب ترك عبادة غير الله بين أنه يجب الاشتغال بعبادة الله فان قيل ماالحكمة فى ذكر المعبود الحق فى هذا المقام بهذه الصفة وهى قوله الذى يتوفاكم قلنا فيه وجوه (الاول) يحتمل أن يكون المراد انى أعبد الله الذى خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها فى القرآن مرارا وأطوارا فههنا اكتفى بذكر التوفى منها لكونه منبها على البواقى (الثانى) ان الموت أشد الاشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر فى هذا المقام ليكون أقوى فى الزجر والردع (الثالث) انهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقى المؤمنين ويقوى دولتهم فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لاجرم قال ههنا ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وهو اشارة الى ماقرره وبينه فى تلك الآية كأنه يقول أعبد ذلك الذى وعدنى باهلاككم وبابقائى (والقيد الثالث) من الامور المذكورة فى هذه الآية قوله وأمرت أن أكون من المؤمنين واعلم انه لما ذكر العبادة وهى من جنس أعمال الجوارح انتقل منها الى الايمان والمعرفة وهذا يدل على أنه مالم يصر الظاهر مزينا بالاعمال الصالحة فانه لا يحصل فى القلب نور الايمان والمعرفة (والقيد الرابع) قوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو فى قوله وأن أقم وجهك حرف عطف وفى المعطوف عليه وجهان (الاول) ان قوله وأمرت أن أكون قائم مقام قوله وقيل لى كن من المؤمنين ثم عطف عليه وأن أقم وجهك (الثانى) أن قوله وأن أقم وجهك قائم مقام قوله وأمرت باقامة الوجه فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وباقامة الوجه للدين حنيفا (المسئلة الثانية) اقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية الى طلب الدين لان من يريد أن ينظر الى شئ نظرا بالاستقصاء فانه يقيم وجهه فى مقابلته بحيث

فى حيز الصلة أى ان يرد أن يصيبك بخير (فلا راد لفضله) الذى من جملته ما ارادك به من الخير فهو دليل على جواب
الشرط لا نفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه

لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير لانه لو صرفه عنه ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة واذا بطلت تلك المقابلة فقد اختل الابصار فلهذا السبب حسن جعل اقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين وقوله حنيفا أى مائلا اليه ميلا كليا معرضا عما سواه اعراضا كليا وحاصل هذا الكلام هو الاخلاص التام وترك الالتفات الى غيره فقوله أولا وأمرت أن أكون من المؤمنين اشارة الى تحصيل أصل الايمان وقوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا اشارة الى الاستغراق فى نور الايمان والاعراض بالكلية عما سواه (والقيد الخامس) قوله ولا تكونن من المشركين واعلم أنه لا يمكن أن يكون هذا نهيا عن عبادة الاوثان لان ذلك صار مذكورا بقوله تعالى فى هذه الآية فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه فلو التفت بعد ذلك الى غيره كان ذلك شركا وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى (والقيد السادس) قوله تعالى ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك والممكن لذاته معدوم بالنظر الى ذاته وموجود بايجاد الحق واذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له الا بايجاد الحق وعلى هذا التقدير فلا نافع الا الحق ولا ضار الا الحق فكل شئ هالك الا وجهه واذا كان كذلك فلا حكم الا الله ولا رجوع فى الدارين الا الى الله ثم قال فى آخر الآية فان فعلت فانك اذا من الظالمين يعنى لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين لان الظلم عبارة عن وضع الشئ فى غير موضعه فاذا كان ماسوى الحق معزولا عن التصرف كانت اضافة التصرف الى ماسوى الحق وضعا للشئ فى غير موضعه فيكون ظلما فان قيل فطلب الشبع من الاكل والرى من الشرب هل يقدح فى ذلك الاخلاص قلنا لا لان وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه وطلب الانتفاع بشئ خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيا للرجوع بالكلية الى الله الا ان شرط هذا الاخلاص أن لا يقع بصر عقله على شئ من هذه الموجودات الا ويشاهد بعين عقله انها معدومة بذواتها وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق فحينئذ يرى ماسوى الحق عدما محضا بحسب أنفسها ويرى نور وجوده وفيض احسانه عاليا على الكل ✽ قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه وتعالى قرر فى آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود والوجود فائض منه واعلم أن الشئ اما أن يكون ضارا واما أن يكون نافعا واما أن يكون لا ضارا ولا نافعا وهذان القسمان مشتركان فى اسم الخير ولما كان الضر أمرا وجوديا لا جرم قال فيه وان يمسسك الله بضر ولما كان الخير قد يكون وجوديا وقد يكون عدميا لا جرم لم يذكر لفظ الامساس فيه بل قال وان يردك بخير والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله

أى لا احد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا اوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للايذان بان الخير مراد بالذات وأن الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعى الخارجية لا بالقصد الاولى أو ازيد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وانه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر فى احدهما المس وفى الآخر الارادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ما ترك فى الجانب الآخر على أنه قد صرح بالاصابة حيث قيل (يصيب به) اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه أى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل (من يشاء من عباده) فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا (وهو الغفور الرحيم) تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها

✽ تعالى ✽

(قل) مخاطبا لاولئك الكفرة بعدما بلغتهم ما اوحى اليك (يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الاحكام التى من جملتها ﴿ ٤٩ ﴾ مامر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما فى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) بالايمان به والعمل بما فى مطاويه (فانما يهتدى لنفسه) أى منفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عنه (فانما يضل عليها) أى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو ضر كما يلوح به اسناد المجيء الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير (واتبع) اعتقادا وعملا وتبليغا (ما يوحى اليك) على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه اليهم بالمجيء واليه عليه السلام بالوحى تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائى (واصبر) على ما يعتريك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالنصرة عليهم أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى له من الاجر عشر حسنات ﴿ ٧ ﴾ خا بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والايمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات فبين سبحانه وتعالى أنه ان قضى لاحد شرا فلا كاشف له الا هو وان قضى لاحد خيرا فلا راد لفضله البتة ثم فى الآية دقيقة أخرى وهى أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه (الاول) انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين أنه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى أثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبى صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة انه قال سبقت رحمتى غضبى (الثانى) انه تعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على ان جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب (والثالث) انه قال وهو الغفور الرحيم وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وأنه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه ثم نبه على أن الخير مراد بالذات والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة فهذا ما نقوله فى هذه الآية (المسئلة الثانية) قال المفسرون انه تعالى لما بين فى الآية الاولى فى صفة الاصنام انها لا تضر ولا تنفع بين فى هذه الآية انها لا تقدر أيضا على دفع الضرر الواصل من الغير وعلى دفع الخير الواصل من الغير قال ابن عباس رضى الله عنهما ان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو يعنى بمرض وفقر فلا دافع له الا هو وأما قوله وان يردك بخير فقال الواحدى هو من المقلوب معناه وان يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ابدال كل واحد منهما بالآخر وأقول التقديم فى اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله وان يردك بخير يدل على ان المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لاجله فهذه الدقيقة لا تستفاد الا من هذا التركيب

* قوله تعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية وفى تفسيرها وجهان (الاول) انه من حكم له فى الازل بالاهتداء فسيقع له ذلك ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة فى دفعه (الثانى) وهو الكلام اللائق بالمعتزلة قال القاضى انه تعالى بين انه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل فلا يجب على من السعى فى ايصالكم الى الثواب العظيم وفى تخليصكم من العذاب الاليم أزيد مما فعلت قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم انه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة اخرى لطيفة فقال (واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) والمعنى انه تعالى أمره

(سورة هود عليه السلام مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية) (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل أنه مبتدأ والاول هو الاظهر كما أشير اليه فى سورة يونس او النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحوا ذكرا واقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر أولا محل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى ﴿ ٥٠ ﴾ (كتاب) خبره على الوجه الثانى ولمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية (احكمت آياته) نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عزوجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ما تشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لاسيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى اقصى غاية منه ما لا يخفى (ثم فصلت) أى جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد ﴿ الآيات ﴾ المجازى والتفسير بجعلها آية آية لا يساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية لها فلا يناسب عطفه على أحكامها بكلمة التراخى وأما المعنيان الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لأنها أحكمت أو فصلت بعد ان لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض

باتباع الوحى والتنزيل فان وصل اليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه الى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين وأنشد بعضهم فى الصبر شعرا فقال

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * واصبر حتى يحكم الله فى أمرى
سأصبر حتى يعلم الصبر أنى * صبرت على شئ أمر من الصبر

تم تفسير هذه السورة والله أعلم بمراده و باسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه يقول جامع هذا الكتاب ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة احدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواع المغفرة والرحمة وأنا التمس من كل من يقرأ هذا الكتاب و ينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين وهذا المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين

سورة هود عليه السلام مائة وثلاث وعشرون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله الر اسم للسورة وهو مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله أحكمت آياته ثم فصلت صفة للكتاب قال الزجاج لا يجوز أن يقال الر مبتدأ وقوله كتاب أحكمت آياته ثم فصلت خبر لان الر ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده وهذا الاعتراض فاسد لانه ليس من شرط كون الشئ مبتدأ أن يكون خبره محصورا فيه ولا أدرى كيف وقع للزجاج هذا السؤال ثم ان الزجاج اختار قولا آخر وهو أن يكون التقدير الر هذا كتاب أحكمت آياته وعندى أن هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) أن على هذا التقدير يقع قوله الر كلاما باطلا لا فائدة فيه (والثانى) انك اذا قلت هذا كتاب فقولك هذا يكون اشارة الى أقرب المذكورات وذلك هو قوله الر فيصير حينئذ الر مخبرا عنه بانه كتاب أحكمت آياته فيلزمه على هذا القول ما لم يرض به فى القول الاول فثبت ان الصواب ما ذكرناه (المسئلة الثانية) فى قوله أحكمت آياته وجوه (الاول) أحكمت آياته نظمت نظما رصيفا محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف (الثانى) ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله أحكمت آياته أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها واعلم ان على هذا الوجه لا يكون كل الكتاب محكما لانه حصل فيه آيات منسوخة الا انه لما كان الغالب كذلك صح اطلاق هذا الوصف عليه اجراء للحكم الثابت فى الغالب مجرى الحكم الثابت فى الكل (الثالث) قال صاحب الكشاف أحكمت يجوز أن يكون نقلا بالهمزة من حكم بضم الكاف اذا صار حكيما أى جعلت حكيمة كقوله آيات الكتاب الحكيم (الرابع) جعلت آياته محكمة فى أمور (أحدها) ان معانى هذا الكتاب هى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وهذه المعانى لا تقبل النسخ فهى فى غاية الاحكام (وثانيها) ان

وكبر الفيل الا انهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها وبملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار الى تراخي رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل الا انه ليس في مثابته في استتباع مايستتبعه من الاحكام والآثار أو فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخي زماني وان أريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبي لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها وقرئ أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت اى فرقت بين الحق والباطل (من لدن حكيم خبير) صفة للكتاب وصف بها بعد ماوصف باحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفي بنائهما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها و دقائقها منكرا بالتنكير التفخيمي وربطهما به لا على النهج المعهود في اسناد الافاعيل الى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على أكمل مايكون مالا يكتنه كنهه (ألا تعبدوا الا الله) مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعني كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد في حذف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتمحضوا في عبادته فان الاحكام والتفصيل على مافصل من المعاني مما يدعوهم الى الايمان والتوحيد ومايتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أى قيل لا تعبدوا الا الله (انني لكم منه) من جهة الله تعالى (نذير) انذركم عذابه ان لم تتركوا

الآيات الواردة فيه غير متناقضة والتناقض ضد الاحكام فاذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الاحكام (وثالثها) ان ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة الى حيث لا تقبل المعارضة وهذا أيضا مشعر بالقوة والاحكام (ورابعها) ان العلوم الدينية امانظرية واما عملية أما النظرية فهي معرفة الاله تعالى ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وهذا الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم ولطائفها وأما العملية فهي أما أن تكون عبارة عن تهذيب الاعمال الظاهرة وهو الفقه أو عن تهذيب الاحوال الباطنة وهي علم التصفية ورياضة النفس ولا نجد كتابا في العالم يساوي هذا الكتاب في هذه المطالب فثبت أن هذا الكتاب مشتمل على أشرف المطالب الروحانية وأعلى المباحث الالهية فكان كتابا محكما غير قابل للنقض والهدم وتمام الكلام في تفسير المحكم ذكرناه في تفسير قوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات (المسئلة الثالثة) في قوله فصلت وجوه (أحدها) ان هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية وهي دلائل التوحيد والنبوة والاحكام والمواعظ والقصص (والثاني) أنها جعلت فصولا سورة سورة وآية آية (الثالث) فصلت بمعنى انها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ونظيره قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات والمعنى مجئ هذه الآيات متفرقة متعاقبة (الرابع) فصل ما يحتاج اليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة (الخامس) جعلت فصولا حلالا وحراما وأمثالا وترغيبا وترهيبا ومواعظ وأمرا ونهيا لكل معنى فيها فصل قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الاكمل (المسئلة الرابعة) معنى ثم في قوله ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وكما تقول فلان كريم الاصل ثم كريم الفعل (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف قرئ أحكمت آياته ثم فصلت أي أحكمتها أنا ثم فصلتها وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أي فرقت بين الحق والباطل (المسئلة السادسة) احتج الجبائي بهذه الآية على ان القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه (الاول) قال المحكم هو الذي أتقنه فاعله ولولا أن الله تعالى يحدث هذا القرآن والا لم يصح ذلك لان الاحكام لا يكون الا في الافعال ولا يجوز أن يقال كان موجودا غير محكم ثم جعله الله محكما لان هذا يقتضي في بعضه الذي جعله محكما أن يكون محدثا ولم يقل أحد بأن القرآن بعضه قديم و بعضه محدث (الثاني) ان قوله ثم فصلت يدل على أنه حصل فيه انفصال وافتراق و يدل على ان ذلك الانفصال والافتراق انما حصل بجعل جاعل وتكوين مكون وذلك أيضا يدل على المطلوب (الثالث) قوله من لدن حكيم خبير والمراد من عنده والقديم لا يجوز أن يقال انه حصل من عند قديم آخر لانهما لو كانا قديمين لم يكن القول بان أحدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس أجاب أصحابنا بان هذه

النعوت عائدة الى هذه الحروف والاصوات ونحن معترفون بانها محدثة مخلوقة وانما الذى ندعى قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والاصوات (المسئلة السابعة) قال صاحب الكشاف قوله من لدن حكيم خبير يحتمل وجوها (الاول) أنا ذكرنا أن قوله كتاب خبر وأحكمت صفة لهذا الخبر وقوله من لدن حكيم خبير صفة ثانية والتقدير الر كتاب من لدن حكيم خبير (والثانى) أن يكون خبرا بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير (والثالث) أن يكون ذلك صفة لقوله أحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور ﴿ قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير ﴾ اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن فى قوله ألا تعبدوا الا الله وجوها (الاول) أن يكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل ألا تعبدوا الا الله وأقول هذا التأويل يدل على أنه لا مقصود من هذا الكتاب الشريف الا هذا الحرف الواحد فكل من صرف عمره الى سائر المطالب فقد خاب وخسر (الثانى) أن تكون أن مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى لان قوله وأن استغفروا معطوف على قوله ألا تعبدوا فيجب ان يكون معناه أى لا تعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه (والثالث) أن يكون التقدير الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لا يعبدوا الا الله ويقول لهم اننى لكم منه نذير وبشير والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه (الاول) انه تعالى أمر بان لا يعبدوا الا الله واذا قلنا الاستثناء من النفى اثبات كان معنى هذا الكلام النهى عن عبادة غير الله تعالى والامر بعبادة الله تعالى وذلك هو الحق لانا بينا أن ماسوى الله فهو محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت أن عبادة غير الله منكرة والاعراض عن عبادة الله منكر واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة لان من لا يعرف معبوده لا ينتفع بعبادته فكان الامر بعبادة الله أمرا بتحصيل المعرفة أولا ونظيره قوله تعالى فى أول سورة البقرة يا أيها الناس اعبدوا ربكم ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله الذى خلقكم والذين من قبلكم وانما حسن ذلك لان الامر بالعبادة يتضمن الامر بتحصيل المعرفة فلا جرم ذكر ما يدل على تحصيل المعرفة ثم قال اننى لكم منه نذير وبشير وفيه مباحث (الاول) أن الضمير فى قوله منه عائد الى الحكيم الخبير والمعنى

ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى (وبشير) أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولما ذكر شؤن الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما نظم فى سلك الغاية والامر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه أعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد الايذان بان التوحيد فى أقصى ﴿ ٥٢ ﴾ مراتب الاهمية حتى أفرد بالذكر وايد ايجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بانه كما لا يتحقق فى نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ما روعى فى الكتاب من تقديم النفى على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا اننى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير تركـكم له وتوحيدكم ولما سبق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع فى ذكر ما هو من تمامه على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل فى وصف البشير والنذير فقيل (وأن استغفروا ربكم) وهو معطوف على أن لا تعبدوا على ماذكر من الوجهين فعلى الاول ﴿ اننى ﴾ أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أو نهيا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفا لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى

فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال (ثم توبوا اليه) عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل ما فعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر ما فرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه ﴿ ٥٣ ﴾ بالطاعه أو تستمروا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وايتاء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى تمتيعا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى انبتكم من الارض نباتا أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الاموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم عيشا مرضيا لايفوتكم فيه شئ مما تشتهون ولا ينغصه شئ من المكدرات (الى أجل مسمى) مقدر عند الله عزوجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لايطمح وراءها طامح جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة أو لايهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذى فضل) فى الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله اما فى الدنيا أو فى الآخرة وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع الى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهمه من حكمته من بعض ما يتفق فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لايمتع فى الدنيا أكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتعا فقيل ويعط كل فاضل جزاء فضله اما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المواد واما فى الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع فى الانذار فقيل (وان تولوا)

انى لكم نذير وبشير من جهته (البحث الثانى) ان قوله ألا تعبدوا الا الله مشتمل على المنع عن عبادة غير الله وعلى الترغيب فى عبادة الله تعالى فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الاول بالحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشير على الثانى بالحاق الثواب العظيم لمن أتى بها واعلم أنه صلى الله عليه وسلم ما بعث الا لهذين الامرين وهو الانذار على فعل ما لا ينبغي والبشارة على فعل ما ينبغي (المرتبة الثانية) من الامور المذكورة فى هذه الآية قوله وأن استغفروا ربكم (والمرتبة الثالثة) قوله ثم توبوا اليه واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه (الاول) أن معنى قوله وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعى الى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على انه لا سبيل الى طلب المغفرة من عند الله الا باظهار التوبة والامر فى الحقيقة كذلك لان المذنب معرض عن طريق الحق والمعرض المتمادى فى التباعد ما لم يرجع عن ذلك الاعراض لا يمكنه التوجه الى المقصود بالذات فالمقصود بالذات هو التوجه الى المطلوب الا ان ذلك لا يمكن الا بالاعراض عما يضاده فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة (الوجه الثانى) فى فائدة هذا الترتيب أن المراد استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا اليه فى المستأنف (الثالث) وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا من الاعمال الباطلة (الرابع) الاستغفار طلب من الله لازالة ما لا ينبغي والتوبة سعى من الانسان فى ازالة ما لا ينبغى فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشئ الا من مولاه فانه هو الذى يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتى به الانسان ويتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعي النفس واعلم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ومن المعلوم أن المطالب محصورة فى نوعين لانه اما أن يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة أما المنافع الدنيوية فهى المراد من قوله يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى وهذا يدل على ان المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى فى الدنيا منتظم الحال مرفه البال وفى الآية سؤالات (الاول) أليس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال أيضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على ان نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة فى الدنيا فكيف الجمع بينهما الجواب من وجوه (الاول) المراد انه تعالى لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى

أي تتولوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أولان العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولى (فانى أخاف عليكم) بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك فى نفسه ﴿ ٥٤ ﴾ أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى ثقلت فى السموات والارض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأياما كان ففى اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له (الى الله مرجعكم) رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا الى غيره (وهو على كل شئ قدير) فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ما ينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبيه اشعارا بأن ما يعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لان من أعرض عن شئ ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا ﴿ سبحانه ﴾ نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل (ليستخفوا منه) التجأ الى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فاضرب فانفلق ولا يخفى أن

الذين كفروا (الثانى) انه تعالى يوصل اليهم الرزق كيف كان واليه الاشارة بقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك (الثالث) وهو الاقوى عندى أن يقال ان المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شئ يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكل من كان امعانه فى ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أتم لانه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه فاما من كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا فى ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال الله تعالى فى صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة (السؤال الثانى) هل يدل قوله الى أجل مسمى على ان للعبد أجلين وأنه يقع فى ذلك التقديم والتأخير والجواب لا ومعنى الآية انه تعالى حكم بان هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله فى الوقت الفلانى ولو أعرض عنها لكان أجله فى وقت آخر لكنه تعالى عالم بانه لو اشتغل بالعبادة أم لا فان اجله ليس الا فى ذلك الوقت المعين فثبت أن لكل انسان أجلا واحدا فقط (السؤال الثالث) لم سمى منافع الدنيا بالمتاع الجواب لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى الى أجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ثم لما بين تعالى ذلك قال ويؤت كل ذى فضل فضله والمراد منه السعادات الاخروية وفيها لطائف وفوائد (الفائدة الاولى) ان قوله ويؤت كل ذى فضل فضله معناه ويؤت كل ذى فضل موجب فضله ومعلوله والامر كذلك وذلك لان الانسان اذا كان فى نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان فى غاية الرغبة فى تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصا لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت الا ان العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الانوار الروحانية فاذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الانوار وتلألأت تلك الاضواء وتوالت موجبات السعادات فهذا هو المراد من قوله ويؤت كل ذى فضل فضله (الفائدة الثانية) ان هذا تنبيه على أن مراتب السعادات فى الآخرة مختلفة وذلك لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال ويؤت كل ذى فضل فضله (الفائدة الثالثة) انه تعالى قال فى منافع الدنيا يمتعكم متاعا حسنا وقال فى سعادات الآخرة ويؤت كل ذى فضل فضله وذلك يدل على ان جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس الا منه وليس الا بايجاده وتكوينه واعطائه وجوده * وكان الشيخ الامام الوالد رحمه الله تعالى يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه فأما الذين توغلوا فى المعارف الالهية وخاضوا فى بحار أنوار الحقيقة علموا أن ما سواه ممكن لذاته موجود بايجاده فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه

انسياق الذهن الى توسيط الارادة بين ثنى الصدور و بين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الامر به و بين الانفلاق ولعل الاظهر أن معناه يعطفون صدورهم على مافيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على مافيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره أو ايماء الى أن ظهوره مغن عن ذكره

أو ليذهب ذهن السامع الى كل مالاخير فيه من الامور المذكورة فيدخل فيه ماذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى اليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء و يؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة و يضمر فى قلبه مايضادها وقال ابن شداد انها نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه النبى صلى الله عليه وسلم وكأنه انما كان يصنع مايصنع لانه لو رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه و ربما يؤدى ذلك الى ظهور مافى قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما تثنونى وقرئ تثنون ٢ وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ماهش من الكلا وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كما ينثنى الهش من

سبحانه وتعالى هو الضار والنافع والمعطى والمانع ثم انه تعالى لما بين هذه الاحوال قال وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير والامر كذلك لان من اشتغل بعبادة غير الله صار فى الدنيا أعمى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا والذى يبين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوى حبه لها ومال طبعه اليها وعظمت رغبته فيها فاذا مات بقى معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزا عن الوصول الى محبوبه فحينئذ يعظم البلاء و يتكامل الشقاء فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم وأما تفاصيل تلك الاحوال فهى غائبة عنا مادمنا فى هذه الحياة الدنيوية ثم بين أنه لابد من الرجوع الى الله تعالى بقوله الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير واعلم أن قوله الى الله مرجعكم فيه دقيقة وهى ان هذا اللفظ يفيد الحصر يعنى ان مرجعنا الى الله لا الى غيره فيدل هذا على أنه لا مدبر ولا متصرف هناك الا هو والامر كذلك أيضا فى هذه الحياة الدنيوية الا ان أقواما اشتغلوا بالنظر الى الوسائط فعجزوا عن الوصول الى مسبب الاسباب فظنوا أنهم فى دار الدنيا قادرون على شئ وأما فى دار الآخرة فهذا الحال الفاسد زائل أيضا فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله الى الله مرجعكم ثم قال وهو على كل شئ قدير وأقول ان هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه و بشارة عظيمة من سائر الوجوه أما انه تهديد عظيم فلان قوله تعالى الى الله مرجعكم يدل على أنه ليس مرجعنا الا اليه وقوله وهو على كل شئ قدير يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته والرجوع الى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما انه بشارة عظيمة فلان ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد والملك القاهر العالى الغالب اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح * يقول مصنف هذا الكتاب قد أفنيت عمرى فى خدمة العلم والمطالعة للكتب ولا رجاء لى فى شئ الا انى فى غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر غفر وأسألك يا أكرم الاكرمين ويا أرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدى وفلذة كبدى وأن تخصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم * قوله تعالى (ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون انه عليم بذات الصدور) اعلم انه تعالى لما قال وان تولوا يعنى عن عبادته وطاعته فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير بين بعده أن التولى عن ذلك باطنا كالتولى عنه ظاهرا فقال ألا انهم يعنى الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين (الاول) أنهم يثنون صدورهم يقال ثنيت الشئ اذا عطفته وطويته وفى الآية وجهان (الاول) روى أن طائفة من المشركين قالوا اذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا

٢ قوله وقرئ تثنون الخ أفاد الشهاب انه بمثناة فوقية مفتوحة فمثلثة ساكنة فنون مفتوحة تتلوها واو مكسورة و بعدها نون مشددة وأصله تثنونن على وزن تفعوعل وقوله من الثن أى بكسر المثلثة وتشديد النون كما فى القاموس * وقوله وقرئ تثنئن أى على وزن تطمئن بأن يجعل مكان الواو المكسورة فى القراءة السابقة همزة مكسورة كما فى زاده اه مصححه

النبات اوارادضعف ايمانهم ورخاوة قلوبهم وقرئ تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كما قيل ابياضت وادهامت وقرئ تثنوى وزن ترعوى (ألاحين يستغشون ثيابهم) أى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد أوحين يأوون الى فراشهم و يتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته و يرخى ستره و يحنى ظهره و يتغشى بثوبه و يقول هل يعلم الله مافى قلبى (يعلم مايسرون) أى يضمرون فى قلوبهم ﴿ ٥٦ ﴾ (ومايعلنون) أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ماعسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من أول الامر ماصنعوا وايذانا بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكان علمه بمايسرونه أقدم منه بمايعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا مافى صدوركم أوتبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ماوقع فى قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله اذلم يتعلق باشعار أن المحاسبة بمايخفونه أولى منها بمايبدونه غرض بل الامر بالعكس واماههنافقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بمايسرونه أولى منه بمايعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لاوعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر ﴿ عمره ﴾ والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع انه وقع الغنية عنه بماقبله من قوله عزوجل انى أعلم غيب السموات والارض يجوز أن ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذمامن شئ يعلن الاوهو أومباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى متقدم على

صدورنا على عداوة محمد فكيف يعلم بنا وعلى هذا التقدير كان قوله يثنون صدورهم كناية عن النفاق فكأنه قيل يضمرون خلاف مايظهرون ليستخفوا من الله تعالى ثم نبه بقوله ألاحين يستغشون ثيابهم على أنهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم (الوجه الثانى) روى أن بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه والتقدير كأنه قيل انهم ينصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلام رسول الله ومايتلو من القرآن وليقولوا فى أنفسهم مايشتهون من الطعن وقوله ألا للتنبيه فنبه أولا على أنهم ينصرفون عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة ألا للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم وهو حين يستغشون ثيابهم كأنه قيل ألا انهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ألا انهم يستخفون حين يستغشون ثيابهم ثم ذكر أنه لافائدة لهم فى استخفائهم بقوله يعلم مايسرون ومايعلنون * قوله تعالى (ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الآية الاولى أنه يعلم مايسرون ومايعلنون أردفه بمايدل على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات فذكر أن رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج الدابة اسم لكل حيوان لان الدابة اسم مأخوذ من الدبيب و بنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث وأطلق على كل حيوان ذى روح ذكرا كان أو انثى الا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس والمراد بهذا اللفظ فى هذه الآية الموضوع الاصلى اللغوى فيدخل فيه جميع الحيوانات وهذا متفق عليه بين المفسرين ولاشك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهى الاجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال والله يحصيها دون غيره وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها ومايوافقها ومايخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارضين وطبائع الحيوان والنبات كيف لايكون عالما باحوالها روى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحى اليه تعلق قلبه باحوال أهله فامره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فمها شئ يجرى مجرى الغذاء لها ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول سبحان من يرانى ويسمع كلامى و يعرف مكانى و يذكرنى ولا ينسانى (المسئلة الثانية) تعلق بعضهم بانه يجب على الله تعالى بعض الاشياء بهذه الآية وقال ان كلمة على للوجوب وهذا يدل على أن ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله وجوابه أنه واجب بحسب الوعد والفضل والاحسان (المسئلة الثالثة) تعلق أصحابنا بهذه الآية فى اثبات أن الرزق قد يكون حراما قالوا لانه ثبت أن ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد و بحسب الاستحقاق والله تعالى لايخل بالواجب ثم قد نرى انسانا لايأكل من الحلال طول

تعالى مخالفة الثانية (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالا يصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون ومايعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من ﴿ ٥٧ ﴾ قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعى أو ارادى لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما جئ به على طريق الوجوب اعتبارا لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه (ويعلم مستقرها) محل قرارها فى الاصلاب (ومستودعها) موضعها فى الارحام وما يجرى مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لان النطفة بالنسبة الى الاصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة الى الارحام وما يجرى مجراها فهى مودعة فيها الى وقت معين او مسكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الاخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان ﴿ ٨ ﴾ خا كونها دابة فى الارض والمعنى مامن دابة فى الارض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الاطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة مايليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها (كل) من الدواب ورزقها ومستقرها

عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا وأما قوله ويعلم مستقرها ومستودعها فالمستقر هو مكانه من الارض والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة وقال الفراء مستقرها حيث تأوى اليه ليلا أو نهارا ومستودعها موضعها الذى تموت فيه وقد مضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع فى سورة الانعام ثم قال كل فى كتاب مبين قال الزجاج المعنى ان ذلك ثابت فى علم الله تعالى ومنهم من قال فى اللوح المحفوظ وقد ذكرنا فائدة ذلك فى قوله ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين * قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) واعلم أنه تعالى لما أثبت بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادرا على كل المقدورات وفى الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته واعلم أن قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام قد مضى تفسيره فى سورة يونس على سبيل الاستقصاء بقى ههنا أن نذكر وكان عرشه على الماء قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء قال أبو بكر الاصم معنى قوله وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والارض وقالت المعتزلة فى الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما لانه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء لانه تعالى لما خلقهما فاما أن يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثانى عبث فبقى الاول وهو انه خلقهما لمنفعة وتلك المنفعة اما أن تكون عائدة الى الله وهو محال لكونه متعاليا عن النفع والضرر أو الى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حيا لان غير الحى لا ينتفع وكل من قال بذلك قال ذلك الحى كان من جنس الملائكة وأما أبو مسلم الاصفهانى فقال معنى قوله وكان عرشه على الماء أى بناؤه السموات كان على الماء وقد مضى تفسير ذلك فى سورة يونس وبين أنه تعالى اذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب فان البناء الضعيف اذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الامر العظيم اذا بسط على الماء * وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى ذكر ان عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والارض (والجواب) فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه (الاول) ان العرش مع كونه أعظم من السموات والارض كان على الماء فلولا انه تعالى قادر على امساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك (والثانى) انه تعالى أمسك الماء لا على قرار والا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية

ومستودعها (فى كتاب مبين) اى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما ثبت فيه للناظرين ولما انتهى الامر الى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الارض من المخلوقات التى لاتكاد تحصى من مبدا فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدا خلق السموات والارض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) السموات فى يومين والارض فى يومين وماعليهما من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الارض لكونه من تتمات خلقها وهو لسر فى جعل زمان خلقه تتمة زمان خلقها فى قوله تعالى فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالايام الاوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الارض ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على انه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الامور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم ما يقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء) ليس تحته شئ غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على ﴿ الرسول ﴾ كون الماء أول ماحدث فى العالم بعد العرش وانما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما (ليبلوكم) متعلق بخلق أى خلق السموات والارض ومافيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهما من

وذلك يدل على ماذكرناه (والثالث) أن العرش الذى هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وذلك يدل أيضا على ماذكرنا (السؤال الثانى) هل يصح مايروى انه قيل يارسول الله أين كان ربنا قبل خلق السموات والارض فقال كان فى عماء فوقه هواء وتحته هواء (والجواب) ان هذه الرواية ضعيفة والاولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شئ ثم كان عرشه على الماء (السؤال الثالث) اللام فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا يقتضى انه تعالى خلق السموات والارض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه والجواب ظاهر هذا الكلام يقتضى ان الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذى قال به الآخرون وشرح تلك المقالات لايليق بهذا الكتاب والذين قالوا ان أفعاله وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا لام التعليل وردت على ظاهر الامر ومعناه انه تعالى فعل فعلا لو كان يفعله من يجوز عليه رعاية المصالح لما فعله الا لهذا الغرض (السؤال الرابع) الابتلاء انما يصح على الجاهل بعواقب الامور وذلك عليه تعالى محال فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء فى حقه (والجواب) ان هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة لعلكم تتقون واعلم أنه تعالى لما بين أنه خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسئ بالعقاب وذلك لايتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة فعند هذا خاطب محمدا عليه الصلاة والسلام وقال ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ومعناه انهم ينكرون هذا الكلام و يحكمون بفساد القول بالبعث فان قيل الذى يمكن وصفه بأنه سحر ما يكون فعلا مخصوصا وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) قال القفال معناه ان هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا واحرازا لهم الى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم (الثانى) أن معنى قوله ان هذا الا سحر مبين هو أن السحر أمر باطل قال تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام ما جئتم به السحر ان الله سيبطله فقوله ان هذا الا سحر مبين أى باطل مبين (الثالث) ان القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا فى القرآن بكونه سحرا لان الطعن فى الاصل يفيد الطعن فى الفرع (الرابع) قرأ حمزة والكسائى ان هذا الا ساحر يريدون النبى صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب * قوله تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار انهم يكذبون

تعاجيب الصنائع والعبر فتستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم (أيكم أحسن عملا) فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ما تبين المحسن من المسئ وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام ﴿ ٥٩ ﴾ بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الاول أشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وانما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الانفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما فى مطاوى الكتاب الحكيم من الاوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لان أحدا لا يقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الارض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الاساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى

الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم ان هذا الا سحر مبين فحكى عنهم فى هذه الآية نوعا آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذى توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به أخذوا فى الاستهزاء و يقولون ما السبب الذى حبسه عنا فأجاب الله تعالى بأنه اذا جاء الوقت الذى عينه الله لنزول ذلك العذاب الذى كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب ✽ بقى ههنا سؤالات (السؤال الاول) المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة (الجواب) للمفسرين فيه وجوه (الاول) قال الحسن معنى حكم الله فى هذه الآية أنه لا يعذب أحدا منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك الى يوم القيامة فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذى حبسه عنا (والثانى) ان المراد الامر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر وعلى هذا الوجه تأولوا قوله وحاق بهم أى نزل بهم هذا العذاب يوم بدر (السؤال الثانى) ما المراد بقوله الى أمة معدودة (الجواب) من وجهين (الاول) ان الاصل فى الامة هم الناس والفرقة فاذا قلت جاءنى أمة من الناس فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون وقوله وادكر بعد أمة أى بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة أى الى حين تقضى أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول لقالوا ما ذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد وتسمية الشئ باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر أى فى ذلك الحين (الثانى) ان اشتقاق الامة من الأم وهو القصد كأنه يعنى الوقت المقصود بايقاع هذا الموعود فيه (السؤال الثالث) لم قال وحاق على لفظ الماضى مع ان ذلك لم يقع (والجواب) قد مر فى هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس والضابط فيها انه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضى مبالغة فى التأكيد والتقرير ✽ قوله تعالى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) اعلم أنه تعالى لما ذكر ان عذاب أولئك الكفار وان تأخر الا أنه لا بد وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب فقال ولئن أذقنا الانسان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ الانسان فى هذه الآية فيه قولان (الاول) ان المراد منه مطلق الانسان و يدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى استثنى منه قوله الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فثبت ان الانسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر وذلك يدل على ما قلناه (الثانى) ان هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وموافقة أيضا لقوله تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا (الثالث) ان مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز قال ابن جريج

كل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الاعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينظم ظهوره في سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى ما فيه من الترغيب في الترقي الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة

نقائضها والله تعالى أعلم (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت) على ما يوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الاعمال (ليقولن الذين كفروا) ان وجه الخطاب في قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أي ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم (ان هذا الا سحر مبين) أي مثله في الخديعة أو البطلان هذا اشارة الى القول المذكور او الى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحي المتلو الا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا الى القرآن لانبائه عنه في كل موضع وكونه علما عندهم في ذلك فعمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم في العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شئ موجود ظاهرا لا محل له في الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث ان البعث كما أشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الامر كما ذكر ومع ذلك ان اخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لا يتلعثمون في الرد ويعدون ذلك من قبيل ما لا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ما هذه من تتماته واما من حيث ان البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذي خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون

في تفسير هذه الآية يا ابن آدم اذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور فاذا نزعت منك فيؤس قنوط (والقول الثاني) ان المراد منه الكافر ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاصل في المفرد المحلى بالالف واللام ان يحمل على المعهود السابق أولا المانع وههنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور في الآية المتقدمة (الثاني) أن الصفات المذكورة للانسان في هذه الآية لا تليق الا بالكافر لانه وصفه بكونه يؤسا وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ووصفه أيضا بكونه كفورا وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضا بأنه عند وجدان الراحة يقول ذهب السيآت عني وذلك جراءة على الله تعالى ووصفه أيضا بكونه فرحا والله لا يحب الفرحين ووصفه أيضا بكونه فخورا وذلك ليس من صفات أهل الدين ثم قال الناظرون لهذا القول وجب أن يحمل الاستثناء المذكور في هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات (المسئلة الثانية) لفظ الاذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم فكان المراد أن الانسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان وبادراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفر ان فالدنيا في نفسها قليلة والحاصل منها للانسان الواحد قليل والاذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم انه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين فهذه الاذاقة قليل من قليل ومع ذلك فان الانسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الاتيان بالطريق الحسن معها وأما النعماء فقال الواحدي انها انعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها لانها خرجت مخرج الاحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء والمضرة والضراء (المسئلة الثالثة) اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية بل هي أبدا في التغير والزوال والتحول والانتقال الا أن الضابط فيه انه اما ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات واما أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه الى المحبوب ومن المحرمات الى الطيبات (أما القسم الاول) فهو المراد من قوله واذا أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الانسان بأنه يؤس كفور وتقريره ان يقال انه حال زوال تلك النعمة يصير يؤسا وذلك لان الكافر يعتقد ان السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي ثم أنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس وأما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة انما حصلت من الله تعالى وفضله واحسانه وطوله فانه لا يحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها الى بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فانه يكون كفورا لانه لما اعتقد أن حصولها انما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الانسان حصلها بسبب جده وجهده فحينئذ لا يشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة فالحاصل ان الكافر يكون عند زوال تلك

ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى الاساحر على أن الاشارة الى القائل أوالى القرآن على اسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى عنك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره أو على انه مجاراة معهم فى الكلام ٤ج على المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد ويتماقرع اسماعهم بت القول بخلاف

ما ألفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم الى التامل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولئن أخرنا عنهم العذاب) المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى قوله تعالى فان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون (الى أمة معدودة) الى طائفة من الايام قليلة لان ما يحصره العد قليلة (ليقولن ما يحبسه) أى أى شئ يمنعه من المجئ فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولون بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزؤن ومرادهم انكار المجئ والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه (ألا يوم يأتيهم) ذلك (ليس مصروفا) محبوسا (عنهم) على معنى أنه لا يرفعه رافع أبدا ان اريد به عذاب الآخرة أولا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز فى غيره توسعا وبانه قد يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فاما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها

النعمة يؤوسا وعند حصولها يكون كفورا (وأما القسم الثانى) وهو أن ينقل الانسان من المكروه الى المحبوب والمحنة الى النعمة فههنا الكافر يكون فرحا فخورا أما قوة الفرح فلان منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيويه وهو منكر للسعادات الاخروية الروحانية فاذا وجد الدنيا فكانه قد فاز بغاية السعادات فلاجرم يعظم فرحه بها وأما كونه فخورا فلانه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به فحاصل الكلام انه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين ثم لما قرر ذلك قال الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والمراد منه ضد ما تقدم فقوله الا الذين صبروا المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين وقوله وعملوا الصالحات المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين ثم بين حالهم فقال أولئك لهم مغفرة وأجر كبير فجمع لهم بين هذين المطلوبين (أحدهما) زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله لهم مغفرة (والثانى) الفوز بالثواب وهو المراد من قوله وأجر كبير ومن وقف على هذا التفصيل الذى ذكرناه علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضا معجز بحسب معانيه * قوله تعالى (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شئ وكيل) اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار والله تعالى بين أن قلب الرسول ضاق بسببه ثم انه تعالى قواه وأيده بالاكرام والتأييد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية واختلفوا فى المراد بقوله تارك بعض ما يوحى اليك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك وقال الحسن طلبوا منه لا يقول ان الساعة آتية وقال بعضهم المراد نسبتهم الى الجهل والتقليد والاصرار على الباطل (المسئلة الثانية) أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون فى الوحى والتنزيل وأن يترك بعض ما يوحى اليه لان تجويزه يؤدى الى الشك فى كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح فى النبوة وأيضا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فاذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك شيئا آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه (الاول) لا يمتنع أن يكون فى معلوم الله تعالى أنه انما يترك التقصير فى أداء الوحى والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى أمثال هذه التهديدات البليغة (الثانى) انهم كانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقى اليهم

قال ابو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر * فيأبى فما يزداد الا لجاجة * وكنت أبيا في الخنا لست أقدم * (وحاق بهم) أى أحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ما ورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنهما بالماضى وارد ﴿٦٢﴾ على عادة الله تعالى فى اخباره لانهما فى تحققهما وتيقنهما بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها منه) أى سلبناه اياها وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (أنه ليؤس) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به (كفور) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة أمثاله فى العاجل وايصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما

﴿ المراد ﴾

ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه الله تعالى لاداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات الى استهزائهم والغرض منه التنبيه على أنه ان أدى ذلك الوحى وقع فى سخريتهم وسفاهتهم وان لم يؤد ذلك الوحى اليهم وقع فى ترك وحى الله تعالى وفى ايقاع الخيانة فيه فاذا لابد من تحمل احد الضررين وتحمل ضرر سفاهتهم أسهل من تحمل ايقاع الخيانة فى وحى الله تعالى والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفى الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر فى جانب الترك أعظم وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف فالمقصود من ذكر هذا الكلام ما ذكرناه فان قيل قوله فلعلك كلمة شك فما الفائدة فيها قلنا المراد منها الزجر والعرب تقول للرجل اذا أرادوا ابعاده عن أمر لعلك تقدر أن تفعل كذا مع أنه لا شك فيه ويقول لولده لو أمره لعلك تقصر فيما أمرتك به ويريد توكيد الامر فمعناه لا تترك وأما قوله وضائق به صدرك فالضائق بمعنى الضيق قال الواحدى الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا ومثله قولك زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين فاذا أردت الحدوث قلت سائد وجائد والمعنى ضائق صدرك لاجل أن يقولوا لولا أنزل عليه فان قيل الكنز كيف ينزل قلنا المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم فكان القوم قالوا ان كنت صادقا فى أنك رسول الاله الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وانك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ما تستغنى به وتغنى أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وان كنت صادقا فهلا أنزل الله معك ملكا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة فى أمرك فلما لم يفعل الهك ذلك فأنت غير صادق فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على ايجاد هذه الاشياء والذى أرسله هو القادر على ذلك فان شاء فعل وان شاء لم يفعل ولا اعتراض لاحد عليه فى فعله وفى حكمه ومعنى وكيل حفيظ أى يحفظ عليهم أعمالهم أى يجازيهم بها ونظير هذه الآية قوله تعالى تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا وقوله وقالوا لن نؤمن لك الى قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا * قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) اعلم أن القوم لما طلبوا منه المعجز قال معجزى هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغيا وجهلا ثم قرر كونه معجزا بان تحداهم بالمعارضة وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم فى سورة البقرة وفى سورة يونس وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله افتراه عائد الى ما سبق من قوله يوحى اليك أى ان قالوا ان هذا الذى يوحى اليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى أمثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضا أن يكون

نالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية
الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى تسوءنى
وان تعترينى بعد أمثالها كما هو شان أولئك الاشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور و ينغص العيش (انه لفرح)
بطر وأشر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى

الآيات الاربع موطئة للقسم
وجوابه ساد مسد جواب
الشرط (الا الذين صبروا) على
ما أصابهم من الضراء سابقا
أو لاحقا ايمانا بالله واستسلاما
لقضائه (وعملوا الصالحات)
شكرا على آلائه السالفة
والآنفة واللام فى الانسان
اما لاستغراق الجنس فالاستثناء
متصل أو للعهد فمنقطع
(أولئك) اشارة الى الموصول
باعتبار اتصافه بما فى حيز
الصلة وما فيه من معنى البعد
للايذان بعلو درجتهم و بعد
منزلتهم فى الفضل أى أولئك
الموصوفون بتلك الصفات
الحميدة (لهم مغفرة) عظيمة
لذنوبهم وان جمت (وأجر)
ثواب لاعمالهم الحسنة (كبير)
ووجه تعلق الآيات الثلاث
بما قبلهن من حيث ان اذاقة
النعماء ومساس الضراء فصل
من باب الابتلاء واقع موقع
التفصيل من الاجمال الواقع
فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم
أحسن عملا والمعنى ان كلا من
اذاقة النعماء ونزعها مع كونه
ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر
لا يهتدى (٢) الى سنن الصواب
بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه باحسن عمل الا من الصابرين الصالحين أو من حيث ان انكارهم
بالبعث واستهزاءهم العذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا ما فعلوا لان طبيعة الانسان ٢ قوله لايهتدى الخ ظاهر
العبارة خلو الجملة من رابط يربطها باسم ان لان الضمير المستتر فى يهتدى عائد على الانسان كما لا يخفى فلعل الرابط محذوف
والتقدير لا يهتدى فيه الخ تأمل اه مصححه

المراد هو المجموع لان مجموع السور العشرة شئ واحد (المسئلة الثانية) قال ابن عباس
هذه السورة التى وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء
والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود عليهم السلام وقوله فأتوا
بعشر سور مثله مفتريات اشارة الى السور المتقدمة على هذه السورة وهذا فيه اشكال لان
هذه السورة مكية و بعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية فكيف يمكن أن يكون
المراد من هذه العشر سور التى ما نزلت عند هذا الكلام فالاولى أن يقال التحدى وقع
بمطلق السور التى يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه واعلم ان التحدى بعشر سور لابد
وأن يكون سابقا على التحدى بسورة واحدة وهو مثل أن يقول الرجل لغيره اكتب
عشرة أسطر مثل ما أكتب فاذا ظهر عجزه عنه قال قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله
اذا عرفت هذا فنقول التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة وفى سورة يونس
كما تقدم أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة
البقرة مدنية وأما فى سورة يونس فالاشكال زائل أيضا لان كل واحدة من هاتين
السورتين مكية والدليل الذى ذكرناه يقتضى أن تكون سورة هود متقدمة فى النزول
على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذى ذكرناه (المسئلة الثالثة) اختلف الناس
فى الوجه الذى لاجله كان القرآن معجزا فقال بعضهم هو الفصاحة وقال بعضهم هو
الاسلوب وقال ثالث هو عدم التناقض وقال رابع هو اشتماله على العلوم الكثيرة وقال
خامس هو الصرف وقال سادس هو اشتماله على الاخبار عن الغيوب والمختار عندى
وعند الاكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة واحتجوا على صحة قولهم بهذه الاية لانه
لو كان وجه الاعجاز هو كثرة العلوم أو الاخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله
مفتريات معنى أما اذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لان فصاحة الفصيح تظهر
بالكلام سواء كان الكلام صدقا أو كذبا وايضا لو كان الوجه فى كونه معجزا هو الصرف
لكان دلالة الكلام الركيك النازل فى الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام
العالى فى الفصاحة ثم انه تعالى لما قرر وجه التحدى قال وادعوا من استطعتم من دون
الله ان كنتم صادقين والمراد ان كنتم صادقين فى ادعاء كونه مفترى كما قال أم يقولون افتراه
واعلم أن هذا الكلام يدل على انه لابد فى اثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين وذلك
لانه تعالى أورد فى اثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذه الحجة ولولا أن الدين لا يتم
الا بالدليل لم يكن فى ذكره فائدة ﴿ قوله تعالى (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما انزل
بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) اعلم ان الآية المتقدمة اشتملت على خطابين
(أحدهما) خطاب الرسول وهو قوله قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (والثانى) خطاب
الكفار وهو قوله وادعوا من استطعتم من دون الله فلما أتبعه بقوله فان لم يستجيبوا لكم
احتمل أن يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لتعذرها عليهم واحتمل ان من

مجبولة على ذلك (فلعلك تارك بعض مايوحى اليك) من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عندالله
عزوجل لمن له أذن واعية (وضائق به صدرك) أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة
والمحاجة (أن يقولوا) لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لاتكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة وتماديا
فى العناد على وجه الاقتراح (لولا أنزل عليه كنز) مال خطير مخزون يدل على صدقه (أوجاء معه
ملك) يصدقه قيل قاله عبدالله
بن أمية المخزومى * وروى
عن ابن عباس رضى الله عنهما
أن رؤساء مكة قالوا يامحمد اجعل
لنا جبال مكة ذهبا ان كنت
رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة
ليشهدوا بنبوتك فقال لاأقدر
على ذلك فنزلت فكأنه
عليه الصلاة والسلام لما عاين
اجتراءهم على اقتراح مثل هذه
العظائم غير قانعين بالبينات
الباهرة التى كانت تضطرهم
الى القبول لو كانوا من أرباب
العقول وشاهد ركوبهم
من المكابرة متن كل صعب وذلول
سارعين الى المقابلة بالتكذيب
والاستهزاء وتسميتها سحرا
نزل حاله عليه الصلاة والسلام
بحال من يتوقع منه أن يضيق
صدره بتلاوة تلك الآيات
الساطعة عليهم وتبليغها اليهم
فحمل على الحذر منه بما فى لعل
من الاشفاق فقيل (انما أنت
نذير) ليس عليك الا الانذار
بما أوحى اليك غير مبال بما صدر
عنهم من الرد والقبول (والله
على كل شئ وكيل) يحفظ
أحوالك وأحوالهم فتوكل
عليه فى جميع أمورك فانه فاعل
بهم مايليق بحالهم والاقتصار
على النذير فى أقصى غاية من اصابة المحز (أم يقولون افتراه) اضراب بام المنقطعة عن ذكر ترك

* الاصول *

اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عندالله عزوجل
وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم ومافيها من معنى الهمزة للتوبيخ
والانكار والتعجب والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم

يدعونه من دون الله لم يستجيبوا فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين فبعضهم قال هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين والمراد ان الكفار ان لم يستجيبوا لكم فى الاتيان بالمعارضة فاعلموا انما أنزل بعلم الله والمعنى فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا وثبات قدم على أنه منزل من عندالله ومعنى قوله فهل أنتم مسلمون أى فهل أنتم مخلصون ومنهم من قال فيه اضمار والتقدير فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا انما أنزل بعلم الله والقول الثانى ان هذا خطاب مع الكفار والمعنى ان الذين تدعونهم من دون الله اذا لم يستجيبوا لكم فى الاعانة على المعارضة فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن انما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم والقائلون بهذا القول قالوا هذا أولى من القول الاول لانكم فى القول الاول احتجتم الى أن حملتم قوله فاعلموا على الامر بالثبات أو على اضمار القول وعلى هذا الاحتمال لاحاجة فيه الى اضمار فكان هذا أولى وأيضا فعود الضمير الى أقرب المذكورين واجب وأقرب المذكورين فى هذه الآية هو هذا الاحتمال الثانى وأيضا ان الخطاب الاول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله قل فأتوا بعشر سور والخطاب الثانى كان مع جماعة الكفار بقوله وادعوا من استطعتم من دون الله وقوله فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذى قلناه أولى بقى فى الآية سؤالات (السؤال الاول) ما الشئ الذى لم يستجيبوا فيه (الجواب) المعنى فان لم يستجيبوا لكم فى معارضة القرآن وقال بعضهم فان لم يستجيبوا لكم فى جملة الايمان وهو بعيد (السؤال الثانى) من المشار اليه بقوله لكم والجواب ان حملنا قوله فان لم يستجيبوا لكم على المؤمنين فذلك ظاهر وان حملناه على الرسول فعنه جوابان (الاول) المراد فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لان الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم (والثانى) يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم (السؤال الثالث) أى تعلق بين الشرط المذكور فى هذه الآية وبين مافيها من الجزاء (الجواب) أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى فقال لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ثبت انه من عندالله فقوله انما أنزل بعلم الله كناية عن كونه من عندالله ومن قبله كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمى (السؤال الرابع) أى تعلق لقوله وأن لا اله الا هو بعجزهم عن المعارضة والجواب فيه من وجوه (الاول) أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالاصنام فى تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر انها لاتنفع ولاتضر فى شئ من المطالب البتة ومتى كان كذلك فقد بطل القول باثبات كونهم آلهة فصار عجز القوم عن المعارضة بعد الاستعانة بالاصنام مبطلا لالهية الاصنام ودليلا على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان قوله وأن لا اله الا هو اشارة الى ما ظهر من فساد القول بالهية الاصنام (الثانى) انه ثبت فى علم

الاصول ان القول بنفى الشريك عن الله من المسائل التى يمكن اثباتها بقول الرسول عليه السلام وعلى هذا فكأنه قيل لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقا وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة ثم انه كان يخبر عن أنه لا اله الا الله فلما ثبت كونه محقا فى دعوى النبوة ثبت قوله أن لا اله الا هو (الثالث) ان ذكر قوله وان لا اله الا هو جار مجرى التهديد كأنه قيل لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقا فى دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا اله الا الله فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الاصرار على الكفر واقبلوا الاسلام ونظيره قوله تعالى فى سورة البقرة عند ذكر آية التحدى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وأما قوله فهل أنتم مسلمون فان قلنا انه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الاخلاص وان قلنا انه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى أصل الاسلام

* قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون)

اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا صلى الله عليه وسلم فى أكثر الاحوال فكانوا يظهرون من أنفسهم ان محمدا مبطل ونحن محقون وانما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وابطال الباطل وكانوا كاذبين فيه بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى ونظير هذه الآية قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وفى الآية مسائل

(المسئلة الاولى) اعلم ان فى الآية قولين (الاول) انها مختصة بالكفار لان قوله من كان يريد الحياة الدنيا يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق لان كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها الا ان آخر الآية يدل على ان المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر لان قوله تعالى أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون لا يليق الا بالكفار فصار تقدير الآية من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط أى تكون ارادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالبا لسعادات الآخرة كان حكمه كذا وكذا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه فمنهم من قال المراد منهم منكرو البعث فانهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون الا فى سعادات الدنيا وهذا قول الاصم وكلامه ظاهر (والقول الثانى) ان الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها (والقول الثالث) ان المراد اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس (والقول الرابع) وهو الذى اختاره القاضى ان المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها وعمل الخير قسمان العبادات وايصال المنفعة الى

والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله (قل) ان كان الامر كما تقولون (فاتوا) أنتم أيضا (بعشر سور مثله) فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للايماء الى أن وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شئ واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة * ٦٥ * الاعجاز فكأن الجميع واحد (مفتريات) صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف اذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شئ فى مقام التحدى وانما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولانه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلقات من عند أنفسكم ان صح أنى اختلقته من عندى فانكم أقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادى ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والايام وزاولتم أساليب النظم والنثر (وادعوا) للاستظهار فى المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ما تأتون وما تذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها (من دون الله) متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى (ان كنتم صادقين) فى أنى افتريته فان ذلك يستلزم امكان * ٩ * خا الاتيان بمثله وهو أيضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء الى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال

*وان شئت حرمت النساء سواكم * أوله وللمؤمنين لانهم أتباع له عليه الصلاة والسلام فى الامر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وارشاد الى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الايمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله عزوجل (فاعلموا) اى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم ﴿ ٦٦ ﴾ عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كأن ماعداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم (أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) المخصوص به بحيث لا يحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب (وأن لا اله الا هو) اى واعلموا أيضا أن لا شريك له فى الالوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد (فهل أنتم مسلمون) اى مخلصون فى الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الامر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم اى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجارون فى مهماتكم وملماتكم الى ﴿السعادات﴾ المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الامر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث انه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم

الحيوان ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور واجراء الانهار فهذه الاشياء اذا أتى بها الكافر لاجل الثناء فى الدنيا فان بسببها تصل الخيرات والمنافع الى المحتاجين فكلها تكون من أعمال الخير فلا جرم هذه الاعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم وأما العبادات فهى انما تكون طاعات بنيات مخصوصة فاذا لم يؤت بتلك النية وانما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات واذا عرفت هذا فنقول قوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر (القول الثانى) وهو أن نجرى الآية على ظاهرها فى العموم ونقول انه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته وهذا القول مشكل لان قوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لا يليق بالمؤمن الا اذا قلنا المراد أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار بسبب هذه الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة المقرونة بالرياء ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخبارا كثيرة فى هذا الباب روى أن الرسول عليه السلام قال تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن قال عليه الصلاة والسلام واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن وقال عليه الصلاة والسلام أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس ان فيه خيرا ولا خير فيه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له ما عملت فيه فيقول يارب قمت به اناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول وصلت الرحم وتصدقت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل فى سبيل الله فيقول قاتلت فى الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جرىء وقد قيل ذلك قال أبو هريرة رضى الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى وقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروى أن أبا هريرة رضى الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوى فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها (المسئلة الثانية) المراد من توفية أجور تلك الاعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب فانه يصل اليهم حال كونهم فى دار الدنيا فاذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الاعمال أثر من آثار الخيرات بل ليس لهم منها الا النار واعلم أن العقل يدل عليه قطعا وذلك لان من أتى بالاعمال لاجل طلب الثناء فى الدنيا ولاجل الرياء فذلك لاجل انه غلب على قلبه حب الدنيا ولم يحصل فى قلبه حب الآخرة اذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من

واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند التجائكم اليهم بعدما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت
بكم العلل أومن حيث ان من يستمدون بهم أقوى منهم فى اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك
قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الالوهية وأحكامها
فهل أنتم داخلون فى الاسلام اذلم يبق بعد شائبة ﴿ ٦٧ ﴾ شبهة فى حقيته وفى بطلان ما كنتم فيه من الشرك
فيدخل فيه الاذعان لكون
القرآن من عند الله تعالى
دخولا أوليا أو منقادون
للحق الذى هو كون القرآن
من عند الله تعالى وتاركون
لما كنتم فيه من المكابرة والعناد
وفى هذا الاستفهام ايجاب
بليغ لما فيه من معنى الطلب
والتنبيه على قيام الموجب
وزوال العذر واقناط من أن
يجيرهم آلهتهم من بأس الله
عز سلطانه هذا والاول أنسب
لما سلف من قوله تعالى
وضائق به صدرك ولما سيأتى
من قوله تعالى فلا تك فى
مرية منه وأشد ارتباطا بما
يعقبه كما ستحيط به خبرا (من
كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها)
اى ما يزينها ويحسنها من الصحة
والامن والسعة فى الرزق
وكثرة الاولاد والرياسة وغير
ذلك والمراد بالارادة ما يحصل
عند مباشرة الاعمال لا مجرد
الارادة القلبية لقوله تعالى
(نوف اليهم أعمالهم فيها)
وادخال كان عليها للدلالة
على استمرارها منهم بحيث
لا يكادون يريدون الآخرة
أصلا وليس المراد بأعمالهم
أعمال كلهم فانه لا يجد كل
متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان
يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذى يترتب عليه الامور المذكورة بطريق الاجر والجزاء
من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة وقرئ يوف على الاسناد
الى الله عزوجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرئ نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله

السعادات لامتنع أن يأتى بالخيرات لاجل الدنيا وينسى أمر الآخرة فثبت ان الآتى
باعمال البر لاجل الدنيا لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن
كان كذلك فاذا مات فانه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزا عن وجدانها غير قادر على
تحصيلها ومن أحب شيأ ثم حيل بينه وبين المطلوب فانه لابد وأن تشتعل فى قلبه نيران
الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلى أن كل من أتى بعمل من الاعمال لطلب الاحوال
الدنيوية فانه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ثم اذا مات فانه لا يحصل له
منه الا النار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الاثر * قوله تعالى
(أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك
يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك
ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير أفمن كان
على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار الا انه حذف
الجواب لظهوره ومثله فى القرآن كثير كقوله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان
الله يضل من يشاء وقوله أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وقوله قل هل يستوى
الذين يعلمون والذين لا يعلمون واعلم ان أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل
واحد منها مجمل (فالاول) ان هذا الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو
(والثانى) انه ما المراد بهذه البينة (والثالث) ان المراد بقوله يتلوه القرآن أو كونه حاصلا
عقيب غيره (والرابع) ان هذا الشاهد ما هو فهذه الالفاظ الاربعة مجملة فلهذا كثر
اختلاف المفسرين فى هذه الآية (أما الاول) وهو أن هذا الذى وصفه الله تعالى بانه
على بينة من ربه من هو فقيل المراد به النبى عليه الصلاة والسلام وقيل المراد به من آمن
من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره وهو الاظهر لقوله تعالى فى آخر الآية أولئك
يؤمنون به وهذا صيغة جمع فلا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة
هو البيان والبرهان الذى عرف به صحة الدين الحق والضمير فى يتلوه يرجع الى معنى البينة
وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه اى من الله ومن قبله كتاب موسى
اى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجئ القرآن كتاب موسى واعلم ان كون كتاب موسى
تابعا للقرآن ليس فى الوجود بل فى دلالته على هذا المطلوب واماما نصب على الحال
فالحاصل أنه يقول اجتمع فى تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة (أولها) دلالة البينات
العقلية على صحته (وثانيها) شهادة القرآن بصحته (وثالثها) شهادة التوراة بصحته
فعند اجتماع هذه الثلاثة لا يبقى فى صحته شك ولا ارتياب فهذا القول أحسن الاقاويل
فى هذه الآية وأقربها الى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر (فالقول الاول) ان الذى
وصفه الله تعالى بانه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هو القرآن والمراد
بقوله يتلوه هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا فى تفسير الشاهد وجوها

وان أتاه خليل يوم مسغبة * يقول لاغائب مالى ولاحرم (وهم فيها) اى فى الحياة الدنيا (لايبخسون) اى لاينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء الامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الاعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لاينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا كليا مطردا اولايحرمونها حرمانا كليا وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال اى أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس (الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار) لان هممهم كانت مصروفة الى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئاً آخر فلاجرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد (وحبط ما صنعوا فيها) اى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لوكانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من أعمال البر اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص (وباطل) اى فى نفسه (ما كانوا يعملون) فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولاجل أن ﴿ ثم ﴾ الاول من شأنه استتباع الثواب والاجر وأن عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وان الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالاول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لاطائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة

(أحدها) انه جبريل عليه السلام والمعنى أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام (وثانيها) ان ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ورواية عن محمد بن الحنفية عن على رضى الله عنهما قال قلت لابى أنت التالى قال وما معنى التالى قلت قوله ويتلوه شاهد منه قال وددت أنى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الانسان انما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لاجرم جعل اللسان تاليا على سبيل المجاز كما يقال عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق (وثالثها) ان المراد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه والمعنى انه يتلو تلك البينة وقوله منه اى هذا الشاهد من محمد وبعض منه والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليه السلام (ورابعها) أن لايكون المراد بقوله ويتلوه القرآن بل حصول هذا الشاهد عقيب تلك البينة وعلى هذا الوجه قالوا ان المراد ان صورة النبى عليه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه لان من نظر اليه بعقله علم انه ليس بمجنون ولا كاهن ولا ساحر ولا كذاب والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الاحوال متعلقة بذات النبى صلى الله عليه وسلم (القول الثانى) ان الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة القرآن ويتلوه اى ويتلو الكتاب الذى هو الحجة يعنى ويعقبه شاهد من الله تعالى وعلى هذا القول اختلفوا فى ذلك الشاهد فقال بعضهم انه محمد عليه السلام وقال آخرون بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعا على وجه يعرف كل من نظر فيه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لايقدر البشر على الاتيان بمثله وقوله شاهد منه اى من تلك البينة لان أحوال القرآن وصفاته من القرآت متعلقة به (وثالثها) قال الفراء ويتلوه شاهد منه يعنى الانجيل يتلوا القرآن وان كان قد أنزل قبله والمعنى انه يتلوه فى التصديق وتقريره أنه تعالى ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الانجيل وأمر بالايمان به واعلم أن هذين القولين وان كانا محتملين الا أن القول الاول أقوى وأتم واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه اماما ورحمة ومعنى كونه اماما انه كان مقتدى العالمين واماما لهم يرجعون اليه فى معرفة الدين والشرائع وأما كونه رحمة فلانه يهدى الى الحق فى الدنيا والدين وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب فلما كان سببا للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه اطلاقا لاسم المسبب على السبب ثم قال تعالى أولئك يؤمنون به والمعنى ان الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم فى صحة هذا الدين يؤمنون واعلم أن المطالب على قسمين منها ما يعلم صحتها بالبديهة ومنها ما يحتاج فى تحصيل العلم بها الى طلب واجتهاد وهذا القسم الثانى على قسمين لان طريق تحصيل المعارف اما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل واما الاستفادة من الوحى والالهام فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع اليهما فى تعريف المجهولات فاذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية فى القوة والوثوق

كان فى الثانى دون الاول ايماء الى أن صدور أعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الاعمال
التى هى من مقدمات مطالبهم الدنية وقرئ و بطل على الفعل اى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك ومايستتبعه من الحظوظ
الدنيوية مما لاطائل تحته أوانقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرئ و باطلا ما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو فى معنى
المصدر كقوله ولاخارجا من فى زور كلام وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ
اليهود والنصارى ان أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك انما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لابد من تقييد قوله تعالى ليس لهم الا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية الا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عزوعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما و يقينا بأن القرآن منزل بعلم الله و بأن لاقدرة لغيره على شئ أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون
من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شئ أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شؤنهم الموهمة لكونهم على شئ
فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية و بيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه واقد بين
ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل (أفمن كان على بينة من ربه) اى برهان
نير عظيم الشان يدل على حقية مارغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو

ثم ان فى أنبياء الله تعالى كثرة فاذا توافقت كلمات الانبياء على صحته وكان البرهان اليقينى قائما على صحته فهذه المرتبة قد بلغت فى القوة الى حيث لا يمكن الزيادة عليها فقوله أفمن كان على بينة من ربه المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية وقوله و يتلوه شاهد منه اشارة الى الوحى الذى حصل لمحمد عليه السلام وقوله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة اشارة الى الوحى الذى حصل لموسى عليه السلام وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين فى القوة والظهور والجلاء الى حيث لا يمكن الزيادة عليه ثم قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده والمراد من الاحزاب أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس روى سعيد بن جبير عن أبى موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لايسمع بى يهودى ولانصرانى فلا يؤمن بى الاكان من أهل النار قال أبو موسى فقلت فى نفسى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وقال بعضهم لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده ثم قال تعالى فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك وفيه قولان (الاول) فلا تك فى مرية من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله تعالى فكان متعلقا بما تقدم من قوله تعالى أم يقولون افتراه (الثانى) فلا تك فى مرية من ان موعد الكافر النار وقرئ مرية بضم الميم ثم قال ولكن أكثر الناس لا يؤمنون والتقدير لما ظهر الحق ظهورا فى الغاية فكن أنت متابعا له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا والاقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن * قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم و يقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون)
اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم فى تحصيلها وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الى آخر الآية ومنها انهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم و يقدحون فى معجزاته وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله أفمن كان على بينة من ربه ومنها انهم كانوا يزعمون فى الاصنام أنها شفعاؤهم عند الله وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية وذلك لان هذا الكلام افتراء على الله تعالى فلما بين وعيد المفترين على الله فقد دخل فيه هذا الكلام واعلم أن قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا انما يورد فى معرض المبالغة وفيه دلالة على ان الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم ثم انه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله أولئك يعرضون على ربهم وما وصفهم بذلك لانهم مختصون بذلك العرض لان العرض عام فى كل العباد كما قال وعرضوا على ربك صفا وانما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الاشهاد عند عرضهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فحصل لهم من الخزى والنكال

القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليها فى قوله تعالى (ويتلوه) اى يتبعه (شاهد) يشهد بكونه من عندالله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ماوقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عندالله عزوجل غير أنه على التقدير الاول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله ﴿ ٧٠ ﴾ بشهادة الاعجاز (منه) اى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن الوارد من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الجيدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى فاعلموا فهل أنتم دخولا أوليا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبى صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والاولى هو الاول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من عندالله تابعا له بحيث لايفارقه فى مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله عزقائلا (ومن قبله كتاب موسى) على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم ﴿ قوله ﴾

مالامزيد عليه وفيه سؤالات (السؤال الاول) اذا لم يجز أن يكون الله تعالى فى مكان فكيف قال يعرضون على ربهم (والجواب) أنهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال ويجوز أيضا ان يكون ذلك عرضا على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والانبياء والمؤمنين (السؤال الثانى) من الاشهاد الذين أضيف اليهم هذا القول (الجواب) قال مجاهد هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا وقال قتادة ومقاتل الاشهاد الناس كما يقال على رؤس الاشهاد يعنى على رؤس الناس وقال الآخرون هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة (السؤال الثالث) الاشهاد جمع فما واحده والجواب يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب وناصر وأنصار ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف قال أبو على الفارسى وهذا كأنه أرجح لان ماجاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل كقوله ويكون الرسول عليكم شهيدا وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ثم لما أخبر عن حالهم فى عذاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال فقال ألا لعنة الله على الظالمين وبين أنهم فى الحال لملعونون من عندالله ثم ذكر من صفاتهم انهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا يعنى انهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لايقال فى العاصى يبغى عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم قال وهم بالآخرة هم كافرون قال الزجاج كلمة هم كررت على جهة التوكيد لثباتهم فى الكفر * قوله عزوجل (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لاجرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون) اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم (الصفة الاولى) كونهم مفترين على الله وهى قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا (والصفة الثانية) انهم يعرضون على الله فى موقف الذل والهوان والخزى والنكال وهى قوله أولئك يعرضون على ربهم (والصفة الثالثة) حصول الخزى والنكال والفضيحة العظيمة وهى قوله ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم (والصفة الرابعة) كونهم ملعونين من عندالله وهى قوله ألا لعنة الله على الظالمين (والصفة الخامسة) كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق وهى قوله الذين يصدون عن سبيل الله (الصفة السادسة) سعيهم فى القاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة وهى قوله ويبغونها عوجا (الصفة السابعة) كونهم كافرين وهى قوله وهم بالآخرة هم كافرون (الصفة الثامنة) كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله وهى

(اماما) اى مؤتما به فى الدين ومقتدى وفى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلاوة الكتاب مالا يخفى من تفخيم شان المتلو (ورحمة) اى نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم الى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب (أولئك) الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهى الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء ﴿٧١﴾ الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بانهم (يؤمنون به) اى يصدقون حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته (ومن يكفر به) اى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة (من الاحزاب) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) يردها لامحالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم فى الآخرة الا النار وفى جعلها موعدا اشعار بأن له فيها مالا يوصف من أفانين العذاب (فلا تك فى مرية منه) اى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به (انه الحق من ربك) الذى يربيك فى دينك ودنياك (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك اما لقصور أنظارهم واختلال افكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعدد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى أفاتخذتم من دونه أولياء اى أبعد أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه اولياء

قوله أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض قال الواحدى معنى الاعجاز المنع من تحصيل
المراد يقال أعجزنى فلان أى منعنى عن مرادى ومعنى معجزين فى الارض أى لا يمكنهم
أن يهربوا من عذابنا فان هرب العبد من عذاب الله محال لانه سبحانه وتعالى قادر على
جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف (الصفة التاسعة)
انهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم والمراد منه الرد عليهم فى وصفهم الاصنام
بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود ان قوله أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض دل على
انهم لا قدرة لهم على الفرار وقوله وما كان لهم من دون الله من أولياء هو أن أحدا
لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب فجمع تعالى بين ما يرجع اليهم وبين ما يرجع الى
غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ثم اختلفوا فقال
قوم المراد ان عدم نزول العذاب ليس لاجل انهم قدروا على منع الله من انزال العذاب
ولا لاجل ان لهم ناصرا يمنع ذلك العذاب عنهم بل انما حصل ذلك الامهال لانه تعالى امهلهم
كى يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فاذا أبوا الا الثبات عليه فلا بد من مضاعفة العذاب
فى الآخرة وقال بعضهم بل المراد لم يكونوا معجزين لله عما يريد انزاله عليهم من العذاب
فى الآخرة أو فى الدنيا ولا يجدون وليا ينصرهم ويدفع ذلك عنهم (والصفة العاشرة) قوله
تعالى يضاعف لهم العذاب قيل سبب تضعيف العذاب فى حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث
وبالنشور فكفرهم بالمبدا والمعاد صار سببا لتضعيف العذاب والاصوب أن يقال انهم مع
ضلالهم الشديد سعوا فى الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق فلهذا المعنى حصل هذا
التضعيف عليهم (الصفة الحادية عشرة) قوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا
يبصرون والمراد ماهم عليه فى الدنيا من صمم القلب وعمى النفس واحتج أصحابنا بهذه
الآية على أنه تعالى قد يخلق فى المكلف ما يمنعه الايمان روى عن ابن عباس رضى الله
تعالى عنهما أنه قال انه تعالى منع الكافر من الايمان فى الدنيا وفى الآخرة أما فى الدنيا
ففى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وأما فى الآخرة فهو قوله
يدعون الى السجود فلا يستطيعون وحاصل الكلام فى هذا الاستدلال انه تعالى أخبر
عنهم انهم لا يستطيعون السمع فاما أن يكون المراد انهم ما كانوا يستطيعون سمع
الاصوات والحروف واما أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله
تعالى والقول الاول باطل لان البديهة دلت على انهم كانوا يسمعون الاصوات والحروف
فوجب حمل اللفظ على الثانى أجاب الجبائى عنه بان السمع اما أن يكون عبارة عن
الحاسة المخصوصة أو عن معنى يخلقه الله تعالى فى صماخ الاذن وكلاهما لا يقدر العبد
عليه لانه لو اجتهد فى أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه واذا ثبت هذا كان اثبات
الاستطاعة فيه محالا واذا كان اثباتها محالا كان نفى الاستطاعة عنه هو الحق فثبت ان
ظاهر الآية لا يقدح فى قولنا ثم قال المراد بقوله ما كانوا يستطيعون السمع اهما لهم له

وقوله تعالى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان نسب اليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعنى أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وان كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها وافادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ما سيتلى من قوله عز وجل لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (أولئك) الموصوفون بالظلم البالغ الذى هو الافتراء على الله تعالى وبهذه الاشارة حصلت الغنية عن اسناد العرض الى أعمالهم واكتفى باسناده اليهم حيث قيل (يعرضون) لان عرضهم من تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض لاعمالهم على وجه أبلغ فان عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (على ربهم) الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل (ويقول الاشهاد) عند العرض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى ويقول الخ وتوطئة لما اعقبه من قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الاول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك

ونفورهم عنه كما يقول القائل هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه وهذا مما يمجه سمعى وذكر غير الجبائى عذرا آخر فقال انه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الاصنام ثم بين نفى كونهم أولياء بقوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف يصلحون للولاية والجواب أما حمل الآية على أنه لا قدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل لان هذه الآية وردت فى معرض الوعيد فلا بد وأن يكون ذلك معنى مختصا بهم والمعنى الذى قالوه حاصل فى الملائكة والانبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه وأما قوله ان ذلك محمول على انهم كانوا يستثقلون سماع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وابصار صورته فالجواب انه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر وأيضا ان حصول ذلك الاستثقال اما أن يمنع من الفهم والوصول الى الغرض أو لم يمنع فان منع فهو المقصود وان لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سببا أجنبيا عن المعانى المعتبرة فى الفهم والادراك ولا تختلف أحوال القلب فى العلم والمعرفة بسببه فكيف يمكن جعله ذما لهم فى هذا المعرض وأيضا قد بينا مرارا كثيرة فى هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفا عن قبول الدين الحق وبين فيه انه حصل حصولا على سبيل اللزوم بحيث لا يزول البتة فى ذلك الوقت كان المكلف فى ذلك الوقت ممنوعا عن الايمان وحينئذ يحصل المطلوب وأما قوله فانا نجعل هذه الصفة من صفة الاوثان فبعيد لانه تعالى قال يضاعف لهم العذاب ثم قال ما كانوا يستطيعون السمع فوجب أن يكون الضمير فى هذه الآية المتأخرة عائدا الى عين ما عاد اليه الضمير المذكور فى هذه الآية الاولى وأما قوله وما كانوا يبصرون فقيل المراد منه البصيرة وقيل المراد منه انهم عدلوا عن ابصار ما يكون حجة لهم (الصفة الثانية عشرة) قوله أولئك الذين خسروا أنفسهم ومعناه انهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران (الصفة الثالثة عشرة) قوله وضل عنهم ما كانوا يفترون والمعنى انهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا لانهم أعطوا الشريف ورضوا بأخذ الخسيس وهذا عين الخسران فى الدنيا ثم فى الآخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر وهو المراد بقوله وضل عنهم ما كانوا يفترون (الصفة الرابعة عشرة) قوله لا جرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون وتقريره ما تقدم وهو انه لما أعطى الشريف الرفيع ورضى بالخسيس الوضيع فقد خسر فى التجارة ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لا يبقى بل لا بد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة الى النهاية فى صفة الخسارة فلهذا قال لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وقوله لا جرم قال الفراء انها بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وأما النحويون فلهم فيه وجوه (الاول) لا حرف نفى وجرم أى قطع فاذا قلنا لا جرم معناه انه لا قطع قاطع عنهم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون (الثانى) قال الزجاج ان كلمة لا نفى لما ظنوا انه

من الخزي على رؤس الاشهاد (الذين يصدون) أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد (عن سبيل الله) عن دينه القويم (ويبغونها عوجا) انحرافا أى يصفونها بذلك وهي أبعد شئ منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم انه ليس من عند الله (وهم بالآخرة هم كافرون) أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها الا انهم يؤمنون بها او يزعمون أن لها ﴿ ٧٣ ﴾ سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كان كفر غيرهم ليس بشئ عند كفرهم (أولئك) مع ماوصف من أحوالهم الموجبة للتدمير (لم يكونوا معجزين) الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك (في الارض) مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من أولياء) ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لاحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية (يضاعف لهم العذاب) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد (ما كانوا يستطيعون السمع) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لا يقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم في عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه في عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ في نفي الاول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى في الثاني ﴿ ١٠ ﴾ خا بنفي الابصار فقال تعالى (وما كانوا يبصرون) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة في الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفي من ولاية الآلهة فان ما لا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الامر سوء العاقبة (أولئك) المنعوتون بما ذكر من القبائح (الذين خسروا أنفسهم) باشتراء عبادة الآلهة

ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة وذكرنا جرم بمعنى كسب في تفسير قوله تعالى لا يجرمنكم شنآن قوم قال الازهرى وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب (الثالث) قال سيبويه والاخفش لا رد على أهل الكفر كما ذكرنا وجرم معناه حق وصح والتأويل انه حق كفرهم ووقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد حقت الطعنة فزارة أن يغضبوا * قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) اعلم انه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم اتبعه بذكر أحوال المؤمنين والاخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الارض المطمئنة وخبت ذكره أى خفي فقوله أخبت أى دخل في الخبت كما يقال فيمن صار الى نجد أنجد والى تهامة أتهم ومنه المخبت من الناس الذى أخبت الى ربه أى اطمأن اليه ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلنا أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له اذا عرفت هذا فنقول قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع الاعمال الصالحة وقوله وأخبتوا اشارة الى ان هذه الاعمال لا تنفع في الآخرة الا مع الاحوال القلبية ثم ان فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات الى ماسوى الله تعالى أو يقال انما قلوبهم صارت مطمئنة الى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب وأما ان فسرنا الاخبات بالخشوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين من ان يكونوا أتوا بها مع وجود الاخلال والتقصير ثم بين ان من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة ويحصل لهم الخلود في الجنة * قوله تعالى (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون) واعلم انه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا فقيل انه راجع الى من ذكر آخرا من المؤمنين والكافرين من قبل وقال آخرون بل رجع الى قوله أفمن كان على بينة من ربه ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم واعلم ان وجه التشبيه هو انه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس وكما ان للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر وكما ان الجسد اذا كان أعمى أصم بقى متحيرا لا يهتدى الى شئ من المصالح بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورا يهتدى به ولا يسمع صوتا فكذلك الجاهل الضال المضل يكون أعمى وأصم القلب فيبقى في ظلمات الضلالات حائرا تائها ثم قال تعالى أفلا تذكرون منبها على انه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم واذا كان العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب

بعبادة الله عز سلطانه (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من الآلهة أو شفعائها أو خسروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة (لاجرم) فيه ثلاثة أوجه الاول أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق (أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب وما بعده مفعوله وفاعله ما دل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث أن لاجرم بمعنى لابد أى لابد أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وأياما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الايات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه و بين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم و بين أحد من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم و بين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم و بين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال اضدادهم أعنى فريق المؤمنين وما يؤل اليه أمرهم من العواقب الجيدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل (ان الذين آمنوا) أى بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج تحته ما نحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدى الى ذلك فى الانفس والآفاق أو فعلوا الايمان كما فى يعطى ﴿ الشبهتان ﴾ و يمنع (وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الارض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأتهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد (أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون و بعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا

حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل ان يسعى فى ذلك العلاج بقدر الامكان

واعلم أنه قد جرت العادة بأنه تعالى اذا اورد على الكافر انواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى فى مواضع كثيرة وفى هذه السورة ذكر انواعا من القصص (القصة الاولى) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ان لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) اعلم انه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة فى سورة يونس وقد أعادها فى هذه السورة أيضا لما فيها من زوائد الفوائد و بدائع الحكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى أنى بفتح الهمزة والمعنى أرسلنا نوحا بأنى لكم نذير مبين ومعناه ارسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح فى كأن وأما سائر القراء فقرؤا انى بالكسر على معنى قال انى لكم نذير مبين (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ومن المبين كونه مبينا ما اعد الله للمطيعين من الثواب والاولى أن يكون المعنى انه نذير للعصاة من العقاب وانه مبين بمعنى انه بين ذلك الانذار على الطريق الاكمل والبيان الاقوى الاظهر ثم بين تعالى ان ذلك الانذار انما حصل فى النهى عن عبادة غير الله وفى الامر بعبادة الله لان قوله أن لا تعبدوا الا الله استثناء من النفى وهو يوجب نفى غير المستثنى واعلم ان تقدير الآية كأنه تعالى قال ولقد أرسلنا نوحا الى قومه بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين ثم قال أن لا تعبدوا الا الله فقوله أن لا تعبدوا الا الله بدل من قوله انى لكم نذير ثم انه أكد ذلك بقوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم والمعنى انه لما حصل الالم العظيم فى ذلك اليوم أسند ذلك الالم الى اليوم كقولهم نهارك صائم وليلك قائم * قوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) اعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم انهم طعنوا فى نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات (فالشبهة الاولى) انه بشر مثلهم والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين (والشبهة الثانية) كونه ما اتبعه الا الأراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكياس من الناس والاشراف منهم ونظيره قوله تعالى فى سورة الشعراء أنؤمن لك واتبعك الارذلون (والشبهة الثالثة) قوله تعالى وما نرى لكم علينا من فضل والمعنى لا نرى لكم علينا من فضل لا فى العقل ولا فى رعاية المصالح العاجلة ولا فى قوة الجدل فاذا لم نشاهد فضلك علينا فى شئ من هذه الاحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا فى أشرف الدرجات وأعلى المقامات فهذا خلاصة الكلام فى تقرير هذه الشبهات واعلم ان الشبهة الاولى لا تليق الا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الاطلاق أما

فقيل (مثل الفريقين) المذكورين ى حالهما العجيب لان المثل لايطلق الاعلى مافيه غرابة من الاحوال والصفات (كالاعمى والاصم والبصير والسميع) أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وان أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بالاعمى و بالاصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير و بالسمع لكن الادخل فى المبالغة والاقرب الى مايشير اليه لفظ المثل والانسب بماسبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع

و بعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والاصم وفى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قوله من قال الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم * وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه مايلائم الاحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبماذكر فى قوله تعالى ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وانما لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الاعمى اظهر وأشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بماسبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لاجميع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مماذكر وما يؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الاخر فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بان ينتزع من حال الفريق الاول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لاخسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع

الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الانبياء وفى لفظ الآية مسائل (المسئلة الاولى) الملأ الاشراف وفى اشتقاقه وجوه (الاول) انه مأخوذ من قولهم ملئ بكذا اذا كان مطيقاله وقد ملؤا بالامر والسبب فى اطلاق هذا اللفظ عليهم انهم ملؤا بترتيب المهمات وأحسنوا فى تدبيرها (الثانى) أنهم وصفوا بذلك لانهم يتمالؤن أى يتظاهرون عليه (الثالث) وصفوا بذلك لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة (الرابع) وصفوا به لانهم ملؤا العقول الراجحة والآراء الصائبة ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الاولى وهى قولهم مانراك الابشرا مثلنا وهو مثل ماحكى الله تعالى عن بعض العرب انهم قالوا لولا أنزل عليه ملك وهذا جهل لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة لابالصورة والخلقة بل نقول ان الله تعالى لو بعث الى البشر ملكا لكانت الشبهة أقوى فى الطعن عليه فى رسالته لانه يخطر بالبال ان هذه المعجزات التى ظهرت لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته اكمل وقدرته أقوى فلهذه الحكمة مابعث الله الى البشر رسولا الامن البشر ثم حكى الشبهة الثانية وهى قوله ومانراك اتبعك الاالذين هم أراذلنا بادى الرأى والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم وهذا أيضا جهل لان الرفعة فى الدين لاتكون بالحسب والمال والمناصب العالية بل الفقرأهون على الدين من الغنى بل نقول الانبياء مابعثوا الالترك الدنيا والاقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنا فى النبوة والرسالة ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهى قوله ومانرى لكم علينا من فضل وهذا أيضا جهل لان الفضيلة المعتبرة عند الله ليست الابالعلم والعمل فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه بل نظنكم كاذبين وفيه وجهان (الاول) أن يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه والمراد منه تكذيب نوح فى دعوى الرسالة (والثانى) ان يكون هذا خطابا مع الاراذل فنسبوهم الى أنهم كذبوا فى أن آمنوا به واتبعوه (المسئلة الثانية) قال الواحدى الارذل جمع رذل وهو الدون من كل شئ فى منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل والاراذل جمع الارذل كقولهم أكابر مجرميها وقوله عليه الصلاة والسلام أحاسنكم اخلاقا فعلى هذا الاراذل جمع الجمع وقال بعضهم الاصل فيه أن يقال هو أرذل من كذا ثم كثر حتى قالوا هو الارذل فصارت الالف واللام عوضا عن الاضافة وقوله بادى الرأى البادى هو الظاهر من قولك بدا الشئ اذا ظهر ومنه يقال بادية لظهورها وبروزها للناظر واختلفوا فى بادى الرأى وذكروا فيه وجوها (الاول) اتبعوك فى الظاهر وباطنهم بخلافه (والثانى) يجوز أن يكون المراد اتبعوك فى ابتداء حدوث الرأى وما احتاطوا فى ذلك الرأى وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافى (الثالث) انهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا كونهم كذلك بادى الرأى امر ظاهر لكل من يراهم والرأى على هذا المعنى من رأى العين لامن رأى القلب

في مهاوي الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا و ينتزع من حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما في مهماته فيهتدي الى سبيله و ينال مرامه (هل يستويان) يعني الفريقين المذكورين والاستفهام انكاري مذكر لما سبق من انكار المماثلة في قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية (مثلا) أي حالا وصفة وهو تمييز من فاعل ﴿ ٧٦ ﴾ يستويان (أفلا تذكرون) أي أتشكون في عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه أفلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب كما في قوله تعالى أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الانكار في قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربي وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء * ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل في شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذي أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر في تضاعيف ذلك ما له مدخل في تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة ﴿ ولا ﴾ على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع في تحقيق ما ذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ الا الذين هم أراذلنا بادي رأي العين (المسئلة الثالثة) قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائي بادئ بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ بادئ بالهمزة فالمعنى أول الرأي وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أي ظهر و بادي نصب على المصدر كقولك ضربت اول الضرب * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وانتم لها كارهون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما حكى شبهات منكري نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جوابا عن تلك الشبهات (فالشبهة الاولى) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فقال نوح حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة ثم ذكر الطريق الدال على امكانه فقال أرأيتم ان كنت على بينة من ربي من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه ثم انه تعالى آتاني رحمة من عنده والمراد بتلك الرحمة اما النبوة واما المعجزة الدالة على النبوة فعميت عليكم أي صارت مظنة مشتبهة ملتبسة في عقولكم فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون الى معرفتها شئتم أم أبيتم والمراد اني لا أقدر على ذلك البتة وعن قتادة والله لو استطاع نبي الله لألزمها ولكنه لم يقدر عليه وحاصل الكلام انهم لما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل ذكر نوح عليه السلام ان ذلك بسبب ان الحجة عميت عليكم واشتبهت فاما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل لظهر المقصود وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم فعميت عليكم بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله بمعنى ألبست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم أي التبست واشتبهت واعلم ان الشيء اذا بقي مجهولا محضا أشبه المعمى لان العلم نور البصيرة الباطنة والابصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منهما مجازا عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالابصار قال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة وكذلك توصف بالعمى قال تعالى فعميت عليهم الانباء وقال في هذه الآية فعميت عليكم (المسئلة الثالثة) أنلزمكموها فيه ثلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب وأجاز الفراء اسكان الميم الاولى وروى ذلك عن أبي عمرو قال وذلك ان الحركات توالت فسكنت الميم وهي أيضا مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة قال الزجاج جميع النحويين البصريين لا يجيزون اسكان حرف الاعراب الا في ضرورة الشعر وما يروى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه الفراء وروى عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة و يختلسها وهذا هو الحق وانما يجوز الاسكان في الشعر كقول امرئ القيس * فاليوم أشرب غير مستحقب * قوله تعالى (وياقوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجري الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون و ياقوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك

المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريق أحدهما أن ما أمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى أن ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء ﴿٧٧﴾ لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق

هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع وأن المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو أول نبى بعث بعد * قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة قيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (انى لكم نذير) بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لان دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا يرى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام (مبين) أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه (ألا تعبدوا الا الله) أى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بارسلنا

ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهى قولهم لا يتبعك الا الاراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه (الاول) انه عليه الصلاة والسلام قال أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا وانما أجرى على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين واذا كان الامر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال فى ذلك (الثانى) كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم انكم لما نظرتم الى ظواهر الامور وجدتمونى فقيرا وظننتم انى انما اشتغلت بهذه الحرفة لاتوسل بها الى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ فانى لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرا ان أجرى الا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد (والوجه الثالث) فى تقرير هذا الجواب انهم قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا الى قوله وما نرى لكم علينا من فضل فهو عليه السلام بين انه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع فى طلب الدنيا وانما يسعى فى طلب الدين والاعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه فاما قوله وما أنا بطارد الذين آمنوا فهذا كالدليل على ان القوم سألوه طردهم رفعا لانفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء روى ابن جريج انهم قالوا ان أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فانا لا نرضى بمشاركتهم فقال عليه الصلاة والسلام وما أنا بطارد الذين آمنوا وقوله تعالى حكاية عنهم انهم قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لانه كالدليل على انهم كانوا يقولون لو اتبعك أشرف القوم لوافقناهم ثم انه تعالى حكى عنه انه ما طردهم وذكر فى بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أمورا (الاول) انهم ملاقوا ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوها منها انهم قالوا هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بان هذا الامر ينكشف عند لقاء ربهم فى الآخرة ومنها انه جعله علة فى الامتناع من الطرد وأراد انهم ملاقوا ما وعدهم ربهم فان طردتهم استخصمونى فى الآخرة ومنها انه نبه بذلك الامر على انا نجتمع فى الآخرة فاعاقب على طردهم فلا أجد من ينصرنى ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال ولكنى اراكم قوما تجهلون ثم قال بعده و يا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم افلا تذكرون والمعنى ان العقل والشرع تطابقا على انه لابد من تعظيم المؤمن البر التقى ومن اهانة الفاجر الكافر فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم وطردت المؤمن التقى على سبيل الاهانة كنت على ضد أمر الله تعالى وعلى عكس حكمه وكنت فى هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من ايصال الثواب الى المحقين والعقاب الى المبطلين وحينئذ اصير مستوجبا للعقاب العظيم فمن ذا الذى ينصرنى من الله تعالى ومن الذى يخلصنى من عذاب

ولا ناهية اى ارسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذيرا أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من أنى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله ﴿ ٧٨ ﴾ تعالى (انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليل لموجب النهى وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالاليم على الاسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقاتلة ومافى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ماعزى اليه فى سائر السور لمالم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على مانطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الايات عطف على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لاحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى بالفاء التعقيبية فقيل (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الاشراف منهم من قولهم فلان ملىء بكذا أى مطيق له لانهم ملؤا بكفايات الامور أو لانهم ملؤا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الامر لا لان بعض أشرافهم ليسوا بكفرة (ماتراك الا بشرا مثلنا) مرادهم ماأنت الا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولوكان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لانراه وكذا الحال فى قولهم (وماتراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب

الله افلا تذكرون فتعلمون ان ذلك لايصح ثم اكد هذا البيان بوجه ثالث فقال ولا اقول لكم عندى خزائن الله اى كما لا اسألكم فكذلك لا ادعى انى أملك مالا ولا لى غرض فى المال لا أخذا ولا دفعا ولا اعلم الغيب حتى أصل به الى ما أريد لنفسى ولاتباعى ولا أقول انى ملك حتى اتعظم بذلك عليكم بل طريقى الخضوع والتواضع ومن كان هذا شانه وطريقه فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين وانما شانه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين فلما كانت طريقتى توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبا على ثم انه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم وهذا كالدلالة على انهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق فقال انى لا أقول ذلك لانه من باب الغيب والغيب لا يعلمه الا الله فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذبا فيما أخبرت به فانى ان فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسى ومن الظالمين لهم فى وصفهم بانهم لا خير لهم مع ان الله تعالى آتاهم الخير فى الآخرة (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء وقالوا ان الانسان اذا قال أنا لا أدعى كذا وكذا فهذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب أن تكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الانبياء ثم قالوا وكيف لا يكون الامر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا منذ خلقوا الى أن تقوم الساعة وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست الا ثلاثة أشياء (اولها) الاستغناء المطلق وجرت العادة فى الدنيا أن من ملك المال الكثير فانه يوصف بكونه غنيا فقوله ولا أقول لكم عندى خزائن الله اشارة الى أنى لا أدعى الاستغناء المطلق (وثانيها) العلم التام واليه الاشارة بقوله ولا اعلم الغيب (وثالثها) القدرة التامة الكاملة وقد تقرر فى الخواطر أن اكمل المخلوقات فى القدرة والقوة هم الملائكة واليه الاشارة بقوله ولا أقول انى ملك والمقصود من ذكر هذه الامور الثلاثة بيان انه ماحصل عندى من هذه المراتب الثلاثة الا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الانسانية فاما الكمال المطلق فانا لا أدعيه واذا كان الامر كذلك فقد ظهر أن قوله ولا أقول انى ملك يدل على انهم اكمل من البشر وايضا يمكن جعل هذا الكلام جوابا عما ذكروه من الشبهة فانهم طعنوا فى أتباعه بالفقر فقال ولا اقول لكم عندى خزائن الله حتى اجعلهم اغنياء وطعنوا فيهم ايضا بانهم منافقون فقال ولا اعلم الغيب حتى اعرف كيفية باطنهم وانما اجرى الاحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بانهم قد يأتون بافعال لا كما ينبغى فقال ولا اقول انى ملك حتى اكون مبرأ عن جميع الدواعى الشهوانية والبواعث النفسانية (المسئلة الثالثة) احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الانبياء فقالوا ان هذه الآية دلت على ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من اصول المعاصى ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم طرد

﴿ فقراء ﴾

وهو الظاهر فهما المفعول الثاني وتعلق الرأي في الاول بالمثلية لابالبشرية فقط وانما لم يقولوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بان ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل في الامر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتي وتعريضا من أول الامر برأي المتبعين فكان قولهم ومانراك جواب عمايرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم إتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أي اخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر أوجمع أرذل كاكالب وأكالب وكالب يعنون أنه لاعبرة باتباعهم لك اذليس لهم رزانة عقل ولا اصالة رأي وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي أي ظاهره من غير تعمق من البدو أو في أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ماقبلها وقد قرأه ابو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أي وقت حدوث بادي الرأي والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولي الالباب الراجحة لفقرهم فانهم لمالم يعلموا الاظاهر الحياة الدنيا كان الاشرف عندهم الاكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لايزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم انما هو نعيم الاخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك (ومانرى لكم) اى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين (علينا من فضل) يعنون ان اتباعهم لك لايدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم انهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولانرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا (بل نظنكم كاذبين) جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة اواياك في دعوى النبوة واياهم في تصديقك واقتصارهم على الظن احتراز منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف

فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وذلك يدل على اقدام محمد صلى الله عليه وسلم على الذنب والجواب يحمل الطرد المذكور في هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم على التقليل في أوقات معينة لرعاية المصالح (المسئلة الرابعة) احتج الجبائي على انه لاتجوز الشفاعة عند الله في دفع العقاب بقول نوح عليه السلام من ينصرني من الله ان طردتهم معناه ان كان هذا الطرد محرما فمن ذا الذي ينصرني من الله أي من الذي يخلصني من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت في حق نوح عليه السلام أيضا جائزة وحينئذ يبطل قوله من ينصرني من الله واعلم ان هذا الاستدلال يشبه استدلالهم في هذه المسئلة بقوله تعالى واتقوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئا الى قوله ولاهم ينصرون والجواب المذكور هناك هو الجواب عن هذا الكلام * قوله تعالى (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الكفار لما أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين (الاول) أنهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم وذلك الجدال ماكان الا في اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال في تقرير الدلائل وفي ازالة الشبهات حرفة الانبياء وعلى ان التقليد والجهل والاصرار على الباطل حرفة الكفار (والثاني) انهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به فقالوا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ثم انه عليه السلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين والمعنى أن انزال العذاب ليس الي وانما هو خلق الله تعالى فيفعله ان شاء كما شاء واذا أراد انزال العذاب فان أحدا لايعجزه أي لايمنعه منه والمعجز هو الذي يفعل ماعنده انتعذر مراد الغير فيوصف بانه أعجزه فقوله وما أنتم بمعجزين أي لاسبيل لكم الى فعل ماعنده فلا يمتنع على الله تعالى مايشاء من العذاب ان أراد انزاله بكم وقد قيل معناه وما أنتم بمانعين وقيل وما أنتم بمصونين وقيل وما أنتم بسابقين الى الخلاص وهذه الاقوال متقاربة واعلم ان نوحا عليه السلام لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان انصح لكم أي ان كان الله يريد أن يغويكم فانه لاينفعكم نصحي البتة واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد وأنه اذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه قالوا ان نوحا عليه السلام قال ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم والتقدير لاينفعكم نصحي ان كان الله يريد أن يغويكم و يضلكم وهذا صريح

(قال ياقوم أرأيتم) اى اخبرونى وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور (ان كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة و يجوز أن تكون هى البينة نفسها جئ بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وان اريد بها النبوة و بالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد

لارادة كل واحدة منهما اولكون الضمير

فى مذهبنا أما المعتزلة فانهم قالوا ظاهر الآية يدل على ان الله تعالى ان أراد اغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول وهذا مسلم فانا نعرف أن الله تعالى لو أراد اغواء عبد فانه لا ينفعه نصح الناصحين لكن لم قلتم انه تعالى أراد هذا الاغواء فان النزاع ما وقع الا فيه بل نقول ان نوحا عليه السلام انما ذكر هذا الكلام ليدل على انه تعالى ما أغواهم بل فوض الاختيار اليهم و بيانه من وجهين (الاول) انه عليه السلام بين انه تعالى لو أراد اغواءهم لما بقى فى النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمر بان ينصح الكفار وأجمع المسلمون على انه عليه السلام مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم فعلمنا ان هذا النصح غير خال عن الفائدة واذا لم يكن خاليا عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه (الثانى) انه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى اغواهم لصار هذا عذرا لهم فى عدم اتيانهم بالايمان ولصار نوح منقطعا فى مناظرتهم لانهم يقولون له انك سلمت ان الله اذا أغوانا فانه لا يبقى فى نصحك ولا فى جدنا واجتهادنا فائدة فاذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة فثبت ان الامر لو كان كما قاله الخصم لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام ومعلوم أن نوحا عليه السلام لا يجوز أن يذكر كلاما يصير بسببه مفحما ملزما عاجزا عن تقرير حجة الله تعالى فثبت بما ذكرنا ان هذه الآية لا تدل على قول المجبرة ثم انهم ذكروا وجوها من التأويلات (الاول) أولئك الكفار كانوا مجبرة وكانوا يقولون ان كفرهم بارادة الله تعالى فعند هذا قال نوح عليه السلام ان نصحه لا ينفعهم ان كان الامر كما قالوا ومثاله ان يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد لا أقدر على غير ما أنا عليه فيقول الوالد فلن ينفعك اذا نصحى ولا زجرى وليس المراد انه يصدقه على ما ذكره بل على وجه الانكار لذلك (الثانى) قال الحسن معنى يغويكم أى يعذبكم والمعنى لا ينفعكم نصحى اليوم اذا نزل بكم العذاب فآمنتم فى ذلك الوقت لان الايمان عند نزول العذاب لا يقبل وانما ينفعكم نصحى اذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب (الثالث) قال الجبائى الغواية هى الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى فسوف يلقون غيا أى خيبة من خير الآخرة قال الشاعر * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما * (الرابع) انه اذا أصر على الكفر وتمادى فيه منعه الله تعالى الالطاف وفوضه الى نفسه فهذا شبيه ما اذا أراد اغواءه فلهذا السبب حسن أن يقال ان الله تعالى أغواه هذا جملة كلمات المعتزلة فى هذا الباب والجواب عن امثال هذه الكلمات قد ذكرناه مرارا وأطوارا فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة الثانية) قوله ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضى أن يكون الشرط المؤخر فى اللفظ مقدما فى الوجود وذلك لان الرجل اذا قال لامرأته أنت طالق ان دخلت الدار كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول فاذا ذكر بعده شرطا آخر مثل أن يقول ان أكلت الخبز كان المعنى أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول مشروط بحصول هذا الشرط الثانى والشرط

بينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة اولتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت اخفيت وقرئ عميت ومعناه خفيت وحقيقته ان الحجة كما تجعل مبصرة و بصيرة تجعل عمياء لان الاعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره وفى قراءة ابى فعماها عليكم على الاسناد الى الله عزوجل (انلزمكموها) اى انكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب ارأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم اعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله (وانتم لها كارهون) لا تختارونها ولا تتأملون فيها ومحصول الجواب اخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الا انها خافية عليكم غير مسلمة عندكم ايمكننا ان نكرهكم على قبولها وانتم معرضون عنها غير متدبرين فيها اى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام مطلقا هذا و يجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل و بحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض و به مناط الكرامة عند الله عزوجل والاجتباء للرسالة و بالكون عليها التمسك به والثبات عليه و بخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم ادراكهم

مقدم على المشروط فى الوجود فعلى هذا ان حصل الشرط الثانى تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول اما ان لم يوجد الشرط المذكور ثانيا لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول هذا هو التحقيق فى هذا التركيب فلهذا المعنى قال الفقهاء ان الشرط المؤخر فى اللفظ مقدم فى المعنى والمقدم فى اللفظ مؤخر فى المعنى واعلم أن نوحا عليه السلام لما قرر هذه المعانى قال هو ربكم واليه ترجعون وهذا نهاية الوعيد أى هو الهكم الذى خلقكم ورباكم ويملك التصرف فى ذواتكم وفى صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم اليه وهذا يفيد نهاية التحذير * قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامى وأنا برئ مما تجرمون) اعلم أن معنى افتراه اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحى الذى بلغه اليهم وقوله فعلى اجرامى الاجرام اقتراح المحظورات واكتسابها وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى عقاب اجرامى وفى الآية محذوف آخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمى وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه كقوله أمن هو قانت آناء الليل ولم يذكر البقية وقوله وأنا برئ مما تجرمون أى أنا برئ من عقاب جرمكم وأكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام وهذه الآية وقعت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى أثناء حكاية نوح وقولهم بعيد جدا وأيضا قوله قل ان افتريته فعلى اجرامى لايدل على أنه كان شاكا الا أنه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول * قوله تعالى (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما جاءه هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا وقوله فلا تبتئس أى لاتحزن قال أبو زيد ابتأس الرجل اذا بلغه شئ يكرهه وأنشد أبو عبيدة

مايقسم الله أقبل غير مبتئس * به وأقعد كريما ناعم البال

أى غير حزين ولا كاره (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى القضاء والقدر وقالوا انه تعالى أخبر عن قومه انهم لايؤمنون بعد ذلك فلو حصل ايمانهم لكان اما مع بقاء هذا الخبر صدقا ومع بقاء هذا العلم علما أو مع انقلاب هذا الخبر كذبا ومع انقلاب هذا العلم جهلا والاول ظاهر البطلان لان وجود الايمان مع أن يكون الاخبار عن عدم الايمان صدقا ومع كون العلم بعدم الايمان حاصلا حال وجود الايمان جمع بين النقيضين والثانى ايضا باطل لان انقلاب خبر الله كذبا وعلم الله جهلا محال ولما كان صدور الايمان منهم لابد وأن يكون على هذين القسمين وثبت ان كل واحد منهما محال كان صدور الايمان منهم محالا مع أنهم كانوا مأمورين به وأيضا القوم كانوا مأمورين بالايمان ومن الايمان تصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ومنه قوله انه

لكونه عليه الصلاة والسلام عليها و بالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بهـا بين ظهرانيهم والمعنى انكم زعمتم أن عهد النبوة لاينال الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبرونى ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى وآتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها وكونى عليها الى الآن ﴿ ٨١ ﴾ حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققة فى نفسها انلزمكم قبول نبوتى التـابعة لهـا والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهـام للحمل على الاقرار وهو الانسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى ادرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشـأفة آرائهم الركيكة (وياقوم لاأسألكم عليه) أى على ماقلته فى أثناء دعوتكم (مالا) تؤدونه الى بعد ايمانكم واتبـاعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم (ان اجرى الا على الله) الذى يثيبنى فى الآخرة وفى التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال مالايخفى من المزية (وماأنا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الاشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرح به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام ﴿ ١١ ﴾ خا بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد (انهم ملاقوا ربهم) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كانه قيل لاأطردهم ولاأبعدهم عن مجلسى لانهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لترتيبة وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لامحالة فكيف اطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على مافى قلوبهم من ايمان صحيح

ثابت كما ظهر لى أو على خلاف ذلك مما تعرفونه به من بناء ايمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الامر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عزوجل على طردهم كما سيأتى وايضا فهم انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد فى الدنيا ولا للمؤاخذة فى الآخرة غايته أن ﴿ ٨٢ ﴾ لا يكونوا فى مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الايمان على

ظاهر الرأى يؤدى الى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى (ولكنى أراكم قوما تجهلون) بكل ما ينبغى أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عزوجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقيف ايمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة (وياقوم من ينصرنى من الله) بدفع حلول سخطه عنى (ان طردتهم) فان ذلك أمر لا مرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعارا بأنه غنى عن البيان لا سيما غب ما قدم ما يلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) أى أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد ﴿ وهو ﴾ أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم (ولا أقول لكم) حين أدعى النبوة (عندى خزائن الله) اى رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال

لن يؤمن من قومك الامن قد آمن فيلزم أن يقال انهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة وذلك تكليف بالجمع بين النقيضين وتقرير هذا الكلام قدمر فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا (المسئلة الثالثة) اختلفت المعتزلة فى أنه هل يجوز أن ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان فى المعلوم أن فيهم من يؤمن أو كان فى أولادهم من يؤمن فقال قوم انه لا يجوز واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا وهذا يدل على أنه انما حسن منه تعالى انزال عذاب الاستئصال عليهم لاجل أنه تعالى علم أنه ليس فيهم من يؤمن ولا فى أولادهم أحد يؤمن قال القاضى وقال كثير من علمائنا ان ذلك من الله تعالى جائز وان كان منهم من يؤمن وأما قول نوح عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فذلك يدل على أنه انما سأل ذلك من حيث انه كان فى المعلوم أنهم يضلون عباده ولا يلدون الا فاجرا كفارا وذلك يدل على أن ذلك الحكم كان قولا بمجموع هاتين العلتين وأيضا فلا دليل فيه على انهما لو لم يحصلا لما جاز انزال الاهلاك والاقرب أن يقال ان نوحا عليه السلام لشدة محبته لايمانهم كان سأل ربه أن يبقيهم فأعلمه أنه لا يؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل فيه من تلك المحبة ولذلك قال تعالى من بعد فلا تبتئس بما كانوا يفعلون أى لا تحزن من ذلك ولا تغتم ولا تظن أن فى ذلك مذلة فان الدين عزيز وان قل عدد من يتمسك به والباطل ذليل وان كثر عدد من يقول به *قوله تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) واعلم أن قوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن يقتضى تعريف نوح عليه السلام أنه معذبهم ومهلكهم فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذى هو الغرق ولما كان السبيل الذى به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة لاجرم أمره الله تعالى باصلاح السفينة واعدادها فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر فان قيل قوله تعالى واصنع الفلك أمر ايجاب أو أمر اباحة قلنا الاظهر انه أمر ايجاب لانه لا سبيل له الى صون روح نفسه وأرواح غيره عن الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ويحتمل أن لا يكون ذلك الامر أمر ايجاب بل كان أمر اباحة وهو بمنزلة أن يتخذ الانسان لنفسه دارا ليسكنها ويقيم بها اما قوله بأعيننا فهذا لا يمكن اجراؤه على ظاهره من وجوه (أحدها) انه يقتضى أن يكون لله تعالى أعين كثيرة وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى ولتصنع على عينى (وثانيها) أنه يقتضى أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الاعين كما يقال قطعت بالسكين وكتبت بالقلم ومعلوم ان ذلك باطل (وثالثها) انه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزها عن الاعضاء والجوارح والاجزاء والابعاض فوجب المصير فيه الى التأويل

باسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه (ولا أعلم الغيب) أى لا ادعى فى قولى انى لكم نذير مبين انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد (ولا أقول انى ملك) حتى تقولوا ما نراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى انكم اتخذتم فقدان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال أنى لا أدعى شيأ من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشئ منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر (ولا أقول)

وهو من وجوه (الاول) ان معنى بأعيننا أى بعين الملك الذى كان يعرفه كيف يتخذ السفينة يقال فلان عين على فلان نصب عليه ليكون متفحصا عن أحواله ولا تحول عنه عينه (الثانى) أن من كان عظيم العناية بالشئ فانه يضع عينه عليه فلما كان وضع العين على الشئ سببا لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية عن الاحتياط فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا اياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك وحاصل الكلام ان اقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين (أحدهما) ان لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل (والثانى) أن يكون عالما بانه كيف ينبغى تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه وقوله ووحينا اشارة الى أنه تعالى يوحى اليه أنه كيف ينبغى عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب وأما قوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ففيه وجوه (الاول) يعنى لا تطلب منى تأخير العذاب عنهم فانى قد حكمت عليهم بهذا الحكم فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا (الثانى) ولا تخاطبنى فى تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا فانى لما قضيت انزال ذلك العذاب فى وقت معين كان تعجيله ممتنعا (الثالث) المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان

* قوله تعالى (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أما قوله تعالى ويصنع الفلك ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى قوله ويصنع الفلك قولان (الاول) انه حكاية حال ماضية أى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك (الثانى) التقدير وأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك (المسئلة الثانية) ذكروا فى صفة السفينة أقوالا كثيرة (فاحدها) أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة فى سنتين وقيل فى أربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل فى البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام (وثانيها) قال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع واعلم ان أمثال هذه المباحث لا تعجبنى لانها أمور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذى نعلمه أنه كان فى السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور فى القرآن فأما غير ذلك القدر فغير مذكور أما قوله تعالى وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ففى تفسير الملا وجهان قيل جماعة وقيل طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لاجله كانوا يسخرون وفيه وجوه (أحدها) انهم كانوا يقولون له يا نوح كنت تدعى

مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدرى أعينكم) أى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذا عابه واسناد الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم ما فعلوا ذلك أى لا اقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين (لن يؤتيهم الله خيرا) فى الدنيا أو فى الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أى وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الامور المذكورة وأنها لا تتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الاراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لا أقول وجود تلك الاشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (الله أعلم بما فى أنفسهم) من الايمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بان الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم

وارشادالهم الى مسلك الهداية بان اللائق بكل أحد أن لايبت القول الافيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (انى اذا) أى اذا قلت ذلك (لمن الظالمين) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أومن الظالمين لانفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذا قلت شيأ مماذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة

الخزائن وهو بعيد لان تبعة تلك الاقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين (قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولما جهم عليه الصلاة والسلام وأبرزلهم بينات واضحة المدلول وحجة تلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فائتنا بما تعدنا) من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لايكون المراد باليوم يوم القيامة (ان كنت من الصادقين) فيما تقول (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) يعنى ان ذلك ليس موكولا الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعود وكأنه قيل الاتيان به امر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عزوجل (وما أنتم بمعجزين) بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعوننى فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى) النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغي ليتقى وموضع الرشد ليقتفى (ان أردت أن أنصح لكم) شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه والتقدير ان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة

رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا (وثانيها) انهم كانوا يقولون له لو كنت صادقا فى دعواك لكان الهك يغنيك عن هذا العمل الشاق (وثالثها) انهم ماراوا السفينة قبل ذلك وماعرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون (ورابعها) ان تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها فى موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها الى الانهار العظيمة والى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون (وخامسها) انه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وماشاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا فى ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لاجرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة ثم انه تعالى حكى عنه انه كان يقول ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون وفيه وجوه (الاول) التقدير ان تسخروا منا فى هذه الساعة فانا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة (الثانى) ان حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فانا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا (الثالث) أن تستجهلونا فانا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد لانكم لاتستجهلون الالاجل الجهل بحقيقة الامر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الاطفال والجهال فان قيل السخرية من آثار المعاصى فكيف يليق ذلك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام قلنا انه تعالى سمى المقابلة سخرية كما فى قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها أما قوله تعالى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أى فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة وفى قوله من يأتيه وجهان (أحدهما) أن يكون استفهاما بمعنى أى كأنه قيل فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب وعلى هذا الوجه محل من رفع بالابتداء (والثانى) أن يكون بمعنى الذى ويكون فى محل النصب وقوله تعالى ويحل عليه عذاب مقيم أى يجب عليه وينزل به * قوله تعالى (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله ويصنع الفلك أى فكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد (المسئلة الثانية) الامر فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا يحتمل وجهين (الاول) انه تعالى بين انه لايحدث شئ الا بأمر الله تعالى كما قال انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون فكان المراد هذا (والثانى) أن يكون المراد من الامر ههنا هو العذاب الموعود به (المسئلة الثالثة) فى التنور قولان (أحدهما) أنه التنور الذى يخبز فيه (والثانى) أنه غيره أما الاول وهو انه التنور الذى يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح عليه السلام وقيل كان لآدم قال الحسن كان

تنورا من حجارة وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام واختلفوا في موضعه فقال الشعبي انه كان بناحية الكوفة وعن علي رضي الله عنه أنه في مسجد الكوفة قال وقد صلى فيه سبعون نبيا وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردان وهو قول مقاتل وقيل فار التنور بالهند وقيل ان امرأته كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل في الحال بوضع تلك الاشياء في السفينة (القول الثاني) ليس المراد من التنور تنور الخبز وعلى هذا التقدير ففيه أقوال (الاول) أنه انفجر الماء من وجه الارض كما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر والعرب تسمي وجه الارض تنورا (الثاني) ان التنور أشرف موضع في الارض وأعلى مكان فيها وقد أخرج اليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له وأيضا المعنى انه لما نبع الماء من أعالي الارض ومن الامكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير (الثالث) فار التنور أي طلع الصبح وهو منقول عن علي رضي الله عنه (الرابع) فار التنور يحتمل أن يكون معناه اشتد الامر كما يقال حمي الوطيس ومعنى الآية اذا رأيت الامر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك الى السفينة فان قيل فما الاصح من هذه الاقوال قلنا الاصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع في العقل في أن يقال ان الماء نبع أولا من موضع معين وكان ذلك الموضع تنورا فان قيل ذكر التنور بالالف واللام وهذا انما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس في الارض تنور هذا شانه فوجب أن يحمل ذلك على ان المراد اذا رأيت الماء يشتد نبوعه والامر يقوى فانج بنفسك وبمن معك قلنا لايبعد أن يقال ان ذلك التنور كان معلوما لنوح عليه السلام بان كان تنور آدم أو حواء أو كان تنورا عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه انك اذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الامر قد وقع وعلى هذا التقدير فلاحاجة الى صرف الكلام عن ظاهره (المسئلة الرابعة) معنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولاشبهة في أن نفس التنور لايفور فالمراد فار الماء من التنور والذي روى أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لايمتنع لان هذه واقعة عظيمة وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلابد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين فلايبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة (المسئلة الخامسة) قال الليث التنور لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار قال الازهري وهذا يدل على ان الاسم قد يكون أعجميا فتعربه العرب فيصير عربيا والدليل على ذلك ان الاصل تنار ولايعرف في كلام العرب تنور قبل هذا ونظيره مادخل في كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والاستبرق فان العرب لما تكلموا بهذه الالفاظ صارت عربية واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من الاشياء (فالاول) قوله قلنا احمل

دليل على ماحذف من جواب قوله تعالى (ان كان الله يريد أن يغويكم) والتقدير ان كان الله يريد ان يغويكم فان اردت أن أنصح لكم لاينفعكم نصحي هذا على ماذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ماذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عزوعلا ولاينفعكم نصحي جزاء للشرط الاول والجملة جزاء للشرط الثاني وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثاني وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم في العناد وايذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصح لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا في ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لاينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ماوقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر في ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنابه عزوعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لايجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام مايتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء ردا عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع مافيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك (هو ربكم) خالقكم ومالك أمركم (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم لامحالة

(أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى ماجاء به مسندا الى الله عزوجل (قل) يانوح (ان افتريته) بالفرض البحت (فعلى اجرامى) اثمى وو بال اجرامى وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع و ينصره ان فسره الاولون بآثامى (وأنا برئ مما تجرمون) من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جئ به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لاسيما وقد نص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام و بين قومه من المحاجة و بقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى المصرين على الكفر وهو اقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لايصح توقعه (الامن قد آمن) الا من قد وجد منه ماكان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى الا ماقد سلف (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لاتحزن حزن بائس مستكين ولاتغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) ملتبسا (بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عزوجل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة (ووحينا) اليك ﴿ مما كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا * عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذ لاسبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بان يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشئ

فيها من كل زوجين اثنين قال الاخفش تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين فالسماء زوج والارض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج وتقول للمرأة هى زوج وهو زوجها قال تعالى وخلق منها زوجها يعنى المرأة وقال وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى فثبت ان الواحد قد يقال له زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى ثمانية أزواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين اذا عرفت هذا فنقول الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر والآخر أنثى ولذلك قرأ حفص من كل بالتنوين وأراد واحمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج لايقال عليه ان الزوجين لايكونان الا اثنين فالفائدة فى قوله زوجين اثنين لانا نقول هذا على مثال قوله لاتتخذوا الهين اثنين وقوله نفخة واحدة وأما على القراءة المشهورة فهذا السؤال غير وارد واختلفوا فى أنه هل دخل فى قوله زوجين اثنين غير الحيوان أم لافنقول أما الحيوان فداخل لان قوله من كل زوجين اثنين يدخل فيه كل الحيوانات وأما النبات فاللفظ لايدل عليه الا أنه بحسب قرينة الحال لايبعد بسبب ان الناس محتاجون الى النبات بجميع أقسامه وجاء فى الروايات عن ابن مسعود رضى الله عنهما أنه قال لم يستطع نوح عليه السلام أن يحمل الاسد حتى ألقيت عليه الحمى وذلك أن نوحا عليه السلام قال يارب فمن أين أطعم الاسد اذا حملته قال تعالى فسوف أشغله عن الطعام فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الاولى تركها فان حاجة الفيل الى الطعام أكثر وليس به حمى (الثانى) من الاشياء التى أمر الله نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى وأهلك الامن سبق عليه القول قالوا كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناء وهم سام وحام و يافث ولكل واحد منهم زوجة وقيل أيضا كانوا ثمانية هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام وأما قوله الامن سبق عليه القول فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك فان قيل الانسان اشرف من جميع الحيوانات فما السبب انه وقع الابتداء بذكر الحيوانات قلنا الانسان عاقل وهو لعقله كالمضطر الى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله الامن سبق عليه القول فى اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب قالوا لان قوله سبق عليه القول مشعر بأن كل من سبق عليه القول فانه لايتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه (النوع الثالث) من تلك الاشياء قوله ومن آمن قالوا كانوا ثمانين قال مقاتل فى ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك لان هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها فسميت بهذا الاسم وذكروا ماهو أزيد منه وماهو أنقص منه وذلك

عمالا سبيل الى معرفته الا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى وما آمن معه الا قليل فان قيل لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا فى السفينة كانوا جماعة فلم لم يقل قليلون كما فى قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون قلنا كلا اللفظين جائز والتقدير ههنا وما آمن معه الا نفر قليل فأما الذى يروى أن ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى وكيف يؤثر الغرق فيه وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه فالاولى ترك الخوض فيه * قوله تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم) أما قوله وقال يعنى نوح عليه السلام لقومه اركبوا والركوب العلو على ظهر الشئ ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شئ علا شيئا فقد ركبه يقال ركبه الدين قال الليث وتسمى العرب من ركب السفينة راكب السفينة وأما الركبان والركب من ركبوا الدواب والابل قال الواحدى ولفظة فى فى قوله اركبوا فيها لا يجوز أن تكون من صلة الركوب لانه يقال ركبت السفينة ولا يقال ركبت فى السفينة بل الوجه أن يقال مفعول اركبوا محذوف والتقدير اركبوا الماء فى السفينة وأيضا يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة أنه أمرهم أن يكونوا فى جوف الفلك لا على ظهرها فلو قال اركبوها لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة أما قوله تعالى بسم الله مجريها ومرساها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا فى مرساها أنه بضم الميم وقال صاحب الكشاف قرأ مجاهد مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين لله تعالى قال الواحدى المجرى المصدر كالاجراء ومثله قوله منزلا مباركا وأدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وأما من قرأ مجريها بفتح الميم فهو أيضا مصدر مثل الجرى واحتج صاحب هذه القراءة بقوله وهى تجرى بهم ولو كان مجراها لكان وهى تجريهم وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان فى المعنى فاذا قال تجرى بهم فكأنه قال تجريهم وأما المرسى فهو أيضا مصدر كالارساء يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وارساه غيره قال تعالى والجبال أرساها قال ابن عباس يريد تجرى بسم الله وقدرته وترسو بسم الله وقدرته وقيل كان اذا أراد أن تجرى بهم قال بسم الله مجريها فتجرى واذا أراد أن ترسو قال بسم الله مرسيها فترسو (المسئلة الثانية) ذكروا فى عامل الاعراب فى بسم الله وجوها (الاول) اركبوا بسم الله (والثانى) ابدؤا بسم الله (والثالث) بسم الله اجراؤها وارساؤها وقيل انها سارت لاول يوم من رجب وقيل لعشر مضين من رجب فسارت ستة أشهر واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودى (المسئلة الثالثة) فى الآية احتمالان (الاول) أن يكون مجموع قوله وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها كلاما واحدا والتقدير وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها يعنى ينبغى أن يكون الركوب مقرونا بهذا الذكر (والاحتمال الثانى) أن يكونا كلامين والتقدير أن نوحا

سيصنعه بامره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما للجنس قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الاول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الاول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فاخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لوقيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (انهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره واخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأياما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة

عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بان مجريها ومرساها ليس الا باسم الله وأمره وقدرته (فالمعنى الاول) يشير الى أن الانسان لا ينبغى أن يشرع فى أمر من الامور الا و يكون فى وقت الشروع فيه ذاكرا لاسم الله تعالى بالاذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببا لتمام ذلك المقصود (والثانى) يدل على انه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببا لحصول النجاة بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى وأخبرهم أنه تعالى هو المجرى والمرسى للسفينة فاياكم أن تعولوا على السفينة بل يجب ان يكون تعويلكم على فضل الله فانه هو المجرى والمرسى لها فعلى التقدير الاول كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة فى مقام الذكر وعلى التقدير الثانى كان فى مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الاسباب واستغراق القلب فى نور جلال مسبب الاسباب واعلم أن الانسان اذا تفكر فى طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس فى سفينة التفكر والتدبر وامواج الظلمات والضلالات قد علت تلك الجبال وارتفعت الى مصاعد القلال فاذا ابتدأت سفينة الفكرة والروية بالحركة وجب أن يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه الى الله تعالى وان يكون بلسان القلب ونظر العقل يقول بسم الله مجريها ومرساها حتى تصل سفينة فكره الى ساحل النجاة وتتخلص عن أمواج الضلالات واما قوله ان ربى لغفور رحيم ففيه سؤال وهو أن ذلك الوقت وقت الاهلاك واظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر وجوابه لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا فى أنفسهم انا انما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لازالة ذلك العجب منهم فان الانسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات وفى جميع الاحوال فهو محتاج الى اعانة الله وفضله واحسانه وان يكون رحيما لعقوبته غفورا لذنوبه * قوله تعالى (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) واعلم ان فى قوله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهى تجرى بهم فى موج متعلق بمحذوف والتقدير وقال اركبوا فيها فركبوا فيها يقولون بسم الله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال (المسئلة الثانية) الامواج العظيمة انما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على انه حصل فى ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة والمقصود منه بيان شدة الهول والفزع (المسئلة الثالثة) الجريان فى الموج هو أن تجرى السفينة داخل الموج وذلك يوجب الغرق فالمراد أن الامواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب شبهت تلك السفينة بما اذا جرت فى داخل تلك الامواج * ثم حكى الله تعالى عنه انه نادى ابنه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أنه هل كان ابنا له وفيه أقوال (الاول) انه ابنه فى الحقيقة والدليل عليه انه تعالى

حالا من ضميره أعنى قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) استهزؤا به لعمله السفينة اما لانهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها فى برية بهاء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون و يقولون يا نوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه ﴿٨٨﴾ من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع نكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك (قال ان تسخروا منا) مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فانا نسخر منكم) أى نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا اما لان سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لانهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين تعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعده عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون و يذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الحميدة وانما أظهره جزاء بما صنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ﴿نص﴾ ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل و يقول ان تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أى ان تنسبونا فيما نحن بصدده

نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه فقال يابنى وصرف هذا اللفظ الى انه رباه فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة وانه لايجوز والذين خالفوا هذا الظاهر انما خالفوه لانهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرا وهذا بعيد فانه ثبت ان والد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان كافرا ووالد ابراهيم عليه السلام كان كافرا بنص القرآن فكذلك ههنا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى انه عليه السلام لما قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا فكيف ناداه مع كفره فأجابوا عنه من وجوه (الاول) انه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته (والثانى) انه عليه السلام كان يعلم انه كافر لكنه ظن انه لما شاهد الغرق والاهوال العظيمة فانه يقبل الايمان فصار قوله يابنى اركب معنا كالدلالة على انه طلب منه الايمان وتأكد هذا بقوله ولاتكن مع الكافرين أى تابعهم فى الكفر واركب معنا (والثالث) ان شفقة الابوة لعلها حملته على ذلك النداء والذى تقدم من قوله الامن سبق عليه القول كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلا فيه (القول الثانى) انه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى ويروى ان عليا رضى الله عنه قرأ ونادى نوح ابنها والضمير لامرأته وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير ابنه بفتح الهاء يريدان ابنها الا انهما اكتفيا بالفتحة عن الالف وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال والله ما كان ابنه فقلت ان الله حكى عنه انه قال ان ابنى من أهلى وأنت تقول ما كان ابنا له فقال لم يقل انه منى ولكنه قال من أهلى وهذا يدل على قولى (القول الثالث) انه ولد على فراشه لغير رشدة والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو على خلاف نص القرآن أما قوله تعالى فخانتاهما فليس فيه ان تلك الخيانة انما حصلت بالسبب الذى ذكروه قيل لابن عباس رضى الله عنهما ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزلوا به ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات وأيضا قوله تعالى الزانى لاينكح الا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين وبالجملة فقد دللنا على ان الحق هو القول الاول وأما قوله وكان فى معزل فاعلم ان المعزل فى اللغة معناه موضع منقطع عن غيره وأصله من العزل وهو التنحية والابعاد تقول كنت بمعزل عن كذا أى بموضع قد عزل منه واعلم ان قوله وكان فى معزل لايدل على انه فى معزل من أى شئ فلهذا السبب ذكروا وجوها (الاول) أنه كان فى معزل من السفينة لانه كان يظن ان الجبل يمنعه من الغرق (الثانى) انه كان فى معزل عن أبيه واخوته وقومه (الثالث) انه كان فى معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام ان ذلك

من التاهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى (كما تسخرون) اما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لا فى الكيفيات والاحوال ﴿ ٨٩ ﴾ التى لاتليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الامرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لايكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لان حالهم اذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لايكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أباشره ليس ﴿ ١٢ ﴾ خا فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة (حتى اذا جاء أمرنا) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع

ذلك غاية لقوله ويصنع ومابينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة لملا وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم فى ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لاذيتهم لامسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام (وفار التنور) بع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ﴿٩٠﴾ والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام كان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شئ من الماء على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان عمل السفينة فى ذلك الموضع أو فى الهند أو فى موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الارض وعن قتادة أشرف موضع فى الارض اى أعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قلنا احمل فيها) اى فى السفينة هو جواب اذا (من كل) اى من كل نوع لابد منه فى الارض (زوجين) الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر قرئ على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة وأما البشر

﴿ لاعاصم ﴾

انما كان لانه أحب مفارقتهم أما قوله يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين فنقول قرأ حفص عن عاصم يابنى بفتح الياء فى جميع القرآن والباقون بالكسر قال أبو على الوجه الكسر وذلك ان اللام من ابن ياء أو واو فاذا صغرت الحقت ياء التحقير فلزم أن ترد اللام المحذوفة والازم أن تحرك ياء التحقير بحركات الاعراب لكنها لاتحرك لانها لوحركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد واللين اذا كانت حروف اعراب نحو عصا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم اذا أضفت الى نفسك اجتمعت ثلاث ياآت (الاولى) منها للتحقير (والثانية) لام الفعل (والثالثة) التى للاضافة تقول هذا بنى فاذا ناديته صار فيه وجهان اثبات الياء وحذفها والاختيار حذف الياء التى للاضافة وابقاء الكسرة دلالة عليه نحو ياغلام ومن قرأ يابنى بفتح الياء فانه أراد الاضافة أيضا كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الالف تخفيفا فصار يابنيا كما قال ❊ ياابنة عما لاتلومى واهجعى ❊ ثم حذف الالف للتخفيف واعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعاه الى أن يركب السفينة حكى عن ابنه انه قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وهذا يدل على ان الابن كان متماديا فى الكفر مصرا عليه مكذبا لابيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام لاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم وفيه سؤال وهو ان الذى رحمه الله معصوم فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله لاعاصم اليوم من أمر الله وذكروا فى الجواب طرقا كثيرة (الاول) انه تعالى قال قبل هذه الآية وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم فبين انه تعالى رحيم وانه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق اذا عرفت هذا فنقول ان ابن نوح عليه السلام لما قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال نوح عليه السلام أخطأت لاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم والمعنى الاذلك الذى ذكرت انه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية لاعاصم اليوم من عذاب الله الا الله الرحيم وتقديره لافرار من الله الا الى الله وهو نظير قوله عليه السلام فى دعائه وأعوذ بك منك وهذا تأويل فى غاية الحسن (الوجه الثانى) فى التأويل وهو الذى ذكره صاحب حل العقد أن هذا الاستثناء وقع من مضمر هو فى حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه والتقدير لاعاصم اليوم لاحد من أمر الله الامن رحم وهو كقولك لاتضرب اليوم الا زيدا فان تقديره لاتضرب أحدا الازيدا الا انه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا (الوجه الثالث) فى التأويل ان قوله لاعاصم أى لاذا عصمة كما قالوا رامح ولابن ومعناه ذورمح وذولبن وقال تعالى من ماء دافق وعيشة راضية ومعناه ماذكرنا فكذا ههنا وعلى هذا التقدير العاصم هو ذو العصمة فيدخل فيه المعصوم وحينئذ يصح استثناء قوله الامن رحم منه (الوجه الرابع) قوله لاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم عنى بقوله الامن رحم نفسه لان نوحا وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته والمراد

فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل اولانها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها (واهلك) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته و بنوه ونساؤهم (الامن سبق عليه القول) بانه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالاهل الاهل ايمانا وهو الظاهر ﴿ ٩١ ﴾ كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة و يكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجئ بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جئ باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى (ومن آمن) من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا (وما آمن معه الا قليل) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله و بنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضا أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام و يافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى ايمانهم للايماء الى المعية فى مقر الامان والنجاة (وقال) اى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربى لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله فى الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) كما سيأتى مثله فى قوله تعالى وهى تجرى بهم والركوب العلو على شئ متحرك و يتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لان المأمور به كونهم فى جوفها لا فوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها

لاعاصم لك الا الله بمعنى أن بسببه تحصل رحمة الله كما أضيف الاحياء الى عيسى عليه السلام فى قوله وأحيى الموتى لاجل ان الاحياء حصل بدعائه (الوجه الخامس) ان قوله الامن رحم استثناء منقطع والمعنى لكن من رحم الله معصوم ونظيره قوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن ثم انه تعالى بين بقوله وحال بينهما الموج أى بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح فكان من المغرقين * قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك و ياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) اعلم ان المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان فكان التقدير انه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا يا أرض ابلعى ماءك يقال بلع الماء يبلعه بلعا اذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعا اذا لم يمضغه وقال أهل اللغة الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها و ياسماء أقلعى يقال أقلع الرجل عن عمله اذا كف عنه وأقلعت السماء بعد ما مطرت اذا أمسكت وغيض الماء يقال غاض الماء يغيض غيضا ومغاضا اذا نقص وغضته أنا وهذا من باب فعل الشئ وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته ودلع اللسان ودلعته ونقص الشئ ونقصته فقوله وغيض الماء أى نقص وما بقى منه شئ واعلم ان هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه (فأولها) قوله وقيل وذلك لان هذا يدل على أنه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة بحيث انه متى قيل قيل لم ينصرف العقل الا اليه ولم يتوجه الفكر الا الى أن ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه على انه تقرر فى العقول أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى الا هو (وثانيها) قوله يا أرض ابلعى ماءك و ياسماء أقلعى فان الحس يدل على عظمة هذه الاجسام وشدتها وقوتها فاذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الاجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره وكمال قدرته ومشيئته (وثالثها) ان السماء والارض من الجمادات فقوله يا أرض و ياسماء مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ فى الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الامر كذلك فلأن يكون أمره نافذا على العقلاء كان اولى وليس مرادى منه أنه تعالى يأمر الجمادات فان ذلك باطل بل المراد ان توجيه صيغة الامر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر فى الوهم نوع عظمته وجلاله تقريرا كاملا وأما قوله وقضى الامر فالمراد ان الذى قضى به وقدره فى الازل قضاء جزما حتما فقد وقع تنبيها على ان كل ما قضى الله تعالى فهو واقع فى وقته وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه فى أرضه وسمائه فان قيل كيف يليق بحكمة الله تعالى ان يغرق الاطفال بسبب جرم الكفار قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) ان كثيرا من المفسرين يقولون ان الله تعالى أعقم ارحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق الا من بلغ سنه الى الاربعين ولقائل ان يقول لو كان الامر

على ماذ كرتم لكان ذلك آية عجيبة قاهرة و بعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر وأيضا فهب انكم ذ كرتم ماذ كرتم فما قولكم فى اهلاك الطير والوحش مع انه لا تكليف عليها البتة والجواب الثانى وهو الحق انه لا اعتراض على الله تعالى فى افعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وأما المعتزلة فهم يقولون انه تعالى أغرق الاطفال والحيوانات وذلك يجرى مجرى اذنه تعالى فى ذبح هذه البهائم وفى استعمالها فى الاعمال الشاقة الشديدة وأما قوله تعالى واستوت على الجودى فالمعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودى وكان ذلك الجبل جبلا منخفضا فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء وأما قوله تعالى وقيل بعدا للقوم الظالمين ففيه وجهان (الاول) انه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد (والثانى) أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لان الغالب ممن يسلم من الامر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فاذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولانه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق * قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك ان أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله رب ان ابنى من أهلى فقد ذكرنا الخلاف فى أنه هل كان ابناله أم لا فلا نعيده ثم انه تعالى ذكر انه قال يانوح انه ليس من أهلك واعلم انه لما ثبت بالدليل انه كان ابناله وجب حمل قوله انه ليس من أهلك على أحد وجهين (أحدهما) أن يكون المراد انه ليس من أهل دينك (والثانى) المراد انه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على ان العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب فان فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الالفاظ وهو قوله انه ليس من أهلك ثم قال تعالى انه عمل غير صالح قرأ الكسائى عمل على صيغة الفعل الماضى وغير بالنصب والمعنى ان ابنك عمل عملا غير صالح يعنى أشرك وكذب وكلمة غير نصب لانها نعت لمصدر محذوف وقرأ الباقون عمل بالرفع والتنوين وفيه وجهان (الاول) ان الضمير فى قوله انه عائد الى السؤال يعنى ان هذا السؤال عمل وهو قوله ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد ان سبق الحكم الجزم بانه لا ينجى أحدا منهم سؤال باطل (الثانى) أن يكون هذا الضمير عائدا الى الابن وعلى هذا التقدير ففى وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه (الاول) ان الرجل اذا كثر عمله واحسانه يقال له انه علم وكرم وجود فكذا ههنا لما كثر اقسام ابن نوح على الاعمال الباطلة حكم عليه بأنه فى نفسه عمل باطل (الثانى) أن يكون المراد انه ذو عمل باطل فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (الثالث) قال بعضهم

فى البطن الاسفل والأنعام فى الاوسط وركب هو ومن معه فى الاعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه ن معنى الركوب العلو على شئ له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الاول أيوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية * ٩٢ * الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا فى الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها (بسم الله) متعلق باركبوا حال من فاعله اى اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أى وقت جريها وارسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدأ وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضية على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله * الى الحول ثم اسم السلام * عليكما ويراد الله اجراؤها وارساؤها اى بقدرته وأمره وقرئ مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (ان ربى لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه

ورحمته على ماعليه رأى أهل السنة (وهى تجرى بهم) متعلق بمحذوف دل عليه الامر بالركوب اى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم (فى موج كالجبال) وهو ماارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وماقيل من أن الماء طبق مابين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ﴿٩٣﴾ ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى (ونادى نوح ابنه فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ماجرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الالف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه ومايقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لايقادر قدرها فان جناب الانبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لايلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد (وكان فى معزل) اى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الاهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى الا من سبق عليه القول نصا فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الابوة على ذلك (يابنى) بفتح الياء اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة

معنى قوله انه عمل غير صالح أى انه ولد زنا وهذا القول باطل قطعا ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام فلا تسألن ماليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) احتج بهذه الآية من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (الاول) ان قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهى محكمة وهذا يقتضى عود الضمير فى قوله انه عمل غير صالح اما الى ابن نوح واما الى ذلك السؤال فالقول بانه عائد الى ابن نوح لايتم الا باضمار وهو خلاف الظاهر ولايجوز المصير اليه الا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا لانا اذا حكمنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير فثبت ان هذا الضمير عائد الى هذا السؤال فكان التقدير ان هذا السؤال عمل غير صالح أى قولك ان ابنى من أهلى لطلب نجاته عمل غير صالح وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبا ومعصية (الثانى) ان قوله فلا تسألن نهى له عن السؤال والمذكور السابق هو قوله ان ابنى من أهلى فدل هذا على انه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبا ومعصية (الثالث) ان قوله فلا تسألن ماليس لك به علم يدل على ان ذلك السؤال كان قد صدر لاعن العلم والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى وأن تقولوا على الله مالا تعلمون (الرابع) ان قوله تعالى انى أعظك أن تكون من الجاهلين يدل على ان ذلك السؤال كان محض الجهل وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر وأيضا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور فى القرآن قال تعالى يعملون السوء بجهالة وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين (الوجه الخامس) ان نوحا عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمعصية فى هذا المقام فانه قال انى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين واعترافه بذلك يدل على انه كان مذنبا (الوجه السادس) فى التمسك بهذه الآية ان هذه الآية تدل على ان نوحا نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق والآية المتقدمة وهى قوله ونادى نوح ابنه وقال يابنى اركب معنا تدل على انه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة فنقول اما أن يقال ان طلب هذا المعنى من الله كان سابقا على طلبه من الولد أو كان بالعكس والاول باطل لان بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقا على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله انه تعالى لايخلص ذلك الابن من الغرق وانه تعالى نهاه عن ذلك الطلب وبعد هذا كيف قال له يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين وأما ان قلنا ان هذا الطلب من الابن كان متقدما فكان قد سمع من الابن قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وظهر بذلك كفره فكيف طلب من الله تخليصه وأيضا انه تعالى أخبر ان نوحا لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد ان صار من المغرقين فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام واعلم انه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الانبياء عليهم السلام من المعاصى وجب

فى قولك يابنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة اوسقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ ابو عمرو والكسائى وحفص بادغام البـاء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولاتكن مع الكافرين) اى فى المكان وهو وجه الارض خارج الفلك ﴿ ٩٤ ﴾ لافى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر (قال سآوى الى جبل) من الجبال (يعصمنى) بارتفاعه (من الماء) زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بان ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لامحيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجا المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام ان يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ماأثبته للجبل من كونه عاصما له من المـاء بأن يقول لايعصمك منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولالنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لاعاصم اليوم من أمر الله) سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولامجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الايام التى تقع فيهـا الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بامر الله أى عذابه الذى أشير اليه حيث قيـل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لامره وتنبيها لابنه على

حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الافضل والاكمل وحسنات الابرار سيآت المقربين فلهذا السبب حصل هذا العتاب والامر بالاستغفار لايدل على سابقة الذنب كما قال اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره ومعلوم ان مجئ نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وليس جميعهم مذنبين فدل ذلك على ان الاستغفار قد يكون بسبب ترك الافضل (المسئلة الثانية) قرأ نافع برواية ورش واسمعيل بتشديد النون واثبات الياء تسألنى وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير اثبات الياء وقرأ أبو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء تسألن أما التشديد فللتاكيد وأما اثبات الياء فعلى الاصل وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير اخلال واعلم انه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال رب انى أعوذبك أن أسألك ماليس لى به علم والاتغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين والمعنى انه تعالى لما قال له فلا تسألن ماليس لك به علم فقال عند ذلك قبلت يارب هذا التكليف ولا أعود اليه الا أنى لا أقدر على الاحتراز منه الا باعانتك وهدايتك فلهذا بدأ اولا بقوله انى أعوذبك واعلم ان قوله انى أعوذبك أن أسألك ماليس لى به علم اخبار عما فى المستقبل أى لا أعود الى هذا العمـل ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى فقـال والاتغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين وحقيقة التوبة تقتضى أمرين (أحدهما) فى المستقبل وهو العزم على الترك واليه الاشارة بقوله انى أعوذبك أن أسألك ماليس لى به علم (والثانى) فى الماضى وهو الندم على مامضى واليـه الاشارة بقوله والاتغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التى صدرت عن نوح عليه السلام فى هذا المقام فنقول ان أمة نوح عليه السـلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه وجمع من المنافقين وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما وأما أهل النفاق فبقى حكمهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون من الاب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وذلك لا يدل على كفره لجواز ان يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجرى مجرى الركوب فى السفينة فى أنه يصونه عن الغرق وقول نوح لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم لايدل الا على انه عليه السلام كان يقرر عند ابنه انه لاينفعه الا الايمان والعمل الصالح وهذا أيضا لايدل على انه علم من ابنه أنه كان كافرا فعند هذه الحالة كان قد بقى فى قلبه ظن ان ذلك الابن مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق اما بأن يمكنه من الدخول فى السفينة واما بأن يحفظه على قلة جبل فعند ذلك أخبره الله تعالى بانه منافق وانه ليس من

خطئة فى تسميته ماء وتوهم أنه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان أمر الله لايغالب وعذابه لايرد وتمهيد الحصر العصمة فى جناب الله عزجاره بالاستثناء كأنه قيل لاعاصم من امر الله الاهو وانما قيل (الامن رحم) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير و بالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام ❊ ٩٥ ❊ بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شان الداهية وقطع اطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لايغنى عنه شيئا وارشاده الى العياذ بالمعاذ الحق عزجاره وقيل لامكان يعصم من امر الله الامكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لاعاصم لاذا عصمة الامن رحمه الله تعالى (وحال بينهما الموج) اى بين نوح و بين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لابين ابنه و بين الجبل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) اذ هو انما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام و بين ابنه لابينه و بين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه و بين الملتجىء اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمرا مقرر الوقوع غير مفتقر الى البيان وفى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم (وقيل ياأرض ابلعى) اى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى (ماءك) اى ما على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بامر الله تعالى لان المقام مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل (و ياسماء أقلعى) اى أمسكى عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى اى كفت (وغيض الماء) اى نقص مابين السماء والارض من الماء (وقضى الامر) اى أنجز ما وعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله أو أتم الامر (واستوت) اى استقرت الفلك

أهل دينه فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو انه لم يستقص فى تعريف ما يدل على نفاقه و كفره بل اجتهد فى ذلك و كان يظن أنه مؤمن مع أنه أخطأ فى ذلك الاجتهاد لانه كان كافرا فلم يصدر عنه الا الخطأ فى هذا الاجتهاد كما قررنا ذلك فى ان آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة الا لانه أخطأ فى الاجتهاد فثبت بما ذكرنا ان الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وانما هو من باب الخطأ فى الاجتهاد والله أعلم * قوله تعالى (قيل يانوح اهبط بسلام منا و بركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى أخبر عن السفينة انها استوت على الجودى فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لامحالة ثم انهم نزلوا من ذلك الجبل الى الارض فقوله اهبط يحتمل أن يكون أمرا بالخروج من السفينة الى أرض الجبل وان يكون أمرا بالهبوط من الجبل الى الارض المستوية (المسئلة الثانية) انه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولا ثم بالبركة ثانيا اما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين (الاول) انه تعالى أخبر فى الآية المتقدمة ان نوحا عليه السلام تاب عن زلته وتضرع الى الله تعالى بقوله والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين وهذا التضرع هو عين التضرع الذى حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فكان نوح عليه السلام محتاجا الى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له يانوح اهبط بسلام منا حصل له الامن من جميع المكاره المتعلقة بالدين (والثانى) ان ذلك الغرق لما كان عاما فى جميع الارض فعند ما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم انه ليس فى الارض شئ مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف فى انه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك الامع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بان وعده بالبركة وهى عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الامل ومنه بروك الابل ومنه البركة لثبوت الماء فيها ومنه تبارك وتعالى أى ثبت تعظيمه ثم اختلف المفسرون فى تفسير هذا الثبات والبقاء فالقول الاول انه تعالى صير نوحا أبا البشر لان جميع من بقى كانوا من نسله وعند هذا قال هذا القائل انه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الامن ذريته فالخلق كلهم من نسله وذريته وقال آخرون لم يكن فى سفينة نوح عليه السلام الامن كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم انما توالدوا منه ومن أولاده والدليل عليه قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا عليه السلام كان آدم الاصغر فهذا هو المراد من البركات التى وعده الله بها (والقول الثانى) انه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات وعده بان موجبات السلامة والراحة والفراغة يكون فى التزايد والثبات والاستقرار ثم انه تعالى

(على الجودى) هو جبل بالموصل أو بالشام أو بآمل روى انه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وقيل بعدا للقوم الظالمين) اى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ما سبق من قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون واقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة ❊ ❊ المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحرى بنا أن نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل أولى الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) اى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى (فقال رب ان ابنى من أهلى) وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الامر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل ما فيه من الاجمال (وان وعدك الحق) اى وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لا يتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (قال يانوح) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى (انه ليس من أهلك) اى ليس منهم أصلا لان مدار الاهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء ❊ فانما هى اقبال وادبار

لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال وعلى أمم ممن معك واختلفوا فى المراد منه على ثلاثة أقوال منهم من حمله على أولئك الاقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمما وجماعات لانه ما كان فى ذلك الوقت فى جميع الارض أحد من البشر الا هم فلهذا السبب جعلهم أمما ومنهم من قال بل المراد ممن معك نسلا وتولدا قالوا ودليل ذلك انه ما كان معه الا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة فى قوله تعالى وما آمن معه الا قليل ومنهم من قال المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك والمختار هو القول الثانى ومن فى قوله ممن معك لابتداء الغاية والمعنى وعلى أمم ناشئة من الذين معك واعلم انه تعالى جعل تلك الامم الناشئة من الذين معه على قسمين (أحدهما) الذين عطفهم على نوح فى وصول سلام الله وبركاته اليهم وهم أهل الايمان (والثانى) أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة فى الدنيا ثم فى الآخرة يمسهم عذاب أليم فحكم تعالى بان الامم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لابد وأن ينقسموا الى مؤمن والى كافر قال المفسرون دخل فى تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة الى يوم القيامة ودخل فى ذلك المتاع وفى ذلك العذاب كل كافر وكافرة الى يوم القيامة ثم قال اهل التحقيق انه تعالى انما عظم شأن نوح بايصال السلامة والبركات منه اليه لانه قال بسلام منا وهذا يدل على ان الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث انها نعمة ولكنهم انما يفرحون بالنعمة من حيث انها من الحق وفى التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم الى الحق وهذا مقام شريف لا يعرفه الا خواص الله تعالى فان الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير والفرح بالسلامة والبركة من حيث انهما من الحق غير والاول نصيب عامة الخلق والثانى نصيب المقربين ولهذا السبب قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول وأما أهل العقاب فقد قال فى شرح أحوالهم وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم فحكم بانه تعالى يعطيهم نصيبا من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا فانه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر البتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر انه يعطيهم الدنيا وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب فى المقامات الروحانية ❊ قوله تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) واعلم انه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تلك أى تلك الآيات التى ذكرناها وتلك التفاصيل التى شرحناها من أنباء الغيب أى من الاخبار التى كانت غائبة عن الخلق فقوله تلك فى محل الرفع على الابتداء ومن أنباء الغيب الخبر ونوحيها اليك خبر ثان وما بعده أيضا خبر ثالث ثم قال تعالى ما كنت تعلمها أنت ولا قومك والمعنى انك ما كنت تعرف هذه القصة بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضا ونظيره أن تقول لانسان لا تعرف هذه المسئلة لا أنت ولا أهل

❊ بلدك ❊

وايثار غير صالح على فاسد امالان الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والظالم واما للتلويح بان نجاة من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى و يعقوب انه عمل غير صالح اى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ماذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه ﴿ ٩٧ ﴾ الا أنه جئ بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل

بلدك فان قيل أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند اهل العلم قلنا تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة اما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ثم قال فاصبر ان العاقبة للمتقين والمعنى يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار وفيه تنبيه على ان الصبر عاقبته النصر والظفر و الفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه فان قال قائل انه تعالى ذكر هذه القصة فى سورة يونس ثم انه أعادها ههنا مرة أخرى فما الفائدة فى هذا التكرير قلنا ان القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففى السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح فى بيان ان قومه كانوا يكذبونه بسبب ان العذاب ما كان يظهر ثم فى العاقبة ظهر فكذا فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفى هذه السورة ذكر هذه القصة لاجل ان الكفار كانوا يبالغون فى الايحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان ان اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا فى زمان نوح الا انه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة * قوله تعالى (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون يا قوم لا أسئلكم عليه اجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) اعلم ان هذا هو القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة واعلم ان هذا معطوف على قوله ولقد أرسلنا نوحا والتقدير ولقد أرسلنا الى عاد أخاهم هودا وقوله هودا عطف بيان واعلم انه تعالى وصف هودا بأنه أخوهم ومعلوم ان تلك الاخوة ما كانت فى الدين وانما كانت فى النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ونظيره ما يقال للرجل يا أخا تميم و يا أخا سليم والمراد رجل منهم فان قيل انه تعالى قال فى ابن نوح انه ليس من أهلك فبين ان قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وههنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين فما الفرق بينهما قلنا المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم لان قومه كانوا يستبعدون فى محمد مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا اليهم من عند الله فذكر الله تعالى أن هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد واعلم انه تعالى حكى عن هود عليه السلام انه دعا قومه الى أنواع من التكاليف (فالنوع الاول) انه دعاهم الى التوحيد فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل ان أقام الدلالة على ثبوت الاله تعالى قلنا دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهى دلائل الآفاق والانفس وقلما توجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله تعالى ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله * قال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازى رحمه الله وختم له

(فلا تسألنى) اى اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى (ماليس لك به علم) اى مطلبا لا تعلم يقينا أن حصوله صواب و موافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسؤل الذى هو مفعول للسؤال أو طلبا لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال و يجوز أن يكون المعنى ماليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى و على التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشئ داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج ﴿ ١٣ ﴾ خا بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك بتلاطم الامواج أو بتقريبها اليه وقيل او بانجائه فى قلة الجبل و يأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ومجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام

أن يدعوه الى الفلك أو يدعوه به لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص فى الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله ساوى الى جبل يعصمنى من الماء بعدما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى ايمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوى ﴿ ٩٨ ﴾ أو يعصمنا فان افراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام الا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل ما يأتى ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرئ فلا تسألن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب انى أعوذ بك أن أسألك) أى أطلب منك من بعد (ما ليس لى به علم) أى مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة فى التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (والا تغفر لى) ما صدر عنى من السؤال المذكور (وترحمنى) بقبول توبتى (أكن من الخاسرين) أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التى هى النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا يعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه انه عمل غير صالح والتضرع الى الله تعالى

بالحسنى دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الاله وأكثر بلاد الترك أيضا كذلك وانما الشأن فى عبادة الاوثان فانها آفة عمت أكثر أطراف الارض وهكذا الامر كان فى الزمان القديم أعنى زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام فهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يمنعونهم من عبادة الاصنام فكان قوله اعبدوا الله معناه لا تعبدوا غير الله والدليل عليه أنه قال عقيبه ما لكم من اله غيره وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الاصنام وأما قوله ما لكم من اله غيره فقرئ غيره بالرفع صفة على محل الجار والمجرور وقرئ بالجر صفة على اللفظ ثم قال ان أنتم الا مفترون يعنى انكم كاذبون فى قولكم ان هذه الاصنام تحسن عبادتها أو فى قولكم انها تستحق العبادة وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهى جمادات لا حس لها ولا ادراك والانسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالانسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها ثم انه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم الى التوحيد ومنعهم عن عبادة الاوثان قال ويا قوم لا أسألكم عليه اجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام وذلك لان الدعوة الى الله تعالى اذا كانت مطهرة عن دنس الطمع قوى تأثيرها فى القلب ثم قال أفلا تعقلون يعنى أفلا تعقلون انى مصيب فى المنع من عبادة الاصنام وذلك لان العلم بصحة هذا المنع كأنه مركوز فى بداية العقول * قوله تعالى (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) اعلم أن هذا هو النوع الثانى من التكاليف التى ذكرها هود عليه السلام لقومه وذلك لانه فى المقام الاول دعاهم الى التوحيد وفى هذا المقام دعاهم الى الاستغفار ثم الى التوبة والفرق بينهما قد تقدم فى أول هذه السورة قال أبو بكر الاصم استغفروا أى سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعودوا الى مثله ثم انه عليه السلام قال انكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم وهذا غاية ما يراد من السعادات فان النعم ان لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وان كانت حاصلة الا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا أما اذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى يرسل السماء عليكم مدرارا اشارة الى تكثير النعم لان مادة حصول النعم هى الامطار الموافقة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم اشارة الى كمال حال القوى التى بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ولا شك ان هذه الكلمة جامعة فى البشارة بتحصيل السعادات وان الزيادة عليها ممتنعة فى صريح العقل ويجب على العاقل أن يتأمل فى هذه اللطائف ليعرف ما فى هذا الكتاب الكريم من الاسرار المخفية وأما المفسرون فانهم قالوا القوم كانوا مخصوصين فى الدنيا بنوعين من الكمال (أحدهما) أن بساتينهم ومزارعهم كانت فى غاية الطيب

﴿ والبهجة ﴾

فى أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل القرابة الدينية غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم فى الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياسا على ما وقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة اصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لان ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما مر من الجواب المستدعى لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها الى ذكر قبولها فى ضمن الامر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجىء مفصلا ولا ريب فى أن هذه المعانى آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وان ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلاجرم

والبهجة والدليل عليه قوله ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد (والثانى) أنهم كانوا فى غاية القوة والبطش ولذلك قالوا من أشد منا قوة ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الامرين وعدهم هود عليه السلام انهم لو تركوا عبادة الاصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فان الله تعالى يقوى حالهم فى هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة ونقل أيضا ان الله تعالى لما بعث هودا عليه السلام اليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود ان آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد فذلك قوله يرسل السماء عليكم مدرارا والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم ففسروا هذه القوة بالمال والولد والشدة فى الاعضاء لان كل ذلك مما يتقوى به الانسان فان قيل حاصل الكلام هو أن هودا عليه السلام قال لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية وليس الامر كذلك لانه عليه الصلاة والسلام قال خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فكيف الجمع بينهما وأيضا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب فى الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والاخروية عليها فأما الترغيب فى الطاعات لاجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور فى التوراة (الجواب) انه لما أكثر الترغيب فى السعادات الاخروية لم يبعد الترغيب أيضا فى خير الدنيا بقدر الكفاية وأما قوله ولا تتولوا مجرمين فمعناه لا تعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه وأرغبكم فيه مجرمين أى مصرين على اجرامكم وآثامكم ❊ قوله تعالى (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) اعلم انه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم حكى أيضا ما ذكره القوم له وهو أشياء (أولها) قولهم ما جئتنا ببينة أى بحجة والبينة سميت بينة لانها تبين الحق من الباطل ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات الا أن القوم بجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشئ من المعجزات (وثانيها) قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وهذا أيضا ركيك لانهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وان الاصنام لا تنفع ولا تضر ومتى كان الامر كذلك فقد ظهر فى بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس (وثالثها) قوله وما نحن لك بمؤمنين وهذا يدل على الاصرار والتقليد والجحود (ورابعها) قولهم ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقال اعتراه كذا اذا غشيه وأصابه والمعنى انك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام انى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه وهو ظاهر ثم قال فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون وهذا نظير

اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هى التصريح بهلاكه من أول الامر ولو ذكر النداء الثانى عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الامر الى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الامر ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذى هو ﴿ ١٠٠ ﴾ عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودى فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أى بيان ثم تعرض لما وقع فى تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام و بين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يانوح اهبط) أى انزل من الفلك وقرئ بضم الباء (بسلام) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (منا) أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح فى العالمين (و بركات عليك) أى خيرات نامية فى نسلك ومايقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الارزاق وقرئ بركة وهذا اعلام و بشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه فى كل مايأتى ومايذر (وعلى أمم) ناشئة (ممن معك) الى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) أى ومنهم على انه خبر حذف لدلالة ماسبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعنى ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون فى الدنيا معذبون فى الآخرة وعلى هذا لايكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام

ماقاله نوح عليه السلام لقومه فأجمعوا أمركم وشركاءكم الى قوله ولاتنظرون واعلم ان هذا معجزة قاهرة وذلك أن الرجل الواحد اذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم بالغوا فى عداوتى وفى موجبات ايذائى ولاتؤجلون فانه لايقول هذا الا اذا كان واثقا من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الاعداء ثم قال مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها قال الازهرى الناصية عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس و يسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته واعلم أن العرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ماناصية فلان الا بيد فلان أى انه مطيع له لان كل من أخذت بناصيته فقد قهرته وكانوا اذا أسروا الاسير فأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون فقوله مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها أى مامن حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ثم قال أن ربى على صراط مستقيم وفيه وجوه (الاول) انه تعالى لما قال مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله ان ربى على صراط مستقيم أى انه وان كان قادرا عليهم لكنه لايظلمهم ولايفعل بهم الا ماهو الحق والعدل والصواب قالت المعتزلة قوله مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها يدل على التوحيد وقوله ان ربى على صراط مستقيم يدل على العدل فثبت ان الدين انما يتم بالتوحيد والعدل (الثانى) انه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله ان ربى على صراط مستقيم يعنى أنه لايخفى عليه مستتر ولايفوته هارب فذكر الصراط المستقيم وهو يعنى به الطريق الذى لايكون لاحد مسلك الا عليه كما قال ان ربك لبالمرصاد (الثالث) أن يكون المراد ان ربى يدل على الصراط المستقيم أى يحث أو يحملكم بالدعاء اليه * قوله تعالى (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم و يستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئا ان ربى على كل شئ حفيظ) اعلم أن قوله فان تولوا يعنى فان تتولوا ثم فيه وجهان (الاول) تقدير الكلام فان تتولوا لم أعاتب على تقصير فى الابلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول أنتم الذين أصررتم على التكذيب (الثانى) فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به أليكم ثم قال و يستخلف ربى قوما غيركم يعنى يخلق بعدكم من هو اطوع لله منكم وهذا اشارة الى نزول عذاب الاستئصال ولاتضرونه شيئا يعنى ان اهلاككم لاينقص من ملكه شيئا ثم قال ان ربى على كل شئ حفيظ وفيه ثلاثة أوجه (الاول) حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها (الثانى) يحفظنى من شركم ومكركم (الثالث) حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك اذا شاء و يهلكه اذا شاء * قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) اعلم أن قوله ولما جاء أمرنا أى عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام

ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى امم هم الذين معك وانما سموا أمما لانهم امم متحزبة
وجماعات متفرقة أولان جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم فى قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الامم
المتشعبة منهم وهى الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول
عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره ﴿ ١٠١ ﴾ المحذوف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية
فتأمل (ثم يمسهم) اما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا (منا عذاب أليم) عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم (تلك) اشارة الى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبر (من انباء الغيب) أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الانباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها (نوحيها اليك) خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك اوهو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة اليك (ما كنت تعلمها انت ولا قومك)
خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) أى من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته
بالوحى أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهلا أنت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيها
على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على
الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل

تدخل فى مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية فان قيل فهذه الريح كيف تؤثر فى اهلاكهم قلنا يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشدة قوتها فتخطف الحيوان من الارض ثم تضرب به على الارض فكل ذلك محتمل وأما قوله نجينا هودا فاعلم أنه يجوز اتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر فأما العذاب النازل بمن يكذب الانبياء عليهم السلام فانه يجب فى حكمة الله تعالى أن ينجى المؤمن منه ولولا ذلك لما عرف به كونه عذابا على كفرهم فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا نجينا هودا والذين آمنوا معه * وأما قوله برحمة منا ففيه وجوه (الاول) أراد أنه لا ينجو أحد وان اجتهد فى الايمان والعمل الصالح الا برحمة من الله (والثانى) المراد من الرحمة ما هداهم اليه من الايمان بالله والعمل الصالح (الثالث) أنه رحمهم فى ذلك الوقت وميزهم عن الكافرين فى العقاب * وأما قوله ونجيناهم من عذاب غليظ فالمراد من النجاة الاولى هى النجاة من عذاب الدنيا والنجاة الثانية من عذاب القيامة وانما وصفه بكونه غليظا تنبيها على أن العذاب الذى حصل لهم بعد موتهم بالنسبة الى العذاب الذى وقعوا فيه كان عذابا غليظا والمراد من قوله تعالى ونجيناهم أى حكمنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد فهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا * ثم انه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة فاما أوصافهم فهى ثلاثة (الصفة الاولى) قوله جحدوا بآيات ربهم والمراد انهم جحدوا دلالة المعجزات على الصدق أو جحدوا دلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ان ثبت أنهم كانوا زنادقة (الصفة الثانية) قوله وعصوا رسله والسبب فيه أنهم اذا عصوا رسولا واحدا فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقيل لم يرسل اليهم الا هود عليه السلام (الصفة الثالثة) قوله واتبعوا أمر كل جبار عنيد والمعنى ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم ما هذا الا بشر مثلكم والمراد من الجبار المرتفع المتمرد والعنيد العنود والمعاند وهو المنازع المعارض * واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة أى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا وفى الآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ثم انه تعالى بين السبب الاصلى فى نزول هذه الاحوال المكروهة بهم فقال ألا ان عادا كفروا ربهم قيل أراد كفروا بربهم فحذف الباء وقيل الكفر هو الجحد فالتقدير ألا ان عادا جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم ثم قال ألا بعدا لعاد قوم هود وفيه سؤالان (السؤال الاول) اللعن هو البعد فلما قال وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة فما الفائدة فى قوله ألا بعدا لعاد (والجواب)

التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد (السؤال الثانى) ما الفائدة فى قوله لعاد قوم هود (الجواب) كان عاد عادين فالاولى القديمة هم قوم هود والثانية هم ارم ذات العماد فذكر ذلك لازالة الاشتباه (والثانى) ان المبالغة فى التنصيص تدل على مزيد التأكيد * قوله تعالى (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة وهى قصة صالح مع ثمود ونظمها مثل النظم المذكور فى قصة هود الا أن ههنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر فى تقريره دليلين (الدليل الاول) قوله هو أنشأكم من الارض وفيه وجهان (الاول) ان الكل مخلوقون من صلب آدم وهو كان مخلوقا من الارض وأقول هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه وذلك لان الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى انما تولد من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما تولد من الاغذية وهذه الاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانات حالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات وظاهر أن تولد النبات من الارض فثبت انه تعالى أنشأنا من الارض (والوجه الثانى) أن تكون كلمة من معناها فى والتقدير أنشأكم فى الارض وهذا ضعيف لانه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة الى صرفه عنه وأما تقرير أن تولد الانسان من الارض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مرارا كثيرة (الدليل الثانى) قوله واستعمركم فيها وفيه ثلاثة أوجه (الاول) جعلكم عمارها قالوا كان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار لاجرم حصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله تعالى اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى وأخذ معاوية فى احياء أرض فى آخر عمره فقيل له ما حملك عليه فقال ما حملنى عليه الا قول القائل

ليس الفتى بفتى لايستضاء به * ولايكون له فى الارض آثار

(الثانى) أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق واستعمركم من العمر مثل استبقاكم من البقاء (والثالث) انه مأخوذ من العمرى أى جعلها لكم طول أعماركم فاذا متم انتقلت الى غيركم واعلم أن فى كون الارض قابلة للعمارات النافعة للانسان وكون الانسان قادرا عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع و يرجع حاصله الى ماذكره الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله والذى قدر فهدى وذلك لان حدوث الانسان مع انه حصل فى ذاته العقل الهادى والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الارض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضا على وجود الصانع الحكيم أما قوله فاستغفروه ثم توبوا اليه فقد تقدم تفسيره * وأما قوله ان ربى قريب مجيب يعنى انه

هذا أى واذ قد أوحيناها اليك او علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ماسمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك الخ (ان العاقبة) بالظفر فى الدنيا و بالفوز فى الآخرة (للمتقين) كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه اسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للامر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام و يهون عليه الخطوب و يذهب عنه ماعسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الاولى منه اعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى و يجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق و يتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين (والى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الاعراف وقوله تعالى (هودا) عطف بيان لاخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبد الله بن رباح بن ﴿ قريب ﴾
الخلود بن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ابن عم أبى عاد وانما جعل منهم لانهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه (قال) لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل

قال (ياقوم اعبدوا الله) أى وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى (مالكم من اله غيره) فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه (ان أنتم) ما أنتم باتخاذكم الاصنام شركاء له أو بقولكم ان الله أمرنا بعبادتها (الامفترون) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ياقوم لااسألكم عليه أجرا ﴿١٠٣﴾ ان أجرى الا على الذى فطرنى) خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها مادامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة الشكر الذى لايتأتى الابالجريان على موجب أمر الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الاجر (أفلا تعقلون) أى أتغفلون عن هذه القضية أولاتتفكرون فيها فلاتعقلونها او أتجهلون كل شئ فلاتعقلون شيئا أصلا فان هذا ممالاينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء (وياقوم استغفروا ربكم) أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة (ثم توبوا اليه) أى توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدرور (ويزدكم قوة) مضافة ومنضمة (الى قوتكم) أى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة (ولا تتولوا) أى لاتعرضوا عما دعوتكم اليه (مجرمين) مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى بتاركى

قريب بالعلم والسمع مجيب دعاء المحتاجين بفضله ورحمته ثم بين تعالى أن صالحا عليه السلام لما قرر هذه الدلائل قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا وفيه وجوه (الاول) انه لما كان رجلا قوى العقل قوى الخاطر وكان من قبيلتهم قوى رجاؤهم فى أن ينصر دينهم ويقوى مذهبهم ويقرر طريقتهم لانه متى حدث رجل فاضل فى قوم طمعوا فيه من هذا الوجه (الثالث) قال بعضهم المراد انك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك انك من الانصار والاحباب فكيف أظهرت العداوة والبغضة ثم انهم أضافوا الى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله فقالوا أتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلام ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب ثم قالوا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب والشك هو أن يبقى الانسان متوقفا بين النفى والاثبات والمريب هو الذى يظن به السوء فقوله واننا لفى شك يعنى به انه لم يترجح فى اعتقادهم صحة قوله وقوله مريب يعنى انه ترجح فى اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة فى تزييف كلامه * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) اعلم أن قوله ان كنت على بينة من ربى ورد بحرف الشك وكان على يقين تام فى امره الا ان خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول فكأنه قال قدروا أنى على بينة من ربى وأنى نبى على الحقيقة وانظروا انى ان تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره فمن يمنعنى من عذاب الله فما تزيدوننى على هذا التقدير غير تخسير وفى تفسير هذه الكلمة وجهان (الاول) ان على هذا التقدير تخسرون أعمالى وتبطلونها (الثانى) ان يكون التقدير فما تزيدوننى بما تقولون لى وتحملوننى عليه غير أن أخسركم أى أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم خاسرون والقول الاول أقرب لان قوله فمن ينصرنى من الله ان عصيت كالدلالة على انه أراد ان أتبعكم فيما أنتم عليه من الكفر الذى دعوتمونى اليه لم ازدد الا خسرانا فى الدين فاصير من الهالكين الخاسرين * قوله تعالى (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب) اعلم ان العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الاصنام أن يبتدئ بالدعوة الى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لابد وأن يطلبوا منه المعجز وأمر صالح عليه السلام هكذا كان *يروى أن قومه خرجوا فى عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سالوا واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه (الاول) انه تعالى خلقها من الصخرة (وثانيها) انه تعالى خلقها فى جوف الجبل ثم شق عنها الجبل (وثالثها) انه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر (ورابعها) انه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة

عبادتها (عن قولك) أى صادرين عنه أى صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الاعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (وما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين فى شىء مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى (ان نقول الا اعتراك) أى ما نقول الا قولنا اعتراك أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) بجنون بسبب سبك اياها وصدك عن عبادتها وحطك اياها عن رتبة الالوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها او الجملة مقول القول والا لغو لان الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك الا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الادنى الى الاعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله

(وخامسها) ما روى أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر (وسادسها) انه كان يحصل منها لبن كثير يكفى الخلق العظيم وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوى وليس فى القرآن الا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة فأما بيان أنها كانت معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه * ثم قال فذروها تأكل فى ارض الله والمراد انه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روى انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى اخفائها وابطالها بأقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال ولا تمسوها بسوء وتوعدهم ان مسوها بسوء بعذاب قريب وذلك تحذير شديد لهم من الاقدام على قتلها ثم بين الله تعالى انهم مع ذلك عقروها وذبحوها ويحتمل انهم عقروها لابطال تلك الحجة وأن يكون لانها ضيقت الشرب على القوم وأن يكون لانهم رغبوا فى شحمها ولحمها وقوله فيأخذكم عذاب قريب يريد اليوم الثالث وهو قوله تمتعوا فى داركم * ثم بين تعالى ان القوم عقروها فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ومعنى التمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ولما كان التمتع لا يحصل الا للحى عبر به عن الحياة وقوله فى داركم فيه وجهان (الاول) ان المراد من الدار البلد وتسمى البلاد بالديار لانه يدار فيها أى يتصرف يقال ديار بكر أى بلادهم (الثانى) ان المراد بالديار الدنيا * وقوله ذلك وعد غير مكذوب أى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول و بأيكم المفتون وقيل غير مكذوب فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما انه تعالى لما أمهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم فى الايمان وذلك لانهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب فقالوا وما علامة ذلك فقال تصير وجوهكم فى اليوم الاول مصفرة وفى الثانى محمرة وفى الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب فان قيل كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح عليه السلام ثم يبقون مصرين على الكفر قلنا ما دامت الامارات غير بالغة الى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر واذا صارت يقينية قطعية فقد انتهى الامر الى حد الالجاء والايمان فى ذلك الوقت غير مقبول * قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) اعلم ان مثل هذه الآية قد مضى فى قصة عاد وقوله ومن خزى يومئذ فيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو فى قوله ومن خزى واو العطف وفيه وجهان (الاول) أن يكون التقدير نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزى

أني بوء فكون (قال اني أشهد الله واشهدوا اني برىء مما تشركون من دونه) أى من اشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال في سورة الاعراف أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وانها بمعزل من ذلك ولما كان ما وقع أولا منه عليه الصلاة والسلام في حق آلهتهم من كونها ﴿ ١٠٥ ﴾ بمعزل عن الالوهية انما وقع في ضمن الامر بعبادة الله تعالى

واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك و يشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون في ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال في ذلك فقال (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) أى ان صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها و يصد عن عبادتها ولو بطريق ضمني فاني برىء منها فكونوا أنتم معها جميعا و باشروا كيدي ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك فالفاء لتفريع الامر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا و على البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا

مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة ﴿ ١٤ ﴾ خا عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادي المضادة والمضارة وحثهم على التصدي لاسباب المعازة والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال (اني توكلت على الله ربي وربكم)

الذي لزمهم و بقي العار فيه مأثورا عنهم ومنسوبا اليهم لان معنى الخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحيا من مثله فحذف ما حذف اعتمادا على دلالة ما بقي عليه (الثاني) أن يكون التقدير نجينا صالحا برحمة منا ونجيناهم من خزي يومئذ (المسئلة الثانية) قرأ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون واحدى الروايات عن الاعشى يومئذ بفتح الميم وفي المعارج عذاب يومئذ والباقون بكسر الميم فيهما فمن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف الى اذ وأن اذ مبني والمضاف الى المبني يجوز جعله مبنيا ألا ترى ان المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتنكير فكذا ههنا وأما الكسر في اذ فالسبب أنه يضاف الى الجملة من المبتدا والخبر تقول جئتك اذ الشمس طالعة فلما قطع عنه المضاف اليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين وأما القراءة بالكسر فعلى اضافة الخزي الى اليوم ولم يلزم من اضافته الى المبني أن يكون مبنيا لان هذه الاضافة غير لازمة (المسئلة الثالثة) الخزي الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى في المحاربين ذلك لهم خزي في الدنيا وانما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزيا لانه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال ان ربك هو القوي العزيز وانما حسن ذلك لانه تعالى بين أنه أوصل ذلك العذاب الى الكافر وصان أهل الايمان عنه وهذا التمييز لا يصح الا من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الاشياء فيجعل الشيء الواحد بالنسبة الى انسان بلاء وعذابا و بالنسبة الى انسان آخر راحة وريحانا * ثم انه تعالى بين ذلك الامر فقال وأخذ الذين ظلموا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انما قال أخذ ولم يقل أخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وأيضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقد سبق لها نظائر (المسئلة الثانية) ذكروا في الصيحة وجهين قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد الصاعقة (الثاني) الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جاثمين في دورهم ومساكنهم وجثومهم سقوطهم على وجوههم يقال انه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها والصياح لا يكون الا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ فان كان من فعل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وان كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه والدليل عليه ان صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ فان قيل فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت قلنا فيه وجوه (أحدها) أن الصيحة العظيمة انما تحدث عند سبب قوي يوجب تموج الهواء وذلك التموج الشديد ربما يتعدى الى صماخ الانسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت (والثاني) انها شيء مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والاعراض النفسانية اذا قويت أوجبت الموت (الثالث) ان الصيحة العظيمة اذا حدثت من السحاب فلا بد وأن يصحبها برق شديد محرق وذلك هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس

رضى الله عنهما * ثم قال تعالى فأصبحوا فى ديارهم جاثمين والجثوم هو السكون يقال للطير اذا باتت فى أوكارها انها جثمت ثم ان العرب اطلقوا هذا اللفظ على مالا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله كأن لم يغنوا فيها أى كأنهم لم يوجدوا والمغنى المقام الذى يقيم الحى به يقال غنى الرجل بمكان كذا اذا أقام به * ثم قال تعالى ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود قرأ حمزة وحفص عن عاصم ألا ان ثمود غير منون فى كل القرآن وقرأ الباقون ثمودا بالتنوين ولثمود كلاهما بالصرف والصرف للذهاب الى الحى أو الى الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة * قوله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون دخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام فى لقد لتأكيد الخبر ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل الى اثباته الا بدليل آخر وأجمعوا على أن الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام ثم اختلفت الروايات فقيل أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون فى غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وهم الذين ذكرهم الله فى سورة والذاريات فى قوله هل أتاك حديث ضيف ابراهيم وفى الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بالبشرى على وجهين (الاول) ان المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب (الثانى) ان المراد منه أنه بشر ابراهيم عليه السلام بسلامة لوط وباهلاك قومه * وأما قوله قالوا سلاما قال سلام ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى قالوا سلم قال سلم بكسر السين وسكون اللام بغير ألف وفى والذاريات مثله قال الفراء لا فرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لان فى التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه قال أبو على الفارسى ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قال انا سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامى كما يمتنع من تناول طعام العدو وهذا الوجه عندى بعيد لان على هذا التقدير ينبغى أن يكون تكلم ابراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد احضار الطعام الا أن القرآن يدل على ان هذا الكلام انما وجد قبل احضار الطعام لانه تعالى قال قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ والفاء للتعقيب فدل ذلك على

يعنى انكم وان بذلتم فى مضارتى مجهودكم لا تقدرون على شئ مما تريدون بى فانى متوكل على الله تعالى وانما جئ بلفظ الماضى لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءته وحفظه عن غوائلكم وهو مالكى ومالككم لا يصدر عنكم شئ ولا يصيبنى أمر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أى الا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الاخذ بالناصية تمثيل لذلك * ١٠٦ * (ان ربى على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لان فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فان تولوا) أى تتولوا بحذف احدى التاءين أى ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والاعراض (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) أى لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ وكنتم محجوجين بان بلغكم الحق فأبيتم الا التكذيب والجحود (ويستخلف ربى قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلككم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرنى ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفى اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام رمز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين (ولا تضرونه) بتوليكم (شيئا) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون * أن * (ان ربى على كل شئ حفيظ) أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شئ فكيف يضره شئ وهو الحافظ للكل (ولما جاء أمرنا) أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالامر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجئ

مالايخفى من التفخيم والتهويل او ورد أمرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة) عظيمة كائنة له (منا) وهى الايمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم اربا اربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب ﴿ ١٠٧ ﴾ أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجئ الامر

أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام (المسئلة الثانية) قالوا سلاما تقديره سلمنا عليك سلاما قال سلام تقديره أمرى سلام أى لست مريدا غير السلامة والصلح قال الواحدى ويحتمل أن يكون المراد سلام عليكم فجاء به مرفوعا حكاية لقوله كما قال وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله فصبر جميل وانما يحسن هذا الحذف اذا كان المقصود معلوما بعد الحذف وههنا المقصود معلوم فلاجرم حسن الحذف ونظيره قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام على حذف الخبر واعلم أنه انما سلم بعضهم على بعض رعاية للاذن المذكور فى قوله تعالى لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسئلة الثالثة) أكثر مايستعمل سلام عليكم بغير ألف ولام وذلك لانه فى معنى الدعاء فهو مثل قولهم خير بين يديك فان قيل كيف جاز جعل النكرة مبتدأ قلنا النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ فاذا قلت سلام عليكم فالتنكير فى هذا الموضع يدل على التمام والكمال فكأنه قيل سلام كامل تام عليكم ونظيره قولنا سلام عليك وقوله تعالى قال سلام عليك سأستغفر لك ربى وقوله سلام قولا من رب رحيم سلام على نوح فى العالمين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم فاما قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فهذا أيضا جائز والمراد منه الماهية والحقيقة وأقول قوله سلام عليكم أكمل من قوله السلام عليكم لان التنكير فى قوله سلام عليكم يفيد الكمال والمبالغة والتمام وأما لفظ السلام فانه لايفيد الا الماهية قال الاخفش من العرب من يقول سلام عليكم فيعرى قوله سلام عن الالف واللام والتنوين والسبب فى ذلك أن كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف والله أعلم * ثم قال تعالى فما لبث أن جاء بعجل حنيذ قالوا مكث ابراهيم خمس عشرة ليلة لايأتيه ضيف فاغتم لذلك ثم جاءه الملائكة فرأى اضيافا لم ير مثلهم فعجل وجاء بعجل حنيذ فقوله فما لبث أن جاء بعجل حنيذ معناه فما لبث فى المجئ به بل عجل فيه أو التقدير فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة أما الحنيذ فهو الذى يشوى فى حفرة من الارض بالحجارة المحماة وهو من فعل أهل البادية معروف وهو محنوذ فى الاصل كما قيل طبيخ ومطبوخ وقيل الحنيذ الذى يقطر دسمه يقال حنذت الفرس اذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقا ثم قال تعالى فلما رأى أيديهم لاتصل اليه أى الى العجل وقال الفراء الى الطعام وهو ذلك العجل نكرهم أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره واعلم أن الاضياف انما امتنعوا من الطعام لانهم ملائكة والملائكة لايأكلون ولايشربون وانما أتوه فى صورة الاضياف ليكونوا على صفة يحبها وهو كان مشغوفا بالضيافة وأما ابراهيم عليه السلام فنقول اما أن يقال انه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر أو يقال انه كان عالما بأنهم من الملائكة أما على الاحتمال الاول فسبب خوفه أمران (أحدهما) أنه كان ينزل فى طرف من الارض بعيد من الناس فلما امتنعوا من الاكل خاف أن يريدوا به مكروها (وثانيها) ان من

لكن مجيئها بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلك عاد) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أولان الاشارة الى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعدما استيقنوها (وعصوا رسوله) جمع الرسل مع أنه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لانفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ماأتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للامر من أوصاف الاسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عندا وعنودا اذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من حداهم الى الردى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ابعادا عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لاتفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى انهم

لماتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا (و يوم القيامة) اى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الاولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم يجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا و يوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى وا كتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير و بالحسنة الاخروية الثواب والرحمة ﴿ ١٠٨ ﴾ (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى بربهم أونعمة ربهم جلاله على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قوم هود) عطف بيان لعاد فائدته التميز عن عاد الثانية عاد ارم والايماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ماجرى بينهم و بين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (والى ثمود أخاهم صالحا) عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسئل و يقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحده وعلل ذلك بقوله (مالكم من اله غيره) ثم زيد فيما بعثهم ﴿ يعذبهم ﴾ على الايمان والتوحيد و يحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله (هو أنشأكم من الارض) أى هو كونكم وخلقكم منها لا غيره قصر قلب أو قصرا فراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد

لا يعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان أكل حصل الامن وان لم يأكل حصل الخوف وأما الاحتمال الثانى وهو انه عرف انهم ملائكة الله تعالى فسبب خوفه على هذا التقدير أيضا أمران (أحدهما) انه خاف أن يكون نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه (والثانى) انه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه * فان قيل فأى هذين الاحتمالين أقرب وأظهر قلنا أما الذى يقول انه ماعرف انهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور (أحدها) أنه تسارع الى احضار الطعام ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك (وثانيها) أنه لما رآهم ممتنعين من الاكل خافهم ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الاكل على حصول الشر (وثالثها) انه رآهم فى أول الامر فى صورة البشر وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة وأما الذى يقول انه عرف ذلك احتج بقوله لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط وانما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأى سبب ارسلوا * ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ومعناه أرسلنا بالعذاب الى قوم لوط لانه أضمر لقيام الدليل عليه فى سورة أخرى وهو قوله انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة * ثم قال تعالى وامرأته قائمة يعنى سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم ابراهيم عليه السلام وقوله قائمة قيل كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل لانها ربما خافت أيضا وقيل كانت قائمة تخدم الاضياف وابراهيم عليه السلام جالس معهم و يؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وامرأته قائمة وهو قاعد * ثم قال تعالى فضحكت فبشرناها باسحق واختلفوا فى الضحك على قولين منهم من حمله على نفس الضحك ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا فى أنها لم ضحكت وذكروا وجوها (الاول) قال القاضى ان ذلك السبب لابد وأن يكون سببا جرى ذكره فى هذه الآية وماذاك الا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن ابراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه وفى مثل هذه الحالة قد يضحك الانسان و بالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لابراهيم عليه السلام لا تخف فكان كالبشارة فقيل لها نجعل هذه البشارة بشارتين فكما حصلت البشارة بزوال الخوف فقد حصلت البشارة أيضا بحصول الولد الذى كنتم تطلبونه من أول العمر الى هذا الوقت وهذا تأويل فى غاية الحسن (الثانى) يحتمل أنها كانت عظيمة الانكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث فلما أظهروا انهم جاؤا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكت (الثالث) قال السدى قال ابراهيم عليه السلام لهم ألا تأكلون قالوا لا نأكل طعاما الا بالثمن فقال ثمنه ان تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلا فضحكت امرأته فرحا منها بهذا الكلام (الرابع) ان سارة قالت لابراهيم عليه السلام أرسل الى ابن أخيك وضمه الى نفسك فان الله تعالى لا يترك قومه حتى

الى يوم القيامة انطواء اجاليا وقيل ان خلق ادم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب
انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر (واستعمركم) من العمر اى عمركم واستبقاكم (فيها) أو من العمارة أى أقدركم على
عمارتها وأمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم
تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمن بعدكم ﴿١٠٩﴾ (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فان ما فصل من فنون الاحسان داع
الى الاستغفار عما وقع منهم
من التفريط والتوبة عما كانوا
يباشرونه من القبائح وقد زيد
فى بيان ما يوجب ذلك فقيل
(ان ربى قريب) أى قريب
الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله
قريب من المحسنين (مجيب)
لمن دعاه وساله وقد روعى
فى النظم الكريم نكتة حيث
قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة
على الامر بالاستغفار والتوبة
وأخر عنه ذكر الغاية المتأخرة
عنهما فى الوجود أعنى الاجابة
(قالوا يا صالح قد كنت فينا
مرجوا) أى كنا نرجو منك
لما كنا نرى منك من دلائل
السداد ومخايل الرشاد
أن تكون لنا سيدا ومستشارا
فى الامور وعن ابن عباس
رضى الله تعالى عنهما فاضلا
خيرا نقدمك على جميعنا وقيل
كنا نرجو أن تدخل فى ديننا
وتوافقنا على ما نحن عليه (قبل
هذا) الذى باشرته من الدعوة
الى التوحيد وترك عبادة الآلهة
أو قبل هذا الوقت فكأنهم
لم يكونوا الى الآن على ياس
من ذلك ولو بعد الدعوة
الى الحق فالآن قد انصرم
عنك رجاؤنا وقرأ طلحة
مرجوا بالمد والهمزة (أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا) أى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية
(واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) أى موقع
فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد
مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم (قال يا قوم أرأيتم) أى اخبرونى (ان كنت

يعذبهم فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على ابراهيم عليه السلام فلما أخبروه بأنهم
انما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقا لقولها فضحكت لشدة سرورها بحصول
الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة (الخامس) ان الملائكة لما أخبروا ابراهيم
عليه السلام أنهم من الملائكة لا من البشر وانهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب ابراهيم
عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى
فطفر ذلك العجل المشوى من الموضع الذى كان موضوعا فيه الى مرعاه وكانت امرأة
ابراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه
(السادس) انها ضحكت تعجبا من أن قوما أتاهم العذاب وهم فى غفلة (السابع) لا يبعد
أن يقال انهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت اما على سبيل التعجب فانه يقال انها
كانت فى ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وابراهيم عليه السلام ابن مائة سنة واما على
سبيل السرور ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بان ذلك الولد هو اسحق ومن وراء اسحق
يعقوب (الثامن) انها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف ابراهيم عليه السلام من
ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه (التاسع) ان هذا على التقديم والتأخير
والتقدير وامرأته قائمة فبشرناها باسحق فضحكت سرورا بسبب تلك البشارة فقدم
الضحك ومعناه التأخير (الثانى) هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن
مجاهد وعكرمة قالا ضحكت اى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف فلما ظهر حيضها
بشرت بحصول الولد وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت قال أبو بكر
الانبارى هذه اللغة ان لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم حكى الليث فى هذه الآية
فضحكت طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم ان أصله من ضحاك الطلعة يقال ضحكت
الطلعة اذا انشقت واعلم ان هذه الوجوه كلها زوائد وانما الوجه الصحيح هو الاول ثم قال
تعالى ومن وراء اسحق يعقوب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وحمزة
وحفص عن عاصم و يعقوب بالنصب والباقون بالرفع أما وجه النصب فهو أن يكون
التقدير بشرناها باسحق ومن وراء اسحق وهبنا لها يعقوب وأما وجه الرفع فهو أن يكون
التقدير ومن وراء اسحق يعقوب مولود أو موجود (المسئلة الثانية) فى لفظ وراء قولان
(الاول) وهو قول الاكثرين ان معناه بعد أى بعد اسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر
(والثانى) ان الوراء ولد الولد عن الشعبى انه قيل له هذا ابنك فقال نعم من الوراء وكان ولد
ولده وهذا الوجه عندى شديد التعسف واللفظ كانه ينبو عنه * قوله تعالى (قالت
يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة
الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال
الفراء أصل الويل وى وهو الخزى و يقال وى لفلان أى خزى له فقوله ويلك أى خزى لك
وقال سيبويه ويح زجر لمن أشرف على الهلاك وويل لمن وقع فيه قال الخليل ولم أسمع

في الحقيقة (على بينة) اى حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربى) مالكى ومتولى أمرى (وآتانى منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبار الحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرنى من الله) أى ينجينى من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ان عصيته) أى بالمساهلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شانه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل (فما تزيدوننى) اذن باستتباعكم اياى كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لاتفيدوننى اذلم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) أى غير أن تجعلونى خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ماينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتاءه النبوة (وياقوم هذه ناقة الله) الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر مايجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية) معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل مافى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو أخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الارض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الامر بتركها وشانها (ولاتمسوها بسوء) بولغ فى النهى عن التعرض لهـا بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لاتضربوها ولاتطردوها

على بنائه الاويح وويس وويك وويه وهذه الكلمات متقاربة فى المعنى وأما قوله ياويلتا فنهم من قال هذه الالف ألف الندبة وقال صاحب الكشاف الالف فى ويلتا مبدلة من ياء الاضافة فى ياويلتى وكذلك فى يالهفا وياعجبا ثم أبدل من الياء والكسرة الالف والفتحة لان الفتح والالف أخف من الياء والكسرة أما قوله أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو آلد بهمزة ومدة والباقون بهمزتين بلامد (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول انها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر بيان المقدمة الاولى من ثلاثة أوجه (أولها) قوله تعالى حكاية عنها فى معرض التعجب أألد وأنا عجوز (وثانيها) قوله ان هذا لشئ عجيب (وثالثها) قول الملائكة لها أتعجبين من أمر الله واما بيان ان التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر فلان هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى وذلك يوجب الكفر (والجواب) انها انما تعجبت بحسب العرف والعادة لابحسب القدرة فان الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبا ابريزا فلاشك انه يتعجب نظرا الى أحوال العادة لالاجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك (المسئلة الثالثة) قوله وهذا بعلى شيخا فاعلم ان شيخا نصب على الحال قال الواحدى رحمه الله وهذا من لطائف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قوله وهذا بعلى شيخا قائم مقام أن يقال أشير الى بعلى حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة (المسئلة الرابعة) قرأ بعضهم وهذا بعلى شيخ على انه خبر مبتدا محذوف أى هذا بعلى وهو شيخ أو بعلى بدل من المبتدا وشيخ خبر أو يكونان معا خبرين ثم حكى تعالى ان الملائكة قالوا أتعجبين من أمر الله والمعنى انهم تعجبوا من تعجبها ثم قالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت والمقصود من هذا الكلام ذكر مايزيل ذلك التعجب وتقديره ان رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت ان الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى اظهار خوارق العادات واحداث البينات والمعجزات فكيف يليق به التعجب وأما قوله أهل البيت فانه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ثم أكدوا ذلك بقولهم انه حميد مجيد والحميد هو المحمود وهو الذى تحمد أفعاله والمجيد الماجد وهو ذو الشرف والكرم ومن محامد الافعال ايصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ومن أنواع الفضل والكرم ان لايمنع الطالب عن مطلوبه فاذا كان من المعلوم انه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد فكيف يبقى هذا التعجب فى نفس الامر فثبت ان المقصود من ذكر هذه الكلمات ازالة التعجب * قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب) اعلم ان هذا هو القصة الخامسة وهى قصة لوط عليه السلام واعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس

ولاتقربوها بشئ من السوء فضلا عن عقرها وقتلها (فيأخذكم عذاب قريب) أى قريب النزول روى انهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء مخترجة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الايمان ذواب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فاترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل مافيها ثم تتفحج فيحلبون ماشاؤا حتى تملئ اوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) أى فى منازلكم أوفى الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (ذلك) اشارة الى مايدل عليه الامر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله * ويوم شهدناه سليما وعامرا * أوغير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه والا كذبه أووعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أوأمرنا بنزوله وفيه مالايخفى من التهويل (نجينا صالحا والذين آمنوا معه) متعلق بنجينا أو بآمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة (منا) وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر أوملتبسين

من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى انه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجئ البشرى بحصول الولد أخذ يجادلنا فى قوم لوط وجواب لما هو قوله أخذ الا انه حذف فى اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا واعلم أن قوله يجادلنا أى يجادل رسلنا فان قيل هذه المجادلة ان كانت مع الله تعالى فهى جراءة على الله والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ولان المقصود من هذه المجادلة ازالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ماكان راضيا بقضاء الله تعالى وانه كفر وان كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهى أيضا عجيبة لان المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا اهلاك قوم لوط فان كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون فى هذا الاهلاك فهذا سوء ظن بهم وان اعتقد فيهم انهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضى أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر (والجواب) من وجهين (الاول) وهو الجواب الاجمالى أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال ان ابراهيم لحليم أواه منيب ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه مايدل على المدح العظيم (والوجه الثانى) وهو الجواب التفصيلى أن المراد من هذه المجادلة سعى ابراهيم فى تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه (الاول) ان الملائكة قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية فقال ابراهيم أرأيتم لوكان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ثم قال ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولاتحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك فبان بهذا ان مجادلة ابراهيم عليه السلام انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم (الثانى) يحتمل أن يقال انه عليه السلام كان يميل الى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الايمان والتوبة عن المعاصى وربما وقعت تلك المجادلات بسبب ان ابراهيم كان يقول ان أمر الله ورد بايصال العذاب ومطلق الامر لايوجب الفور بل يقبل التراخى فاصبروا مدة أخرى والملائكة كانوا يقولون ان مطلق الامر يقبل الفور وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب وهذا الوجه عندى هو المعتمد (الوجه الثالث) فى الجواب لعل ابراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الامر وكان ذلك الامر مشروطا بشرط فاختلفوا فى أن ذلك الشرط هل حصل فى ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه وبالجملة نرى العلماء فى زماننا يجادل بعضهم بعضا عند التمسك بالنصوص وذلك لايوجب القدح فى واحد منهما فكذا ههنا ثم قال تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وهذا مدح عظيم

برحمة ورأفة منا (ومن خزي يومئذ) أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزي يومئذ أي من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه ههنا وفي المعارج في قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ (ان ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (هو القوي العزيز) القادر على كل شيء والغالب عليه لا غيره ولكون الاخبار بتنجية الاولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الاعداء فقال (وأخذ الذين ظلموا) عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أي صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وفي سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء (فأصبحوا) أي صاروا (في ديارهم) أي بلادهم ومساكنهم (جاثمين) هامدين ميتين لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك قيل لما رأوا العلامات التي بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله ﴿ ذراعا ﴾ عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أي كأنهم لم يقيموا (فيها) في بلادهم أو في مساكنهم وهو في موقع الحال أي أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد

من الله تعالى لابراهيم أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فانه يحب من غيره هذه الطريقة وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ثم ضم الى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله أواه منيب لان من يستعمل الحلم في غيره فانه يتأوه اذا شاهد وصول الشدائد الى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لاجل اهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ووصفه أيضا بأنه منيب لان من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فانه ينيب ويتوب ويرجع الى الله في ازالة ذلك العذاب عنهم أو يقال ان من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولا طريق الى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله الا التوبة والانابة فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيبا * قوله تعالى (يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) اعلم أن قوله يا ابراهيم أعرض عن هذا معناه ان الملائكة قالوا له اترك هذه المجادلة لانه قد جاء أمر ربك بايصال هذا العذاب اليهم واذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل الى دفعه فلذلك أمروه بترك المجادلة ولما ذكروا أنه قد جاء أمر ربك ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على ان هذا الامر بماذا جاء لاجرم بين الله تعالى أنهم آتيهم عذاب غير مردود أي عذاب لاسبيل الى دفعه ورده ثم قال ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا ابراهيم بالولد عليهم السلام قال ابن عباس رضي الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه (الاول) انه ظن انهم من الانس فخاف عليهم خبث قومه وان يعجزوا عن مقاومتهم (الثاني) ساءه مجيئهم لانه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادرا على القيام بحق ضيافتهم (والثالث) ساءه ذلك لان قومه منعوه من ادخال الضيف داره (الرابع) ساءه مجيئهم لانه عرف بالحذر انهم ملائكة وأنهم انما جاؤا لاهلاك قومه والوجه الاول هو الاصح لدلالة قوله تعالى وجاءه قومه يهرعون اليه وبقي في الآية ألفاظ ثلاثة لابد من تفسيرها (اللفظ الاول) قوله سيء بهم ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسيء مثل شغلته فشغل وسررته فسر قال الزجاج أصله سويء بهم الا ان الواو سكنت ونقلت كسرتها الى السين (واللفظ الثاني) قوله وضاق بهم ذرعا قال الازهري الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه البعير يذرع بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوته فاذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة فيقال مالي به ذرع ولا ذراع أي مالي به طاقة والدليل على صحة ما قلناه انهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالامر

ولم يقم فى مقام قط (ألا ان ثمود) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين (كفروا ربهم) صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى (ألا بعدا لثمود) وقرأ الكسائى بالتنوين (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل ﴿ ١١٣ ﴾ وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجىء بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الامم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا والى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين أخاهم شعيبا (بالبشرى) اى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه ﴿ ١٥ ﴾ خا بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط و يأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والاظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم (قالوا سلاما) اى سلمنا أو نسلم عليك سلاما

ذراعا (واللفظ الثالث) قوله هذا يوم عصيب أى يوم شديد وانما قيل للشديد عصيب لانه يعصب الانسان بالشر * قوله تعالى (وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيآت قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وانك لتعلم مانريد قال لو ان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم مارأيت أحسن وجوها ولا أنظف ثيابا ولا أطيب رائحة منهم فجاءه قومه يهرعون اليه اى يسرعون وبين تعالى أن اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله ومن قبل كانوا يعملون السيآت نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذى كان فيه جبريل عليه السلام فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه فمسح أعينهم بيده فعموا فقالوا يالوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة ولاهل اللغة فى يهرعون قولان (الاول) ان هذا من باب ماجاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو أولع فلان فى الامر وأرعد زيد وزهى عمرو من الزهو (والقول الثانى) انه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول وهذه الافعال حذف فاعلوها فتأويل أولع زيد أنه أولعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهيا وأهرع معناه أهرعه خوفه أو حرصه واختلفوا أيضا فقال بعضهم الاهراع هو الاسراع مع الرعدة وقال آخرون هو العدو الشديد أما قوله تعالى قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ففيه قولان قال قتادة المراد بناته لصلبه وقال مجاهد وسعيد بن جبير المراد نساء أمته لانهن فى أنفسهن بنات وله هن اضافة اليه بالمتابعة وقبول الدعوة قال أهل النحو يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب لانه كان نبيا لهم فكان كالاب لهم قال تعالى وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم وهذا القول عندى هو المختار و يدل عليه وجوه (الاول) ان اقدام الانسان على عرض بناته على الاوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل المروأة فكيف بأكابر الانبياء (الثانى) وهو انه قال هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فبناته اللواتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل (الثالث) انه صحت الرواية انه كان له بنتان وهما زنتا وزعورا واطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة فأما القائلون بالقول الاول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام مادعا القوم الى الزنا بالنسوان بل المراد انه دعاهم الى التزوج بهن وفيه قولان (أحدهما) انه دعاهم الى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الايمان (والثانى) انه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته وهكذا كان فى أول الاسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبى العاص بن الربيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبى لهب ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات

ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما (قال سلام) اى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم
باحسن من تحيتهم وقرئ سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما (فالبث) اى ابراهيم
(ان جاء بعجل) اى فى المجئ به أو ما ليث مجيئه بعجل (حنيذ) أى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه
لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه) لايمدون اليه
أيديهم للاكل (نكرهم)
اى أنكرهم يقال نكره
وأنكره واستنكره بمعنى وانما
أنكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم
ضيف ولم يأكل من طعامهم
ظنوا أنه لم يجئ بخير وقد روى
أنهم كانوا ينكتون بقداح
كانت فى ايديهم فى اللحم
ولاتصل اليه أيديهم وهذا
الانكار منه عليه الصلاة
والسلام راجع الى فعلهم
المذكور وأما انكاره المتعلق
بأنفسهم فلاتعلق له برؤية
عدم أكلهم وانما وقع ذلك
عند رؤيته لهم لعدم كونهم
من جنس ما كان يعهده من
الناس ألا يرى الى قوله تعالى
فى سورة الذاريات سلام قوم
منكرون (وأوجس منهم)
اى أحس أو أضمر من
جهتهم (خيفة) لما ظن أن
نزولهم لامر أنكره الله تعالى
عليه أو لتعذيب قومه وانما
أخر المفعول الصريح عن
الظرف لان المراد الاخبار
بأنه عليه الصلاة والسلام
أوجس من جهتهم شيئا
هو الخيفة لا انه أوجس الخيفة
من جهتهم لامن جهة غيرهم
وتحقيقه أن تاخير ما حقه
التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (قالوا لاتخف) ماقالوه بمجرد ما ❁ على ❁
رأوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم
يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك (انا أرسلنا) ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما ان قوله تعالى انا نبشرك تعليل
لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين يوجب أمنهم من الخوف اى أرسلنا بالعذاب (الى قوم لوط) خاصة الا انه ليس كذلك فان قوله

حتى يؤمن وبقوله ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا واختلفوا أيضا فقال الاكثرون كان له بنتان وعلى هذا التقدير ذكر الاثنين بلفظ الجمع كما فى قوله فان كان له اخوة فقد صغت قلوبكما وقيل انهن كن أكثر من اثنتين ❁ أما قوله تعالى هن أطهر لكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ظاهر قوله هن أطهر لكم يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد ولانه لاطهارة فى نكاح الرجل بل هذا جار مجرى قولنا الله اكبر والمراد انه كبير ولقوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ولاخير فيها ولما قال أبو سفيان اعل أحدا اعل هبل قال النبى الله أعلى وأجل ولامقاربة بين الله وبين الصنم (المسئلة الثانية) روى عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا هن أطهر لكم بالنصب على الحال كما ذكرنا فى قوله تعالى وهذا بعلى شيخا الا ان أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا والوقرئ هؤلاء بناتى هن أطهر كان هذا نظير قوله وهذا بعلى شيخا الا أن كلمة هن قد وقعت فى البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالا وطولوا فيه ❁ ثم قال فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو ونافع ولاتخزونى باثبات الياء على الاصل والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه (المسئلة الثانية) فى لفظ لاتخزونى وجهان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتفضحونى فى أضيافى يريد انهم اذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة (والثانى) لاتخزونى فى ضيفى اى لاتخجلونى فيهم لان مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل الى الضيف يقال خزى الرجل اذا استحيا (المسئلة الثالثة) الضيف ههنا قائم مقام الاضياف كما قام الطفل مقام الاطفال فى قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا ويجوز أن يكون الضيف مصدرا فيستغنى عن جمعه كما يقال رجال صوم ثم قال أليس منكم رجل رشيد وفيه قولان (الاول) رشيد بمعنى مرشد اى يقول الحق ويرد هؤلاء الاوباش عن أضيافى (والثانى) رشيد بمعنى مرشد والمعنى أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى الى الصلاح وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح والاول أولى ثم قال تعالى قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وفيه وجوه (الاول) مالنا فى بناتك من حاجة ولاشهوة والتقدير أن من احتاج الى شئ فكأنه حصل له فيه نوع حق فلهذا السبب جعل نفى الحق كناية عن نفى الحاجة (الثانى) أن نجرى اللفظ على ظاهره فنقول معناه انهن لسن لنا بازواج ولاحق لنا فيهن البتة ولايميل أيضا طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذى نريده وهو اشارة الى العمل الخبيث (الثالث) مالنا فى بناتك من حق لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لانجيبك الى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق ❁ ثم انه تعالى حكى عن لوط انه عند سماع هذا الكلام قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لمنعتكم ولبالغت فى دفعكم ونظيره قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وقوله ولو ترى اذ وقفوا

على النار قال الواحدى وحذف الجواب ههنا لان الوهم يذهب الى أنواع كثيرة من المنع والدفع (المسئلة الثانية) لوأن لى بكم قوة اى لوأن لى ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل والمراد السلاح وقال آخرون القدرة على دفعهم وقوله أوآوى الى ركن شديد المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيها له بالركن الشديد من الجبل فان قيل ما الوجه ههنا فى عطف الفعل على الاسم قلنا قال صاحب الكشاف قرئ أوآوى بالنصب باضمار أن كأنه قيل لوأن لى بكم قوة أوأويا واعلم ان قوله لوأن لى بكم قوة أوآوى الى ركن شديد لابد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة وفيه وجوه (الاول) المراد بقوله لوأن لى بكم قوة كونه بنفسه قادرا على الدفع وكونه متمكنا اما بنفسه واما بمعاونة غيره على قهرهم وتاديبهم والمراد بقوله أوآوى الى ركن شديد هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته (الثالث) انه لما شاهد سفاهة القوم واقدامهم على سوء الادب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ثم استدرك على نفسه وقال بل الاولى أن آوى الى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى وعلى هذا التقدير فقوله أوآوى الى ركن شديد كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ولذلك قال النبى عليه السلام رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد ❊ قوله تعالى (قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) اعلم أن قوله تعالى مخبرا عن لوط عليه السلام أنه قال لوأن لى بكم قوة أوآوى الى ركن شديد يدل على أنه كان فى غاية القلق والحزن بسبب اقدام أولئك الاوباش على ما يوجب الفضيحة فى حق أضيافه فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات (أحدها) انهم رسل الله (وثانيها) ان الكفار لا يصلون الى ما هموا به (وثالثها) انه تعالى يهلكهم (ورابعها) انه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب (وخامسها) ان ركنك شديد وان ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات وروى ان جبريل عليه السلام قال له ان قومك لن يصلوا اليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم وذلك قوله تعالى ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ومعنى قوله ان يصلوا اليك اى بسوء ومكروه فانا نحول بينهم وبين ذلك ثم قال فاسر بأهلك قرأ نافع وابن كثير فاسر موصولة والباقون بقطع الالف وهما لغتان يقال سريت بالليل وأسريت وأنشد حسان ❊ أسرت اليك ولم تكن تسرى ❊ فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الالف فحجته قوله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ومن وصل فحجته قوله والليل اذا يسر والسرى السير فى الليل يقال سرى يسرى اذا سار بالليل وأسرى بفلان

تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين صريح فى انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وامرأته قائمة) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم (فضحكت) سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء (فبشرناها باسحق) اى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا (ومن وراء اسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها اى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف اى من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع أن الاصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت اذ بشرت بذلك فقيل قالت (ياويلتا) أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا وياعجبا وقرأ الحسن على الاصل وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت (أألد وأنا عجوز) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وهذا) الذى تشاهدونه (بعلى) اى زوجى وأصل البعل القائم بالامر (شيخا) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف اى هو شيخ

أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير في أألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله اى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لان مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولان البشارة متوجهة اليها صريحا ولان العكس في البيان بما يوهم من أول الامر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد (ان هذا) اى ما ذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا (لشئ عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة تعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقي ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى (قالوا أتعجبين من أمر الله) اى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة في بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الازلية لا سيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك ﴿ الجعل ﴾ اشاروا بقوله تعالى (رحمة الله) التي وسعت كل شئ واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (وبركاته) اى خيراته النامية المتكاثرة في كل باب التي من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد

اذا سير به بالليل والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة يريد اخرجوا ليلا لتسبقوا نزول العذاب الذى موعده الصبح قال نافع بن الازرق لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما أخبرني عن قول الله بقطع من الليل قال هو آخر الليل سحر وقال قتادة بعد طائفة من الليل وقال آخرون هو نصف الليل فانه في ذلك الوقت قطع بنصفين * ثم قال ولا يلتفت منكم أحد نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الانسان الى ماوراءه والظاهر ان المراد انه كان لهم في البلدة أموال وأقمشة وأصدقاء فالملائكة أمروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الاشياء ولا يلتفتوا اليها البتة وكان المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الاشياء وقد يراد منه الانصراف أيضا كقوله تعالى قالوا أجئتنا لتلفتنا اى لتصرفنا وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله ولا يلتفت منكم أحد النهى عن التخلف * ثم قال الا امرأتك قرأ ابن كثير وأبو عمرو الا امرأتك بالرفع والباقون بالنصب قال الواحدى من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الاهل على معنى فأسر بأهلك الا امرأتك والذى يشهد بصحة هذه القراءة ان في قراءة عبد الله فأسر بأهلك الا امرأتك فأسقط قوله ولا يلتفت منكم أحد من هذا الموضع وأما الذين رفعوا فالتقدير ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك فان قيل فهذه القراءة توجب انها أمرت بالالتفات لان القائل اذا قال لا يقم منكم أحد الا زيد كان ذلك أمرا لزيد بالقيام وأجاب أبو بكر الانبارى عنه فقال معنى الا ههنا الاستثناء المنقطع على معنى لا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم واذا كان هذا الاستثناء منقطعا كان التفاتها معصية ويتأكد ما ذكرنا بما روى عن قتادة انه قال انها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأصابها حجر فأهلكها واعلم ان القراءة بالرفع أقوى لان القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الاهل كأنه أمر لوطا بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فانها هالكة مع الهالكين وأما القراءة بالنصب فانها أقوى من وجه آخر وذلك لان مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلا ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعا * ثم بين الله تعالى انهم قالوا انه مصيبها ما أصابهم والمراد انه مصيبها ذلك العذاب الذى أصابهم ثم قالوا ان موعدهم الصبح روى انهم لما قالوا للوط عليه السلام ان موعدهم الصبح قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا أليس الصبح بقريب قال المفسرون ان لوطا عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل * قوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الامر وجهان (الاول) ان المراد من هذا الامر ما هو ضد النهى ويدل عليه وجوه (الاول) ان لفظ الامر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعا للاشتراك (الثانى) ان الامر لا يمكن حمله ههنا على العذاب وذلك لانه تعالى قال فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وهذا

ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لانهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له ايضا ان خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شئ قدير ولستم بأهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ و بركاته اى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (انه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله و بركاته عليكم (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) اى ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه مصب الفائدة فان ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) ان فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببية ذهاب الخوف ومجئ السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا فى قوم لوط) اى جادل رسلنا فى شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته اياهم أنه قال لهم حين قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ارايتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان

الجعل هو العذاب فدلت هذه الآية على ان هذا الامر شرط والعذاب جزاء والشرط غير الجزاء فهذا الامر غير العذاب وكل من قال بذلك قال انه هو الامر الذى هو ضد النهى (والثالث) انه تعالى قال قبل هذه الآية انا أرسلنا الى قوم لوط فدل هذا على انهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب الى قوم لوط و بايصال هذا العذاب اليهم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى أمر جمعا من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن فى وقت معين فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل فكان قوله فلما جاء أمرنا اشارة الى ذلك التكليف فان قيل لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها لان الفعل صدر عن ذلك المأمور قلنا هذا لا يلزم على مذهبنا لان فعل العبد فعل الله تعالى عندنا وأيضا ان الذى وقع منهم انما وقع بأمر الله تعالى و بقدرته فلم يبعد اضافته الى الله عز وجل لان الفعل كما تحسن اضافته الى المباشر فقد تحسن أيضا اضافته الى السبب (القول الثانى) أن يكون المراد من الامر ههنا قوله تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وقد تقدم تفسير ذلك الامر (القول الثالث) أن يكون المراد من الامر العذاب وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار والمعنى ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها (المسئلة الثانية) اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى فى هذه الآية بنوعين من الوصف (فالاول) قوله جعلنا عاليها سافلها روى ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الارض واعلم ان هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين (احدهما) ان قلع الارض واصعادها الى قريب من السماء فعل خارق للعادات (والثانى) ان ضربها من ذلك البعد البعيد على الارض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ولم تصل الآفة الى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا (الثانى) قوله وأمطرنا عليها حجارة من سجيل واختلفوا فى السجيل على وجوه (الاول) انه فارسى معرب وأصله سنككل وانه شئ مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون فى غاية الصلابة قال الازهرى لما عربته العرب صار عربيا وقد عربت حروفا كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق (والثانى) سجيل اى مثل السجيل وهو الدلو العظيم (والثالث) سجيل اى شديد من الحجارة (الرابع) مرسلة عليهم من أسجلته اذا أرسلته وهو فعيل منه (الخامس) من أسجلته اى أعطيته تقديره مثل العطية فى الادرار وقيل كان كتب عليها أسامى المعذبين (السادس) وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب فى الازل اى كتب الله أن يعذبهم بها والسجل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لانه يتضمن أحكاما كثيرة وقيل مأخوذ من المساجلة وهى المفاخرة (والسابع) من سجين اى من جهنم أبدلت النون لاما (والثامن) من السماء

فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته

الدنيا وتسمى سجيلا عن أبى زيد (والتاسع) السجيل الطين لقوله تعالى حجارة من طين وهو قول عكرمة وقتادة قال الحسن كان أصل الحجر هو من الطين الا انه صلب بمرور الزمان (والعاشر) سجيل موضع الحجارة وهى جبال مخصوصة ومنه قوله تعالى من جبال فيها من برد * واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات (فالصفة الاولى) كونها من سجيل وقد سبق ذكره (الثانى) قوله تعالى منضود قال الواحدى هو مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه على بعض وفيه وجوه (الاول) ان تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فأتى به على سبيل المبالغة (والثانى) ان كل حجر فان ما فيه من الاجزاء منضود بعضها ببعض وملتصق بعضها ببعض (والثالث) انه تعالى كان قد خلقها فى معادنها ونضد بعضها فوق بعض وأعدها لاهلاك الظلمة واعلم ان قوله منضود صفة للسجيل (الصفة الثالثة) مسومة وهذه الصفة صفة للاحجار ومعناها المعلمة وقد مضى الكلام فيه فى تفسير قوله والخيل المسومة واختلفوا فى كيفية تلك العلامة على وجوه (الاول) قال الحسن والسدى كان عليها أمثال الخواتيم (الثانى) قال ابن صالح رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع (الثالث) قال ابن جريج كان عليها سيما لا تشارك حجارة الارض وتدل على انه تعالى انما خلقها للعذاب (الرابع) قال الربيع مكتوب على كل حجر اسم من رمى به ثم قال تعالى عند ربك اى فى خزائنه التى لا يتصرف فيها أحد الا هو ثم قال وما هى من الظالمين ببعيد يعنى به كفار مكة والمقصود انه تعالى يرميهم بها عن أنس أنه قال سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال يعنى عن ظالمى أمتك ما من ظالم منهم الا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير فى قوله وما هى للقرى أى وما تلك القرى التى وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد وذلك لان تلك القرى كانت فى الشأم وهى قريب من مكة * قوله تعالى

(والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط و ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) اعلم ان هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم ان مدين اسم ابن لابراهيم عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة وكثير من المفسرين يذهب الى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم عليه السلام والمعنى على هذا التقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف الاهل واعلم انا بينا ان الانبياء عليهم السلام يشرعون فى أول الامر بالدعوة الى التوحيد فلهذا قال شعيب عليه السلام ما لكم من اله غيره ثم انهم بعد الدعوة الى التوحيد يشرعون فى الاهم ثم الاهم ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى المكيال والميزان دعاهم الى ترك هذه العادة فقال ولا تنقصوا المكيال والميزان والنقص فيه على وجهين (أحدهما) أن يكون

التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (ان ابراهيم لحليم) غير عجول على الانتقام ممن أساء اليه (أواه) كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة (يا ابراهيم) اى قالت الملائكة يا ابراهيم (أعرض عن هذا) الجدال (انه) اى الشأن (قد جاء أمر ربك) اى قدره الجارى على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما (ولما جاءت رسلنا لوطا) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام و بين ﴿ الايفاء ﴾ القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك (سئ بهم) اى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه و يعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو سئ وسيئت باشمام السين الضم * روى أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع

الا يفاء من قبلهم فينقصون من قدره (والآخر) أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير وفى القسمين حصل النقصان فى حق الغير ثم قال انى أراكم بخير وفيه وجهان (الاول) انه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة ان لم يتوبوا فكأنه قال اتركوا هذا التطفيف والا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة (والثانى) أن يكون التقدير انه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم الى هذا التطفيف ثم قال وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وفيه أبحاث (البحث الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما أخاف أى أعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون بل المراد هو الخوف لانه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائما فالحاصل هو الظن لا العلم (البحث الثانى) انه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (البحث الثالث) اختلفوا فى المراد بهذا العذاب فقال بعضهم هو عذاب يوم القيامة لانه اليوم الذى نصب لاحاطة العذاب بالمعذبين وقال بعضهم بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة وقال بعضهم بل المراد منه عذاب الاستئصال فى الدنيا كما فى حق سائر الانبياء والاقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما فى داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة فى الوعيد كقوله وأحيط بثمره ثم قال و ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط فان قيل وقع التكرير فى هذه الآية من ثلاثة أوجه لانه قال أولا ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة فى هذا التكرير قلنا ان فيه وجوها (الاول) ان القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتيج فى المنع منه الى المبالغة والتأكيد والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام (والثانى) ان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل والنهى عن ضد الشئ مغاير للامر به وليس لقائل أن يقول النهى عن ضد الشئ أمر به فكان التكرير لازما من هذا الوجه لانا نقول (الجواب) من وجهين (الاول) انه تعالى جمع بين الامر بالشئ وبين النهى عن ضده للمبالغة كما تقول صل قرابتك ولا تقطعهم فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد (الثانى) أن نقول لا نسلم ان الامر كما ذكرتم لانه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضا عن أصل المعاملة فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بايفاء الحق ليدل ذلك على انه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات وانما منع من التطفيف وذلك لان طائفة من الناس يقولون ان المبايعات لا تنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية فلاجل ابطال هذا الخيال منع تعالى فى الآية الاولى من التطفيف وفى الآية الاخرى أمر بالايفاء

شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم امر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فاخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم ذرعا) اى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها كما أن معنى سعتها و بسطتها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شده (وجاءه) اى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون اليه) اى يسرعون كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) اى من قبل هذا الوقت (كانوا يعملون السيآت) اى جاؤا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيآت فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأياما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه

مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهار الشدة امتعاضه مما أوردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه و يرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الامر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لامناكحة بينهم وهو الانسب بقولهم لقد علمت مالنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه (فاتقوا الله) بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم

(ولا تخزون فى ضيفى) اى لا تفضحونى فى شانهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له أو لا تجعلونى من الخزاية وهى الحياء (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق الصريح و يرعوى عن الباطل القبيح (قالوا) معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) مستشهدين بعلمه بذلك يعنون انك قد علمت أن لاسبيل الى المناكحة بيننا و بينك وماعرضت الاعرض سابرى ولا مطمع لنا فى ذلك (وانك لتعلم ما نريد) من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عماهم عليه من الغى (قال لو أن لى بكم قوة) اى لفعلت بكم مافعلت وصنعت ماصنعت كقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى (أو آوى الى ركن شديد) عطف على أن لى بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل اى او قويت على دفعكم بنفسى أو أويت الى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد وروى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا) اى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه (يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها

وأما قوله ثالثا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير لانه تعالى خص المنع فى الآية السابقة بالنقصان فى المكيال والميزان ثم انه تعالى عمم الحكم فى جميع الاشياء فظهر بهذا البيان انها غير مكررة بل فى كل واحد منها فائدة زائدة (والوجه الثالث) انه تعالى قال فى الآية الاولى ولا تنقصوا المكيال والميزان وفى الثانية قال أوفوا المكيال والميزان والايفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام ولا يحصل ذلك الا اذا أعطى قدرا زائدا على الحق ولهذا المعنى قال الفقهاء انه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من أجزاء الرأس فالحاصل انه تعالى فى الآية الاولى نهى عن النقصان وفى الآية الثانية أمر باعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكانه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفى الثانية أمر بالسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله بالقسط يعنى بالعدل ومعناه الامر بايفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالامر بايتاء الزيادة على ذلك غير حاصل ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم والبخس هو النقص فى كل الاشياء وقد ذكرنا ان الآية الاولى دلت على المنع من النقص فى المكيال والميزان وهذه الآية دلت على المنع من النقص فى كل الاشياء ثم قال ولا تعثوا فى الارض مفسدين فان قيل العثو الفساد التام فقوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين جار مجرى أن يقال ولا تفسدوا فى الارض مفسدين قلنا فيه وجوه (الاول) أن من سعى فى ايصال الضرر الى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعى الى ايصال الضرر اليه فقوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين معناه ولا تسعوا فى افساد مصالح الغير فان ذلك فى الحقيقة سعى منكم فى افساد مصالح أنفسكم (والثانى) أن يكون المراد من قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين مصالح دنياكم وآخرتكم (والثالث) ولا تعثوا فى الارض مفسدين مصالح الاديان ثم قال بقية الله خير لكم قرئ تقية الله وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى ثم نقول المعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعنى المال الحلال الذى يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن بقية الله أى طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل لان ثواب الطاعة يبقى أبدا وقال قتادة حظكم من ربكم خير لكم وأقول المراد من هذه البقية اما المال الذى يبقى عليه فى الدنيا واما ثواب الله واما كونه تعالى راضيا عنه والكل خير من قدر التطفيف اما المال الباقى فلان الناس اذا عرفوا انسانا بالصدق والامانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا فى كل المعاملات اليه فيفتح عليه باب الرزق واذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه البتة فتضيق أبواب الرزق عليه وأما ان حملنا هذه البقية على الثواب فالامر ظاهر لان كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق وأما ان حملناه على حصول رضا الله

﴿ تعالى ﴾

فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس اعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة (فأسر بأهلك بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الامر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم أى لا يتخلف او لا ينظر الى ورائه (أحد) منك ومن أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فان من يلتفت الى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (الا امرأتك) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك ويؤيده أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعى الامر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما روى انه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لان انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعى بقاء الاهل على العموم فيكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الاهلية فى احدى القراءتين على الاهلية الدينية وفى الاخرى على النسبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالاولى حينئذ جعل الاستثناء

تعالى فالامر فيه ظاهر فثبت بهذا البرهان ان بقية الله خير ثم قال ان كنتم مؤمنين وانما شرط الايمان فى كونه خيرا لهم لانهم ان كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا ان السعى فى تحصيل الثواب وفى الحذر من العقاب خير لهم من السعى فى تحصيل ذلك القليل واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فهذه الآية تدل بظاهرها على ان من لم يحترز عن هذا التطفيف فانه لا يكون مؤمنا ثم قال تعالى وما أنا عليكم بحفيظ وفيه وجهان (الاول) أن يكون المعنى انى نصحتكم وأرشدتكم الى الخير وما أنا عليكم بحفيظ أى لا قدرة لى على منعكم عن هذا العمل القبيح (الثانى) انه قد أشار فيما تقدم الى ان الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال وما أنا عليكم بحفيظ يعنى لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وأنا لا أقدر على حفظها عليكم فى تلك الحالة ✻ قوله تعالى (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم أصلاتك بغير واو والباقون أصلواتك على الجمع (المسئلة الثانية) اعلم ان شعيبا عليه السلام أمرهم بشيئين بالتوحيد وترك البخس فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة فقوله ان نترك ما يعبد آباؤنا اشارة الى انه أمرهم بالتوحيد وقوله أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء اشارة الى أنه أمرهم بترك البخس أما الاول فقد اشاروا فيه الى التمسك بطريقة التقليد لانهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم يعنى الطريقة التى أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف نتركها وذلك تمسك بمحض التقليد (المسئلة الثالثة) فى لفظ الصلاة ههنا قولان (الاول) المراد منه الدين والايمان لان الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين أو نقول الصلاة أصلها من الاتباع ومنه أخذ المصلى من الخيل الذى يتلو السابق لان رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين والمراد دينك يأمرك بذلك (والثانى) ان المراد منه هذه الاعمال المخصوصة روى أن شعيبا كان كثير الصلاة وكان قومه اذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزؤ وكما أنك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا فان قيل تقدير الآية أصلواتك تأمرك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء وهم انما ذكروا هذا الكلام على سبيل الانكار وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين فى أموالهم ما يشاؤن فكيف وجه التأويل قلنا فيه وجهان (الاول) التقدير أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نترك فعل ما نشاء وعلى هذا فقوله أو أن نفعل معطوف على ما فى قوله ما يعبد آباؤنا (والثانى) أن تجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير أصلواتك تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان وتنهاك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء وقرأ ابن أبى عبلة أو أن تفعل فى أموالنا

ماتشاء بناء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير ثم قال تعالى حكاية عنهم انك لأنت الحليم الرشيد وفيه وجوه (الاول) أن يكون المعنى انك لانت السفيه الجاهل الا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك (والثانى) أن يكون المراد انك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد (والوجه الثالث) انه عليه السلام كان مشهورا عندهم بأنه حليم رشيد فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد المعروف الطريقة فى هذا الباب فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفا بالحلم والرشد وهذا الوجه أصوب الوجوه * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره فى الجواب عن كلماتهم فالاول قوله أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وفيه وجوه (الاول) ان قوله ان كنت على بينة من ربى اشارة الى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا اشارة الى ما آتاه الله من المال الحلال فانه يروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير المال واعلم أن جواب ان الشرطية محذوف والتقدير انه تعالى لما آتانى جميع السعادات الروحانية وهى البينة والسعادات الجسمانية وهى المال والرزق الحسن فهل يسعنى مع هذا الانعام العظيم أن أخون فى وحيه وأن أخالفه فى أمره ونهيه وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لانهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال انما أقدمت على هذا العمل لان نعم الله تعالى عندى كثيرة وهو أمرنى بهذا التبليغ والرسالة فكيف يليق بى مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمره وتكليفه (الثانى) أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندى أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر ثم أنا رجل أريد اصلاح أحوالكم ولا أحتاج الى أموالكم لاجل ان الله تعالى آتانى رزقا حسنا فهل يسعنى مع هذه الاحوال أن أخون فى وحى الله تعالى وفى حكمه (الثالث) قوله ان كنت على بينة من ربى أى ما حصل عنده من المعجزة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا المراد انه لا يسألهم أجرا ولا جعلا وهو الذى ذكره سائر الانبياء من قولهم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على رب العالمين (المسئلة الثانية) قوله ورزقنى منه رزقا حسنا يدل على أن ذلك الرزق انما حصل من عند الله تعالى وباعانته وأنه لا مدخل

* لكسب *

كا على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الافصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك ولاه على طريقة الاستئناف بقوله (انه مصيبها ما أصابهم) من العذاب وهو امطار الاحجار وان لم يصبها الخسف والضمير فى انه شأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ أو الجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع (ان موعدهم الصبح) أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولانه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء امرنا) أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جعلنا عاليها) أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف (سافلها) أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الامر وتفظيع الخطب لان جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له * روى أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب (وأمطرنا عليها) على أهل المدائن أو شذاذهم

حجارة من سجيل) من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله اذا ارسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل أو مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مسومة) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض او باسم من ترمى به (عند ربك) فى خزائنه التى لايتصرف فيها غيره عز وجل (وماهى) أى الحجارة الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (ببعيد) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى امتك مامن ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أى بشئ بعيد أو بمكان بعيد فانها وان كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الارض الا انها اذا هوت منها فهى أسرع شئ لحوقا بهم فكانها بمكان قريب منهم أولانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث (والى مدين) أى أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أوجعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه (أخاهم) أى نسيبهم (شعيبا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود أخاهم صالحا أى وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فاذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام (ياقوم اعبدوا الله) وحده ولاتشركوا به شيئا (مالكم من اله

لمكسب فيه وفيه تنبيه على أن الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى واذا كان الكل من الله تعالى فأنا لاأبالى بمخالفتكم ولاأفرح بموافقتكم وانما أكون على تقرير دين الله تعالى وايضاح شرائع الله تعالى (وأما الوجه الثانى) من الاجوبة التى ذكرها شعيب عليه السلام فقوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد أنه قد ذهب اليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه يعنى أن أسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا أن الذى اختاره عقلى لنفسى لابد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة الى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما الى جزأين التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما فى شئ من الاحوال البتة فلما اعترفتم لى بالحلم والرشد وترون انى لاأترك هذه الطريقة فاعلموا أن هذا الطريقة خير الطرق وأشرف الاديان والشرائع (واما الوجه الثالث) من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله ان أريد الا الاصلاح ما استطعت والمعنى ما أريد الا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وقوله ما استطعت فيه وجوه (الاول) أنه ظرف والتقدير مدة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه لاآلو فيه جهدا (والثانى) انه بدل من الاصلاح أى المقدار الذى استطعت منه (والثالث) أن يكون مفعولا له أى ما أريد الا أن أصلح ما استطعت اصلاحه واعلم ان المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بانه حليم رشيد وانما أقروا له بذلك لانه كان مشهورا فيما بين الخلق بهذه الصفة فكأنه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالى أنى لاأسعى الا فى الاصلاح وازالة الفساد والخصومة فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايذاء الناس فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضى منه ايقاع الخصومة واثارة الفتنة فانكم تعرفون أنى ابغض ذلك الطريق ولاأدور الا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتى وذلك هو الابلاغ والانذار وأما الاجبار على الطاعة فلاأقدر عليه ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وبين بهذا أن توكله واعتماده فى تنفيذ كل الاعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته واعلم ان قوله عليه السلام توكلت اشارة الى محض التوحيد لان قوله عليه السلام توكلت يفيد الحصر وهو أنه لاينبغى للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وكيف وكل ما سوى الحق سبحانه ممكن لذاته فان بذاته ولايحصل الا بايجاده وتكوينه واذا كان كذلك لم يجز التوكل الا على الله

غيره) تحقيق للتوحيد وتعليل الامر به و بعدما أمرهم بماهو ملاك أمر الدين وأول مايجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادي ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) كي تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس (انى اراكم بخير) أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك او بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل (وأنى أخاف عليكم) ان لم تنتهوا عن ذلك (عذاب يوم محيط) لايشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة مالا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ماوقع فيه من الحوادث فاذا احاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما اذا احاط بنعيمه و يجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا (و ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أى بالعدل من غير زيادة ولانقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وان كان تفضلا مندوبا اليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على انه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيار ظلمهم وقانون عدوانهم (ولا تبخسوا الناس) بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما (أشياءهم) التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعدما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والامر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها و يجوز أن

تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدا هوالذى ذكرناه وأما قوله واليه أنيب فهو اشارة الى معرفة المعاد وهو أيضا يفيد الحصر لان قوله واليه أنيب يدل على انه لا مرجع للخلق الا الى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيب عليه السلام قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته فى كلامه بين قومه (وأما الوجه الرابع) من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله و ياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم قال صاحب الكشاف جرم مثل كسب فى تعديته تارة الى مفعول واحد وأخرى الى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ومنه قوله تعالى لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم أى لايكسبنكم شقاقى اصابة العذاب وقرأ ابن كثير يجرمنكم بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارماله أى كاسباله وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه والقراءتان مستويتان فى المعنى لاتفاوت بينهما الا أن المشهورة أفصح لفظا كما أن كسبه مالا أفصح من أكسبه اذا عرفت هذا فنقول المراد من الآية لاتكسبنكم معاداتكم اياى أى يصيبكم عذاب الاستئصال فى الدنيا مثل ماحصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة ولقوم لوط من الخسف وأما قوله وماقوم لوط منكم ببعيد ففيه وجهان (الاول) ان المراد نفى البعد فى المكان لان بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين (والثانى) ان المراد نفى البعد فى الزمان لان اهلاك قوم لوط عليه السلام اقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب عليه السلام وعلى هذين التقديرين فان القرب فى المكان وفى الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لاينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل لم قال وماقوم لوط منكم ببعيد وكان الواجب أن يقال ببعيدين أجاب عنه صاحب الكشاف من وجهين (الاول) أن يكون التقدير ما اهلاكهم شئ ببعيد (الثانى) أنه يجوز أن يسوى فى قريب و بعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما (وأما الوجه الخامس) من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله واستغفروا ربكم عن عبادة الاوثان ثم توبوا اليه عن البخس والنقصان ان ربى رحيم بأوليائه ودود قال أبو بكر الانبارى الودود فى أسماء الله تعالى المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده وقال الازهرى فى كتاب شرح أسماء الله تعالى و يجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ومعناه ان عباده الصالحين يودونه و يحبونه لكثرة افضاله واحسانه على الخلق واعلم أن هذا الترتيب الذى راعاه شعيب عليه السلام فى ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف وذلك لانه بين اولا أن ظهور البينة له وكثرة انعام الله تعالى عليه فى الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة فى وحى الله تعالى و يصده عن التهاون فى تكاليفه ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه

✽ الدعوة ✽

يكن والمراد بالامر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات و يكون النهي عن البخس عاما للنقص في المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما في قوله تعالى (ولا تعثوا في الارض مفسدين) فان العثي يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور في المعاملات قال زهير بن أبي سلمى * أفي كل أسواق العراق اتاوة * وفي كل ما باع أمرؤ مكس درهم * والعثي في الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا في الارض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقيت الله) أي ما ابقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطي المحرمات (خير لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثور بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربوا ويربي الصدقات (ان كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لا محالة او ان كنتم مصدقين لي في مقالتي لكم وقيل البقية الطاعة كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ تقية الله بالفوقانية وهي تقواه عن المعاصي (وما انا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبائح او أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل في ذلك جهدا أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) من الاوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الاصنام وقد بالغوا في ذلك و بلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحي الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التي هي من نتائج

الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح واخفاء موجبات الفتن فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ثم لما بين صحة طريقته أشار الى نفي المعارض وقال لا ينبغي أن تحملكم عداوتي على مذهب ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله تعالى كما وقع فيه أقوام الانبياء المتقدمين ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد الى تقرير ما ذكره أولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله ثم توبوا اليه ثم بين لهم ان سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الايمان والطاعة لانه تعالى رحيم ودود يقبل الايمان والتوبة من الكافر والفاسق لان رحمته لعباده وحبه لهم يوجب ذلك وهذا التقرير في غاية الكمال * قوله تعالى (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) اعلم انه عليه السلام لما بالغ في التقرير والبيان أجابوه بكلمات فاسدة فالاول قولهم ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات (فالاول) أن المراد ما نفقه كثيرا مما تقول لانهم كانوا لا يلقون اليه افهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (الثاني) انهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ما أدري ما تقول (الثالث) ان هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث وما يجب من ترك الظلم والسرقة فقولهم ما نفقه أي لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب (المسئلة الثانية) من الناس من قال الفقه اسم لعلم مخصوص وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه واحتجوا بهذه الآية وهي قوله ما نفقه كثيرا مما تقول فاضاف الفقه الى القول ثم صار اسما لنوع معين من علوم الدين ومنهم من قال انه اسم لمطلق الفهم يقال أوتي فلان فقها في الدين أي فهما وقال النبي صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين أي يفهمه تأويله (والنوع الثاني) من الاشياء التي ذكروها قولهم وانا لنراك فينا ضعيفا وفيه وجهان (الاول) انه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه (والثاني) ان الضعيف هو الاعمى بلغة حمير واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه (الاول) أنه ترك للظاهر من غير دليل (والثاني) ان قوله فينا يبطل هذا الوجه ألا ترى انه لو قال انا لنراك أعمى فينا كان فاسدا لان الاعمى أعمى فيهم وفي غيرهم (الثالث) أنهم قالوا بعد ذلك ولولا رهطك لرجمناك فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطه ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصرة وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصرة والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم انما حملوه عليه لانه سبب للضعف واعلم أن اصحابنا يجوزون العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن

الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان التى توارثناها أباعن جد وانما جعلوه عليه السلام مأمورا مع ان الصادر عنه انما هو الامر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لانه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الامر الى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك ﴿ ١٢٦ ﴾ وكانوا اذا رأوه يصلى يتغامزون و يتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرئ أصلواتك (أوان نفعل فى أموالنا مانشاء) جواب عن أمره عليه السلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أى أوان نترك أن نفعل فى أموالنا مانشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك اى صلاتك تأمرك أن تفعل أنت فى أموالنا مانشاء وتجويز العطف على ماقيل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل فى معاملاتهم لانفس الايفاء فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وانما لم نقل عطفا على أن نترك لان الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك مايعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الامر و يستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة مايدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرئ بالنون فى الاول والتاء فى الثانى عطفا على أن نترك أى أوان نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ماتشاء أنت من التسوية والايفاء (انك لانت الحليم الرشيد) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك

﴿ القدرة ﴾

الاستدلال به فى اثبات هذا المعنى لما بيناه وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال انه لايجوز لكونه متعبدا فانه لايمكنه الاحتراز عن النجاسات ولانه يخل بجواز كونه حاكما وشاهدا فلان يمنع من النبوة كان أولى والكلام فيه لايليق بهذه الآية لانا بينا أن الآية لادلالة فيها على هذا المعنى (والنوع الثالث) من الاشياء التى ذكروها قولهم ولولا رهطك لرجمناك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الرهط من الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة وقد كان رهطه على ملتهم قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا أنه لاحرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وأنهم انما لم يقتلوه لاجل احترامهم رهطه (المسئلة الثانية) الرجم فى اللغة عبارة عن الرمى وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ولما كان هذا الرجم سببا للقتل لاجرم سموا القتل رجما وقد يكون بالقول الذى هو القذف كقوله رجما بالغيب وقوله و يقذفون بالغيب من مكان بعيد وقد يكون بالشتم واللعن ومنه قوله الشيطان الرجيم وقد يكون بالطرد كقوله رجوما للشياطين اذا عرفت هذا ففى الآية وجهان (الاول) لرجمناك لقتلناك (الثانى) لشتمناك وطردناك (النوع الرابع) من الاشياء التى ذكروها قولهم وماأنت علينا بعزيز ومعناه انك لما لم تكن علينا عزيزا سهل علينا الاقدام على قتلك وايذائك واعلم أن كل هذه الوجوه التى ذكروها ليست دافعا لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات بل هى جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة ✽ قوله تعالى (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط و ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب) اعلم ان الكفار لما خوفوا شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنه ماذكره فى هذا المقام وهو نوعان من الكلام (فالنوع الاول) قوله ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط والمعنى ان القوم زعموا أنهم تركوا ايذاءه رعاية لجانب قومه فقال أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلى اكراما لرهطى والله تعالى أولى أن يتبع أمره فكانه يقول حفظكم اياى رعاية لامر الله تعالى أولى من حفظكم اياى رعاية لحق رهطى وأما قوله واتخذتموه وراءكم ظهريا فالمعنى أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لايعبأ به قال صاحب الكشاف والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة الى الامس امسى بكسر الهمزة وقوله ان ربى بما تعملون محيط يعنى انه عالم باحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها (والنوع الثانى) قوله و ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل مافى وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى فانى أيضا عامل بقدر ماآتانى الله تعالى من

وصفه بضدهما كقول الخزنة ذق انك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى انك لأنت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة) أي حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء في جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند (من ربي) ومالك أموري وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ماهو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه في نظائره (ورزقني منه) أي من لدنه (رزقا حسنا) هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولامته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أي أتقولون في شأني ماتقولون والمعنى انكم نظمتموني في سلك السفهاء والغواة وعددتم ماصدر عني من الاوامر والنواهي من قبيل مالا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بي وبأفعالي حتى قلتم ان ما آمركم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضي به قاضي الفطنة وانما يأمر به صلاتك التي هي من أحكام الوسوسة والجنون فأخبروني ان كنت من جهة ربي ومالك أموري ثابتا على النبوة والحكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقني بذلك رزقا حسنا أتقولون في شأني وشأن أفعالي ماتقولون مما لاخير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذي يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصي أوهل يسع لي مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره

القدرة ثم قال سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول لم لم يقل فسوف تعلمون والجواب ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل واما بحذف الفاء فانه يجعله جوابا عن سؤال مقدر والتقدير انه لما قال وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل ثم قال وارتقبوا انى معكم رقيب والمعنى فانتظروا العاقبة انى معكم رقيب أي منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع * قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم وقوله ولما جاء أمرنا يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكا من الملائكة بتلك الصيحة ويحتمل أن يكون المراد من الامر العقاب وعلى التقديرين فأخبر الله انه نجى شعيبا ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان (الاول) أنه تعالى انما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته تنبيها على ان كل مايصل الى العبد فليس الا بفضل الله ورحمته (والثاني) أن يكون المراد من الرحمة الايمان والطاعة وسائر الاعمال الصالحة وهي أيضا ماحصلت الا بتوفيق الله تعالى ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال وأخذت الذين ظلموا الصيحة وانما ذكر الصيحة بالالف واللام اشارة الى المعهود السابق وهي صيحة جبريل عليه السلام فأصبحوا في ديارهم جاثمين والجاثم الملازم لمكانه الذي لا يتحول عنه يعني أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع في مكانه ميتا كأن لم يغنوا فيها اي كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين ثم قال تعالى الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وانما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود * قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) واعلم ان هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر القصص من هذه السورة أما قوله بآياتنا وسلطان مبين ففيه وجوه (الاول) أن المراد من الآيات التوراة مع مافيها من الشرائع والاحكام ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة والتقدير ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة (الثاني) ان الآيات

ونهيه فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك
أن نكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لاينبغى
أن يصدر عنك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا
قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به ﴿ ١٢٨ ﴾ وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن
الحلال الذى آتاه الله تعالى
والمعنى حينئذ أخبرونى ان كنت
نبيا من عند الله تعالى ورزقنى
مالا حلالا أستغنى به عن العالمين
أيصح أن اخالف أمره وأوافقكم
فيما تأتون وما تذرون (وما أريد)
بنهيى اياكم عما أنهاكم عنه
من البخس والتطفيف
(أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه)
أى أقصده بعدما وليتم عنه
وأستبد به دونكم يقال خالفت
زيدا الى كذا اذا قصدته
وهو مول عنه وخالفته عن كذا
اذا كان الامر على العكس
(ان أريد) أى ما أريد
بما أباشره من الامر والنهى
(الا الاصلاح) الا أن أصلحكم
بالنصيحة والموعظة
(ما استطعت) أى مقدار
ما استطعته من الاصلاح
والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء
بالاصلاح فى الجملة لا عن ارادة
ما ليس فى وسعه منه (وما توفيقى)
أى كونى موفقا لتحقيق
ما أنتحيه من اصلاحكم
(الا بالله) اى بتأييده ومعونته
بل الاصلاح من حيث الخلق
مستند اليه سبحانه وانما أنا
من مباديه الظاهرة قاله عليه
السلام تحقيقا للحق وازاحة
لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك (عليه توكلت) فى ذلك معرضا ﴿ وهم ﴾
عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة
الاستمداد به والاستظهار (واليه أنيب) أى أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لاصابة الحق
والصواب فى كل ما آتى وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض

هى المعجزات والبينات وهو كقوله ان عندكم من سلطان بهذا وقوله ما أنزل الله بها من
سلطان وعلى هذا التقدير ففى الآية وجهان (الاول) أن هذه الايات فيها سلطان مبين
لموسى على صدق نبوته (الثانى) أن يراد بالسلطان المبين العصا لانه أشهرها وذلك لانه تعالى
أعطى موسى تسع آيات بينات وهى العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم ونقص من الثمرات والانفس ومنهم من أبدل نقص الثمرات والانفس باظلال الجبل
وفلق البحر واختلفوا فى أن الحجة لم سميت بالسلطان فقال بعض المحققين لان صاحب
الحجة يقهر من لاحجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره فلهذا توصف الحجة بانها
سلطان وقال الزجاج السلطان هو الحجة والسلطان سمى سلطانا لانه حجة الله فى أرضه
واشتقاقه من السليط والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث
وهو أن السلطان مشتق من التسليط والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية
والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة الا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى
من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لاتقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان
سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة
الملوك من جنس سلطنة الفراعنة فان قيل اذا حملتم الآيات المذكورة فى قوله بآياتنا
على المعجزات والسلطان أيضا على الدلائل والمبين ايضا معناه كونه سببا للظهور
فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة قلنا الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التى
تفيد الظن و بين الدلائل التى تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين
الا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التى تؤكد بالحس و بين الدلائل التى لم تتأكد
بالحس وأما الدليل القاطع الذى تأكد بالحس فهو السلطان المبين ولما كانت معجزات
موسى عليه السلام هكذا لاجرم وصفها الله بأنها سلطان مبين ثم قال الى فرعون
وملائه يعنى وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات الى فرعون وملائه اى
جماعته ثم قال فاتبعوا أمر فرعون و يحتمل ان يكون المراد أمره اياهم بالكفر بموسى
ومعجزاته و يحتمل أن يكون المراد من الامر الطريق والشان ثم قال تعالى وما أمر فرعون
برشيد أى بمرشد الى خير وقيل رشيد أى ذى رشد واعلم أن بعد طريق فرعون عن الرشد
كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل
كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد
فى عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية ثم انه
تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وفيه بحثان
(البحث الاول) من حيث اللغة يقال قدم فلان فلانا بمعنى تقدمه ومنه قادمة الرجل
كما يقال قدمه بمعنى تقدمه ومنه مقدمة الجيش (والبحث الثانى) من حيث المعنى وهو
ان فرعون كان قدوة لقومه فى الضلال حال ما كانوا فى الدنيا وكذلك مقدمهم الى النار

التوحيد الذاتى والفعلى واليه أنيب أى عليه أقبل بشراشر نفسى فى مجامع أمورى وايثار صيغة الاستقبال على الماضى الانسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى مافى جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره وحسم ﴿ ١٢٩ ﴾ أطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أو ما يعمه (ويا قوم لا يجرمنكم) أى لا يكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا (شقاق) معاداتى وأصلها ان أحد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر (أن يصيبكم) مفعول ثان ليجر منكم أى يكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (وقوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من اجرمته ذنبا اذا جعلته جارماله أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد كما نقل اكسبه المال من كسب المال فكما لا فرق بين كسبته مالا واكسبته اياه لا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الاول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله * لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت * حمامة فى غصون ذات ﴿ ١٧ ﴾ خا أوقال * وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب أصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية (وما قوم لوط منكم ببعيد) زمانا ومكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الامم المعدودة فاعتبروا بهم

وهم يتبعونه أو يقال كما تقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم فى البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ويجوز أيضا أن يريد بقوله وما أمر فرعون برشيد أى وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله يقدم قومه تفسيرا لذلك وايضاحا له أى كيف يكون أمره رشيدا مع ان عاقبته هكذا فان قيل لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل قال يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضى قلنا لان الماضى قد وقع ودخل فى الوجود فلا سبيل البتة الى دفعه فاذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضى دل على غاية المبالغة ثم قال وبئس الورد المورود وفيه بحثان (البحث الاول) لفظ النار موئنث فكان ينبغى أن يقال وبئست الورد المورود الا ان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدى (البحث الثانى) الورد قد يكون بمعنى الورود فيكون مصدرا وقد يكون بمعنى الوارد قال تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذى يورد عليه قال صاحب الكشاف الورد المورود الذى حصل وروده فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة الى الماء وشبه أتباعه بالواردين الى الماء ثم قال بئس الورد الذى يوردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده ثم قال وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة والمعنى انهم أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة وفى يوم القيامة أيضا ومعناه ان اللعن من الله ومن الملائكة والانبياء ملتصق بهم فى الدنيا وفى الآخرة لا يزول عنهم ونظيره قوله فى سورة القصص وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ثم قال بئس الرفد المرفود والرفد هو العطية وأصله الذى يعين على المطلوب سأل نافع بن الازرق ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله بئس الرفد المرفود قال هو اللعنة بعد اللعنة قال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة وكل شئ جعلته عونا الشئ فقد رفدته به * قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الاولين قال ذلك من أنباء القرى نقصه عليك والفائدة فى ذكرها أمور (أولها) ان الانتفاع بالدليل العقلى المحض انما يحصل للانسان الكامل وذلك انما يكون فى غاية الندرة فاما اذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الاولين صار ذكر هذه الاقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية الى العقول (الوجه الثانى) انه تعالى خلط بهذه الاقاصيص أنواع الدلائل التى كان الانبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم فى دفعها ثم يذكر عقيبهما أجوبة الانبياء عنها ثم يذكر عقيبها انهم لما أصروا واستكبروا وقعوا فى عذاب الدنيا وبقى عليهم اللعن والعقاب فى الدنيا وفى الآخرة فكان ذكر هذه القصص سببا لايصال الدلائل والجوابات

فكانه انما غير اسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بان ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ماذكر من دواهى الامم المرقومة أوليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وافراد البعيد مع تذكيره لان المراد وما اهلاكهم على نية المضاف أووماهم بشئ بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لا من حيث خصوصية كونهم قوما أو ✲ ١٣٠ ✲ ماهم فى زمان بعيد أومكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك

عن الشبهات الى قلوب المنكرين وسببا لازالة القوة والغلظة عن قلوبهم فثبت ان احسن الطرق فى الدعوة الى الله تعالى ماذكرناه (الفائدة الثالثة) انه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ لاحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه (الفائدة الرابعة) ان الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق الى ترك الدنيا والخروج عنها الا ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فى الدنيا والعقاب فى الآخرة فاذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل فى القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال فهذا كلام جليل فى فوائد ذكر هذه القصص أما قوله ذلك من أنباء القرى ففيه ابحاث (البحث الاول) ان قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد منه ههنا الاشارة الى هذه القصص التى تقدمت وهى حاضرة الاان الجواب عنه ما تقدم فى قوله ذلك الكتاب لاريب فيه (الثانى) أن لفظ ذلك يشار به الى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك وأيضا يحتمل ان يكون المراد ذلك الذى ذكرناه هو كذا وكذا (البحث الثالث) قال صاحب الكشاف ذلك مبتدأ من انباء القرى خبر نقصه عليك خبر بعد خبر أى ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك ثم قال منها قائم وحصيد والضمير فى قوله منها يعود الى القرى شبه مابقى من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وماعفا منها وبطل بالحصيد والمعنى ان تلك القرى بعضها بقى منه شئ وبعضها هلك ومابقى منه أثر البتة ثم قال تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وفيه وجوه (الاول) وما ظلمناهم بالعذاب والاهلاك ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية (الثانى) ان الذى نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة لاجل ان القوم اولا ظلموا أنفسهم بسبب اقدامهم على الكفر والمعاصى فاستوجبوا لاجل تلك الاعمال من الله ذلك العذاب (الثالث) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وما نقصناهم من النعيم فى الدنيا والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى ثم قال فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ أى ما نفعتهم تلك الالهة فى شئ البتة ثم قال وما زادوهم غير تتبيب قال ابن عباس رضى الله عنهما غير تخسير يقال تب اذا خسر وتببه غيره اذا أوقعه فى الخسران والمعنى ان الكفار كانوا يعتقدون فى الاصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم انه تعالى أخبر انهم عند مساس الحاجة الى المعين ما وجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده وهو ان ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران ✲ قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم

لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه) مر تفسير مثله فى أول السورة (ان ربى رحيم) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ فى فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أى ما نفهم مرادك وانما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ✲ مشهود ✲ ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الامم السالفة ولذلك قالوا (وانا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفا) لا قوة لك ولا قدرة على شئ من الضر والنفع والايقاع والدفع (ولولا رهطك) اولا مراعاة جانبهم لا لولاهم بمانعونا ويدافعوننا (لرجمناك) فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة أو الى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة

مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل (وما أنت علينا بعزيز) مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة
على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفي وان لم يكن الخبر فعليا غير خال
عن الدلالة على رجوع النفي الى الفاعل دون الفعل لا سيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك
هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين

مشهود وما نؤخره الا لاجل معدود) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم والجحدري اذ أخذ القرى بألف واحدة وقرأ الباقون بألفين (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام في كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الانبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال و بين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال بعده وكذلك اخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة فبين ان عذابه ليس بمقتصر على من تقدم بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله وهي ظالمة الضمير فيه عائد الى القرى وهو في الحقيقة عائد الى أهلها ونظيره قوله وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وقوله وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها واعلم أنه تعالى لما بين كيفية اخذ الامم المتقدمة ثم بين انه انما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية فقال ان أخذه أليم شديد فوصف ذلك العذاب بالايلام و بالشدة ولا منغصة في الدنيا الا الالم ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة وفي الوهم والعقل الا تشديد الالم واعلم ان هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فانه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لئلا يقع في الاخذ الذي وصفه الله تعالى بانه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن ان هذه الاحكام مختصة بأولئك المتقدمين لانه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة فبين ان كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الاخذ الاليم الشديد ثم قال تعالى ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة قال القفال تقرير هذا الكلام أن يقال ان هؤلاء انما عذبوا في الدنيا لاجل تكذيبهم الانبياء واشراكهم بالله فاذا عذبوا في الدنيا على ذلك وهي دار العمل فلان يعذبوا عليه في الآخرة التي هي دار الجزاء كان أولى واعلم أن كثيرا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه بل هو ضعيف وذلك لان على هذا الوجه الذي ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال في الدنيا دليلا على ان القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق وظاهر الآية يقتضي ان العلم بان القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلا للعلم بان القيامة حق فبطل ما ذكره القفال والاصوب عندي أن يقال العلم بان القيامة حق موقوف على العلم بان المدبر لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لا موجب بالذات وما لم يعرف الانسان أن اله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وان جميع الحوادث الواقعة في السموات والارضين لا تحصل الا بتكوينه وقضائه لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال وذلك لان الذين يزعمون ان المؤثر في وجود هذا العالم موجب بالذات لا فاعل مختار يزعمون ان هذه الاحوال التي ظهرت في أيام الانبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها انما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض واذا كان الامر كذلك فحينئذ لا يكون

حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام في جوابهم (يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك في أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا نفي العزة بالمرة والمعنى أرهطي أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة اصلا (واتخذتموه) بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بأمره (وراءكم ظهريا) أي شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسي في النسبة الى الامس

(ان ربي بما تعملون) من الاعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه (محيط) لا يخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا انهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوي فكيف تراعون جانب رهطي الاذلة (ويا قوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون

بما هم عليه من المعاصي حتى اجترؤا على العظيمة التي هي الاستهانة به والعزيمة على رجمه ولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي ﴿ ١٣٢ ﴾ وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم في مضارتي وايقاع ما في نيتكم واخراج ما في أمنيتكم من القوة الى الفعل (اني عامل) على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم اني عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزي ظاهر حيث لا يكون الا لجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفي نسبته الى الضعف والهوان وفي ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمترقب كاتيان العذاب بل انما المترقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية ﴿ قيل ﴾ معلقة للعلم عن العمل كأنه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب واما موصولة أي سوف تعرفون الذي يأتيه عذاب والذي هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا مآل ما أقول (اني معكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفي زيادة معكم اظهار منه

حصولها دليلا على صدق الانبياء فأما الذي يؤمن بالقيامة فلا يتم ذلك الايمان الا اذا اعتقد ان اله العالم فاعل مختار وانه عالم بجميع الجزئيات واذا كان الامر كذلك لزم القطع بان حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة انما كان بسبب ان اله العالم خلقها وأوجدها وانها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ويستدل بها على صدق الانبياء فثبت بهذا صحة قوله ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ثم قال تعالى ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود واعلم انه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين (أحدهما) انه يوم مجموع له الناس والمعنى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون (والثاني) انه يوم مشهود قال ابن عباس رضي الله عنهما يشهده البر والفاجر وقال آخرون يشهده أهل السماء وأهل الارض والمراد من الشهود الحضور والمقصود من ذكره انه ربما وقع في قلب انسان انهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد الا واقعة نفسه فبين تعالى ان تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة ثم قال تعالى وما نؤخره الا لاجل معدود والمعنى أن تأخير الآخرة وافناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ما له عدد فهو متناه وكل ما كان متناهيا فانه لا بد وأن يفنى فيلزم أن يقال ان تأخير الآخرة سينتهي الى وقت لا بد وأن يقيم الله القيامة فيه وأن تخرب الدنيا فيه وكل ما هو آت قريب ❊ قوله تعالى (يوم يأتي لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء والباقون باثبات الياء قال صاحب الكشاف وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونحوه قولهم لا أدر حكاه الخليل وسيبويه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف فاعل يأتي هو الله تعالى كقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله وقوله أو يأتي ربك ويعضده قراءة من قرأ وما يؤخره بالياء أقول لا يعجبني هذا التأويل لان قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله أو يأتي ربك أما ههنا فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الاتيان اليه مشكل فان قالوا فما قولك في قوله تعالى وجاء ربك قلنا هناك تأويلات وأيضا فهو صريح فلا يمكن دفعه فوجب المصير الى التأويل أما ههنا فليس اللفظ صريحا في اسناد الاتيان الى الله تعالى فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال المراد منه يوم يأتي الشيء المهيب الهائل المستعظم فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى في التخويف (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف العامل في انتصاب الظرف هو قوله لا تكلم او اضمار اذكر اما قوله لا تكلم نفس الا باذنه ففيه حذف والتقدير لا تكلم نفس فيه الا باذن الله تعالى فان

عليه السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه اووقته
فان الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهى الايمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وانما
ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما انه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط
فانه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا)
عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما أخذهم انما أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجئ العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا لا ومقصود الافادة وانما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر أثره بموجب جرائرهم وجرائمهم (كأن لم يغنوا) أى لم يقيموا (فيها) متصرفين
فى أطرافها متقلبين فى اكنافها (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون ادل على طغيانهم الذى
اداهم الى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما اهلكتا بنوع
من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر
تغير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا

قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التى توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها
قوله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو
قولهم والله ربنا ما كنا مشركين ومنها قوله تعالى وقفوهم انهم مسؤلون ومنها قوله هذا يوم
لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون والجواب من وجهين (الاول) أنه حيث ورد المنع من
الكلام فهو محمول على ذكر الاعذار الكاذبة الباطلة وحيث ورد الاذن فى الكلام فهو
محمول على الجوابات الحقية الصحيحة (الثانى) ان ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف
فنى بعضها يجادلون عن أنفسهم وفى بعضها يكفون عن الكلام وفى بعضها يؤذن لهم
فيتكلمون وفى بعضها يختم على افواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم أما قوله فمنهم
شقى وسعيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الضمير فى قوله فمنهم لاهل
الموقف ولم يذكر لانه معلوم ولان قوله لا تكلم نفس الا باذنه يدل عليه لانه قدم ذكر
الناس فى قوله مجموع له الناس (المسئلة الثانية) قوله فمنهم شقى وسعيد يدل ظاهره على
أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين فان قيل أليس فى الناس مجانين وأطفال
وهم خارجون عن هذين القسمين قلنا المراد من يحشر ممن أطلق للحساب وهم لا يخرجون
عن هذين القسمين فان قيل قد احتج القاضى بهذه الآية على فساد ما يقال ان أهل
الاعراف لا فى الجنة ولا فى النار فما قولكم فيه قلنا ما سلم أن الاطفال والمجانين خارجون عن
هذين القسمين لانهم لا يحاسبون فلم لا يجوز أيضا أن يقال ان أصحاب الاعراف خارجون
عنه لانهم أيضا لا يحاسبون لان الله تعالى علم من حالهم ان ثوابهم يساوى عذابهم فلا فائدة
فى حسابهم فان قيل القاضى استدل بهذه الآية أيضا على ان كل من حضر عرصة القيامة
فانه لا بد وأن يكون ثوابه زائدا او يكون عقابه زائدا فأما من كان ثوابه مساويا لعقابه فانه
وان كان جائزا فى العقل الا أن هذا النص دل على أنه غير موجود قلنا الكلام فيه ما سبق
من ان السعيد هو الذى يكون من اهل الثواب والشقى هو الذى يكون من اهل العقاب
وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفى القسم الثالث والدليل على ذلك ان اكثر
الايات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط وليس فيه ذكر ثالث لا يكون لا مؤمنا ولا كافرا
مع ان القاضى اثبته فاذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا
الثالث عدمه (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى حكم الآن على بعض اهل القيامة بانه سعيد
وعلى بعضهم بانه شقى ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر امتنع كونه بخلافه
والا لزم ان يصير خبر الله تعالى كذبا وعلمه جهلا وذلك محال فثبت ان السعيد لا ينقلب شقيا
وان الشقى لا ينقلب سعيدا وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب مرارا لا تحصى وروى
عن عمر رضى الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى فمنهم شقى وسعيد قلت يا رسول الله فعلى ماذا
نعمل على شئ قد فرغ منه ام على شئ لم يفرغ منه فقال على شئ قد فرغ منه يا عمر وجفت به
الاقلام وجرت به الاقدار ولكن كل ميسر لما خلق له وقالت المعتزلة نقل عن الحسن انه

قال فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله قلنا الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضا فلا نزاع انه انما شقى بعمله وانما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذى ذكرناه باقيا واعلم انه تعالى لما قسم اهل القيامة الى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى الفرق بين الزفير والشهيق وجوها (الاول) قال الليث الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه فى الغم الشديد من النفس ولم يخرجه والشهيق أن يخرج ذلك النفس وقال الفراء يقال للفرس انه عظيم الزفرة أى عظيم البطن واقول ان الانسان اذا عظم غمه انحصر روح قلبه فى داخل القلب فاذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان الى النفس القوى لاجل أن يستدخل هواء كثيرا باردا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة فلهذا السبب يعظم فى ذلك الوقت استدخال الهواء فى داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصورا فى داخل القلب استولت البرودة على الاعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير محصورا فى الصدر ويقرب من أن يختنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة فى اخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الاطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة فى القلب بسبب انحصار الروح فيه والشهيق هو اخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة فى اخراجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم (الوجه الثانى) فى الفرق بين الزفير والشهيق قال بعضهم الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار (الوجه الثالث) قال الحسن قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع فنقول الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى اذا وصلوا الى أعلى درجات جهنم وطمعوا فى أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم الى الدرك الاسفل من جهنم وذلك قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فارتفاعهم فى النار هو الزفير وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق (الوجه الرابع) قال أبو مسلم الزفير ما يجتمع فى الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس والشهيق هو الصوت الذى يظهر عند اشتداد الكربة والحزن وربما تبعتهما الغشية وربما حصل عقيبه الموت (الوجه الخامس) قال أبو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر (الوجه السادس) قال قوم الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف (الوجه السابع) قال ابن عباس رضى الله عنهما لهم فيها زفير وشهيق يريد ندامة ونفسا عاليا وبكاء لا ينقطع وحزنا لا يندفع (الوجه الثامن) الزفير مشعر بالقوة والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة اذا عرفت هذا فنقول لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم الى عالم الدنيا والى اللذات الجسدانية والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستعداد

هى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والاجس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين اباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه ارسالا ملتبسا بها

(وسلطان مبين) هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شئ واحد أى أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا اياها من ابان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الاولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة أو ادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل (الى فرعون وملئه) فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله ﴿ بعالم ﴾ تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فاتبعوا أمر فرعون) أى امره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكان كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سواء اختيارهم

وايراد الفاء في اتباعهم ايها لمترتب على أمر فرعون المبني على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم في الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله لم يتراخ عن الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك في وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بامر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشيء ﴿١٣٥﴾ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من أول الامر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم في الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال في قوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد) الرشد ضد الغي وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الاول بمعنى المرشد أو ذي الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازي وعلى الثاني مجاز والاسناد حقيقي (يقدم قومه) جميعا من الاشراف وغيرهم (يوم القيامة) أي يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله في الآخرة أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته (فأوردهم النار) أي يوردهم وايثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذي يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذي يردونه ثم قيل (وبئس الورد المورود) اي بئس الورد الذي يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك (واتبعوا) أي الملأ الذين تبعوا أمر فرعون (في هذه) أي في الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الامم الى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهي تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم أينما داروا في الموقف

بعالم الروحانيات والاستكمال بالانوار الالهية والمعارج القدسية ثم قال تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واحتجوا بالقرآن والمعقول أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين (الاول) انه تعالى قال مادامت السموات والارض دل هذا النص على ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض ثم توافقنا على ان مدة بقاء السموات والارض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة (الثاني) ان قوله الا ما شاء ربك استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب في وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضا قوله تعالى في سورة عم يتساءلون لابثين فيها أحقابا بين تعالى ان لبثهم في ذلك العذاب لا يكون الا أحقابا معدودة وأما العقل فوجهان (الاول) ان معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهي بعقاب لانهاية له ظلم وانه لا يجوز (الثاني) ان ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحا بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع الى الله تعالى لكونه متعاليا عن النفع والضرر ولا الى ذلك المعاقب لانه في حقه ضرر محض ولا الى غيره لان أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم في الالتذاذ بالعذاب الدائم في حق غيرهم فثبت ان ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز وأما الجمهور الاعظم من الامة فقد اتفقوا على ان عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا الى الجواب عن التمسك بهذه الآية أما قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض فذكروا عنه جوابين (الاول) قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها قالوا والدليل على ان في الآخرة سماء وأرضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وأيضا لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم وذلك هو الارض والسموات ولقائل أن يقول التشبيه انما يحسن ويجوز اذا كان حال المشبه به معلوما مقررا فيشبه به غيره تأكيدا لثبوت الحكم في المشبه ووجود السموات والارض في الآخرة غير معلوم وبتقدير أن يكون وجوده معلوما الا أن بقاءها على وجه لا يفنى البتة غير معلوم فاذا كان أصل وجودهما مجهولا لاكثر الخلق ودوامهما ايضا مجهولا للاكثر كان تشبيه عقاب الاشقياء به في الدوام كلاما عديم الفائدة أقصى ما في الباب أن يقال لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض في الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به وحينئذ يحسن التشبيه الا أنا نقول لما كان الطريق في اثبات دوام سموات اهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر فحينئذ الدليل الذي دل على ثبوت الحكم في الاصل حاصل بعينه في الفرع وفي هذه الصورة أجمعوا على ان القياس ضائع والتشبيه باطل فكذا ههنا (والوجه الثاني) في الجواب قالوا ان العرب يعبرون عن الدوام والابد بقولهم مادامت السموات والارض ونظيره أيضا قولهم ما اختلف الليل والنهار وماطما البحر وما أقام

فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا وكفى بذلك بيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فاظنك بحال من اغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة وفدا لهم على طريقة التهكم فقيل (بئس الرفد المرفود) أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله مايضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث ان كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها (ذلك) اشارة الى ماقص من أنباء الامم و بعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من انباء القرى) المهلكة بما جنته أيدى أهلها (نقصه عليك) خبرا بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك (منها) أى من تلك القرى (قائم وحصيد) أى ومنها حصيد حذف لدلالة الاول عليه شبه مابقى منها بالزرع القائم على ساقه وماعفا و بطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) بأن أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه (فما اغنت عنهم) فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم (آلهتهم التى يدعون) أى يعبدونها (من دون الله) أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها (من شئ) فى موضع المصدر أى شيئا من الاغناء (لما جاء أمر ربك) أى حين مجئ عذابه وهو منصوب بأغنت وقرئ آلهتهم اللاتى و يدعون على البناء للمجهول (وما زادوهم غير تتبيب) أى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وكذلك) أى ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أخذ ربك) وقرئ اخذ ربك فمحل الكاف النصب على انه مصدر مؤكد (اذا أخذ القرى) أى أهلها وانما اسند اليها الاشارة بسريان أثره اليها

الجيل وانه تعالى خاطب العرب على عرفهم فى كلامهم فلما ذكروا هذه الاشياء بناء على اعتقادهم انها باقية أبد الاباد علمنا ان هذه الالفاظ بحسب عرفهم تفيد الابد والدوام الخالى عن الانقطاع ولقائل أن يقول هل تسلمون ان قول القائل خالدين فيها مادامت السموات والارض يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات أو تقولون انه لا يدل على هذا المعنى فان كان الاول فالاشكال لازم لان النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم فى النار مساوية لمدة بقاء السموات و يمنع من حصول بقائهم فى النار بعد فناء السموات ثم ثبت انه لابد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب وأما ان قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم فى النار بعد فناء السموات والارض فلا حاجة بكم الى هذا الجواب البتة فثبت ان هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع واعلم أن الجواب الحق عندى فى هذا الباب شئ آخر وهو أن المعهود من الآية انه متى كانت السموات والارض دائمتين كان كونهم فى النار باقيا فهذا يقتضى أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى انه اذا عدم الشرط يعدم المشروط الاترى أنا نقول ان كان هذا انسانا فهو حيوان فان قلنا لكنه انسان فانه ينتج انه حيوان أما اذا قلنا لكنه ليس بانسان لم ينتج أنه ليس بحيوان لانه ثبت فى علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئا فكذا ههنا اذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم فاذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلا أما اذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم فان قالوا فاذا كان العقاب حاصلا سواء بقيت السموات أو لم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهرا داهرا وزمانا لا يحيط العقل بطوله وامتداده فاما انه هل يحصل له آخر ام لا فذلك يستفاد من دلائل أخر وهذا الجواب الذى قررته جواب حق ولكنه انما يفهمه انسان ألف شيئا من المعقولات (وأما الشبهة الثانية) وهى التمسك بقوله تعالى الا ماشاء ربك فقد ذكروا فيه أنواعا من الاجوبة (الوجه الاول) فى الجواب وهو الذى ذكره ابن قتيبة وابن الانبارى والفراء قالوا هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله البتة كقولك والله لاضربنك الا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه فكذا ههنا وطولوا فى تقرير هذا الجواب وفى ضرب الامثلة فيه وحاصله ما ذكرناه ولقائل أن يقول هذا ضعيف لانه اذا قال لاضربنك الا أن أرى غير ذلك معناه لاضربنك الا اذا رأيت أن الاولى ترك الضرب وهذا لا يدل البتة على ان هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك فان معناه الحكم بخلودهم فيها الا المدة التى شاء ربك فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزما فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان كلمة الا ههنا وردت بمعنى سوى والمعنى أنه تعالى لما قال خالدين فيها مادامت السموات والارض فهم منه أنهم يكونون فى النار فى جميع مدة بقاء السموات

﴿ والارض ﴾

حسبما ذكر وقرئ إذ أخذ (وهي ظالمة) حال من القرى وهي في الحقيقة لاهلها لكنها لما أقيمت مقامهم في الاخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بأنهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم (ان أخذه أليم شديد) وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه مالا يخفى من التهديد والتحذير (ان في ذلك) أي في أخذه تعالى للامم المهلكة أو في قصصهم (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فانه المعتبر به حيث يستدل ✤ ١٣٧ ✤ بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيآت

على أحوال عذاب الآخرة وأما من انكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شئ من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لاسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق في بعض الاوقات لا لما ذكر من المعاصي التي يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من الافكار (ذلك) اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له الناس) أي يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لامحالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع (وذلك) أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والارضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما في قوله ٢ في محفل من نواصي الناس مشهود * أي كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ما هو الغرض ✤ ١٨ ✤ خا من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الايام أيضا كذلك (وما نؤخره) أي ذلك اليوم الملحوظ بعنواني الجمع والشهود (الا لاجل معدود) الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم يأت) أي حين يأتي ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى أن تأتيهم الساعة

٢ قوله في محفل الخ صدره * ومشهد قد كفيت الغائبين به * أي ورب مشهد تكلمت فيه ونبت عن الغائبين عنه اه

والارض في الدنيا ثم قال سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولا في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له بقوله الا ما شاء ربك والمعنى الا ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها (الوجه الثالث) في الجواب وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم في الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا ففي النار الا وقت وقوفهم للمحاسبة فانهم في ذلك الوقت لا يكونون في النار وقال أبو بكر الاصم المراد الا ما شاء ربك وهو حال كونهم في القبر أو المراد الا ما شاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الاقوال الثلاثة متقاربة والمعنى خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون الى النار (الوجه الرابع) في الجواب قالوا الاستثناء يرجع الى قوله لهم فيها زفير وشهيق وتقريره أن نقول قوله لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فاذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت في المعقولات أنه كما ينتفي المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفي بانتفاء فرد واحد من أجزائه فاذا انتهوا آخر الامر الى ان يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة الى الحكم بانقطاع كونهم في النار (الوجه الخامس) في الجواب أن يحمل هذا الاستثناء على ان أهل العذاب لا يكونون أبدا في النار بل قد ينقلون الى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفي في صحة هذا الاستثناء (الوجه السادس) في الجواب قال قوم هذا الاستثناء يفيد اخراج أهل التوحيد من النار لان قوله فأما الذين شقوا ففي النار يفيد ان جملة الاشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ثم قوله الا ما شاء ربك يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع ويكفي في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الاشقياء ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة وهذا كلام قوي في هذا الباب فان قيل فهذا الوجه انما يتعين اذا فسدت سائر الوجوه التي ذكرتموها فما الدليل على فسادها وأيضا فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء فانه تعالى قال وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ قلنا أما بهذا الوجه بينا ان هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار ثم اذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار قلنا أما حمل كلمة الا على سوى فهو عدول عن الظاهر وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضا لان الاستثناء وقع عن الخلود في النار ومن المعلوم أن الخلود في النار كيفية من كيفيات الحصول في النار فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار واذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء وأما قوله الاستثناء عائد الى الزفير

وقيل يوم يأتي الجزاء الواقع فيه وقيل أي الله عزوجل فان المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرئ باثبات الياء على الاصل (لاتكلم نفس) أي لاتتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة وهو العامل في الظرف أو الانتهاء المحذوف في قوله تعالى الا لاجل معدود أي ينتهي الاجل يوم يأتي أو المضمر المعهود أعني اذكر (الا باذنه) عز سلطانه في التكلم كقوله تعالى لايتكلمون الا من أذن له الرحمن وهذا في موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عزوجل هذا يوم لاينطقون ﴿١٣٨﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون في موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها في آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما في قول الكفرة والله ربنا ماكنا مشركين ونظائره (فمنهم شقي) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) أي ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الاول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لاهل الموقف المدلول عليهم بقوله لاتكلم نفس أو للناس وتقديم الشقي على السعيد لان المقام مقام التحذير والانذار (فأما الذين شقوا) أي سبقت لهم الشقاوة (ففي النار) أي مستقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما في اول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش * بعيد مدى التطريب اول صوته * زفير ويتلوه شهيق محشرج * والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ماشأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها) خلا أنه ان أريد حدوث كونهم في النار فالحال مقدرة (مادامت السموات

والشهيق فهذا ايضا ترك للظاهر فلم يبق للآية محمل صحيح الا هذا الذي ذكرناه وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار الى الزمهرير فنقول لو كان الامر كذلك لوجب ان لايحصل العذاب بالزمهرير الا بعد انقضاء مدة السموات والارض والاخبار الصحيحة دلت على ان النقل من النار الى الزمهرير وبالعكس يحصل في كل يوم مرارا فبطل هذا الوجه وأما قوله ان مثل هذا الاستثناء حاصل في جانب السعداء فنقول أجمعت الامة على أنه يمتنع أن يقال ان أحدا يدخل الجنة ثم يخرج منها الى النار فلاجل هذا الاجماع افتقرنا فيه الى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات أما في هذه الآية لم يحصل هذا الاجماع فوجب اجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام في هذه الاية واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال ان ربك فعال لما يريد وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية اذا حملنا الاستثناء على اخراج الفساق من النار كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لاني فعال لما أريد وليس لاحد على حكم البتة ثم قال وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم سعدوا بضم السين والباقون بفتحها وانما جاز ضم السين لانه على حذف الزياده من أسعد ولان سعد لايتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال (المسئلة الثانية) الاستثناء في باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر وهو انه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة الى العرش والى المنازل الرفيعة التي لايعلمها الا الله تعالى قال تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر وقوله عطاء غير مجذوذ فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جذه يجذه جذا اذا قطعه وجذ الله دابرهم فقوله غير مجذوذ أي غير مقطوع ونظيره قوله تعالى في صفة نعيم الجنة لامقطوعة ولاممنوعة (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى لما صرح في هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك في جانب الاشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع فهذا تمام الكلام في هذه الآية * قوله تعالى (فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الاوثان ثم أتبعه باحوال الاشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال فلاتك في مرية والمعنى فلا تكن الا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ولان النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به الا مجرد الغنة فلاجرم أسقطوه والمعنى فلاتك في شك من حال مايعبدون في أنها لاتضر ولاتنفع ثم قال مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل والمراد انهم اشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد ثم قال وانا لموفوهم

﴿نصيبهم﴾

نصيبهم غير منقوص فيحتمل أن يكون المراد انا موفوهم نصيبهم أى ما يخصهم من العذاب و يحتمل أن يكون المراد انهم وان كفروا وأعرضوا عن الحق فانا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية و يحتمل أيضا ان يكون المراد انا موفوهم نصيبهم من ازالة العذر وازاحة العلل واظهار الدلائل وارسال الرسل وانزال الكتب و يحتمل أيضا أن يكون الكل مرادا * قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما يعملون خبير) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية الاولى اصرار كفار مكة على انكار التوحيد بين أيضا اصرارهم على انكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه و بين تعالى ان هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الانبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلا وهو انه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وفيه وجوه (الاول) ان المراد ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الامة الى يوم القيامة لكان الذى يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم انزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم فى دنياهم (الثانى) لولا كلمة سبقت من ربك وهى ان الله تعالى انما يحكم بين المختلفين يوم القيامة والا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل فى دار الدنيا (الثالث) ولولا كلمة سبقت من ربك وهى ان رحمته سبقت غضبه وان احسانه راجح على قهره والا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال وانهم لفى شك منه مريب يعنى ان كفار قومك لفى شك من هذا القرآن مريب ثم قال تعالى وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى ان من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء فى أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم فى الآخرة فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصى وعيد عظيم وقوله تعالى انه بما يعملون خبير توكيد للوعد والوعيد فانه لما كان عالما بجميع المعلومات كان عالما بمقادير الطاعات والمعاصى فكان عالما بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء فحينئذ لا يضيع شئ من الحقوق والاجزية وذلك نهاية البيان (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو والكسائى وان مشددة النون لما خفيفة قال أبو على اللام فى لما هى التى تقتضيه ان وذلك لان حرف ان يقتضى ان يدخل على خبرها أو اسمها لام كقوله ان الله لغفور رحيم وقوله ان فى ذلك لآية واللام الثانية هى التى تجئ بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لامان دخلت ما للفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة وقال الفراء ما موصولة بمعنى من و بقية التقرير كما تقدم ومثله وان منكم لمن ليبطئن (والقراءة الثانية) فى هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وان كلا لما مخففتان والسبب فيه انهم أعملوا أن مخففة كما تعمل مشددة لان كلمة أن تشبه

والارض) اى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب مادام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأبيد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى ﴿١٣٩﴾ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بان أهل الاخرة لابد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما (الا ما شاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير أن استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى انهم مستقرون فى النار فى جميع الازمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (ان ربك فعال لما يريد) يعنى انه فى تخليد الاشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الاجزية على أفعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة و زيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير و بأنواع أخر من العذاب و بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم و خسؤه لهم واهانته

أياهم وأنت تدرى أنا وان سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الانواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالا يعلمه الا الله سبحانه وهو العقوبات والآلام الروحانية التى لا يقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ما ألفوا من الاحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ماوراء ذلك من الاحوال الروحانية اذا ألقى اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم يحسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أن لهم فيها زفير وشهيق لان المقام مقام التحذير والانذار (الا ماشاء ربك) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدرية من معنى الجملة لان قوله ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا وان حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة

الفعل فكما يجوز اعمال الفعل تاما ومحذوفا فى قولك لم يكن زيد قائما ولم يك زيد قائما فكذلك ان وان (والقراءة الثالثة) قرأ حمزة وابن عامر وحفص وان كلا لما مشددتان قالوا وأحسن ماقيل فيه ان أصل لما لما بالتنوين كقوله أكلا لما والمعنى ان كلا ملمومين أى مجموعين كأنه قيل وان كلا جميعا (المسئلة الثالثة) سمعت بعض الافاضل قال انه تعالى لما أخبر عن توفية الاجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات (أولها) كلمة ان وهى للتأكيد (وثانيها) كلمة كل وهى أيضا للتأكيد (وثالثها) اللام الداخلة على خبر ان وهى تفيد التأكيد أيضا (ورابعها) حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا (وخامسها) القسم المضمر فان تقدير الكلام وان جميعهم والله ليوفينهم (وسادسها) اللام الثانية الداخلة على جواب القسم (وسابعها) النون المؤكدة فى قوله ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على أن امر الربوبية والعبودية لايتم الا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله انه بما يعملون خبير وهو من أعظم المؤكدات * قوله تعالى (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الوعد والوعيد قال لرسوله فاستقم كما أمرت وهذه الكلمة كلمة جامعة فى كل مايتعلق بالعقائد والاعمال سواء كان مختصا به أو كان متعلقا بتبليغ الوحى وبيان الشرائع ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدا وأنا أضرب لذلك مثالا يقرب صعوبة هذا المعنى الى العقل السليم وهو ان الخط المستقيم الذى يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لا يقبل القسمة فى العرض الا أن عين ذلك الخط مما لا يتميز فى الحس عن طرفيه فانه اذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض فى الحس فلم يقع الحس على ادراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ماسواه اذا عرفت هذا فى المثال فاعرف مثاله فى جميع ابواب العبودية (فأولها) معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصونا فى طرف الاثبات عن التشبيه وفى طرف النفى عن التعطيل فى غاية الصعوبة واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك وأيضا فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا افراط وتفريط وهما مذمومان والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل الى أحد الجانبين والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب فثبت أن معرفة الصراط المستقيم فى غاية الصعوبة وبتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب ولما كان هذا المقام فى غاية الصعوبة لاجرم قال ابن عباس مانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى هود وأخواتها وعن بعضهم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له روى عنك انك قلت

﴿ شيبتنى ﴾

عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد اخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار و يجوز أن يتعلق بكلا النعيمين او بالاول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فلاتك فى مرية) أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ماقص من القصص و بين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية (مما يعبد هؤلاء) أى من جهة عبادة هؤلاء ﴿١٤١﴾ المشركين وسوء عاقبتها أو من حال مايعبدونه من الاوثان من عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضر لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقي ذلك من أنباء الامم السالفة م رسلهم المبعوثة اليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كون فى شك من مصير أمر هؤلا المشركين فى العاجل والا ثم علل ذلك بطريق الاستئنا فقيل (مايعبدون الاكما يعب آباؤهم) الذين قصت عليك قصصهم (من قبل) أى ه وآباؤهم سواء فى الشر مايعبدون عبادة الا كعبادة أومايعبدون شيئا الا مثل ماعبدوه من الاوثان والعد الى صيغة المضارع لحكاي الحال الماضية لاستحضا صورتها أو مثل ماكانوا يعبدو فحذف كان لدلالة قوله من ق عليه ولقد بلغك ماحل بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل المسببات (وانا لموفوهم) أى هؤلاء الكفرة (نصيبهم) أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم انصباءهم المقدرة لهم أومن الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق مايوجبه (غير منقوص) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه

شيبتنى هود وأخواتها فقال نعم فقلت وبأى آية فقال بقوله فاستقم كما أمرت (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله فاستقم كما أمرت ولما ورد الامر فى الزكاة باداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ماورد أمر الله تعالى به وعندى أنه لايجوز تخصيص النص بالقياس لانه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله فاستقم كما أمرت والعمل بالقياس انحراف عنه ثم قال ومن تاب معك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى من فى محل الرفع من وجوه (الاول) أن يكون عطفا على الضمير المستتر فى قوله فاستقم وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل فى صحة العطف أى فاستقم أنت وهم (والثانى) ان يكون عطفا على الضمير فى أمرت (والثالث) أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم (المسئلة الثانية) ان الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق ففى تلك الحالة لايصح اشتغالهما بالاستقامة واما التائب عن الكفر والفسق فانه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ثم قال ولاتطغوا ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار قال ابن عباس يريد تواضعوا لله تعالى ولاتتكبروا على أحد وقيل ولاتطغوا فى القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله وقيل لاتتجاوزوا ماأمرتم به وحد لكم وقيل ولاتعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والاولى دخول الكل فيه ثم قال ولاتركنوا الى الذين ظلموا والركون هو السكون الى الشئ والميل اليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضى من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الازهرى وليست بفصيحة قال المحققون الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم فى شئ من تلك الابواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل فى الركون ومعنى قوله فتمسكم النار أى انكم ان ركنتم اليهم فهذه عاقبة الركون ثم قال ومالكم من دون الله من أولياء أى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله ثم قال ثم لاتنصرون والمراد لاتجدون من ينصركم من تلك الواقعة واعلم أن الله تعالى حكم بان من ركن الى الظلمة لابد وأن تمسه النار واذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم فى نفسه * قوله تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين) اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة وذلك يدل على ان أعظم العبادات بعد الايمان بالله هو الصلاة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) رأيت فى بعض كتب القاضى أبى بكر الباقلانى ان الخوارج تمسكوا بهذه الآية فى اثبات أن الواجب ليس الا الفجر والعشاء من وجهين (الاول) انهما واقعان على طرفى

مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه
وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل
عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على
حسب الحكمة الداعية الى ذلك (لقضى بينهم) أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب

لذى يستحقه المبطلون
يتميزوا به عن المحقين وقيل
ين قوم موسى وليس بذاك
وانهم) أى وان كفار قومك
ريد به بعض من رجع اليهم
تمير بينهم للامن من الالباس
لفى شك) عظيم (منه) أى
ن القرآن وان لم يجر له ذكر
ان ذكر ايتاء كتاب موسى
وقوع الاختلاف فيه لاسيما
صدد التسلية ينادى به نداء
ير خفى (مريب) موقع فى
لريبة (وان كلا) التنوين
عوض عن المضاف اليه أى
ان كل المختلفين فيه المؤمنين
منهم والكافرين وقرأ ابن
ثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف
مع الاعمال اعتبارا للاصل
لما ليوفينهم ربك أعمالهم)
ى أجزية أعمالهم واللام
لاولى موطئة للقسم والثانية
جواب للقسم المحذوف ولما
مركبة من من الجارة
وما الموصولة أو الموصوفة
أصلها لمن ما فقلبت النون
ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات
فحذفت اولاهن والمعنى لمن
لذى أو لمن خلق أو لمن فريق
الله ليوفينهم ربك وقرئ
لما بالتخفيف على أن ما مزيدة
لفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرئ لما بالتنوين أى جميعا كقوله
سبحانه أكلا لما وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على أن ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرئ به (انه بما يعملون) أى بما يعمله كل فرد
من المختلفين من الخير والشر (خبير) بحيث لا يخفى عليه شئ من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية
أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء

﴿ حسنا ﴾

النهار والله تعالى أوجب اقامة الصلاة طرفى النهار فوجب أن يكون هذا القدر كافيا فان قيل قوله وزلفا من الليل يوجب صلوات أخرى قلنا لا نسلم فان طرفى النهار موصوفان بكونهما زلفا من الليل فان ما لا يكون نهارا يكون ليلا غاية ما فى الباب ان هذا يقتضى عطف الصفة على الموصوف الا أن ذلك كثير فى القرآن والشعر (الوجه الثانى) أنه تعالى قال ان الحسنات يذهبن السيآت وهذا يشعر بأن من صلى طرفى النهار كان اقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال ان سائر الصلوات واجبة الا ان اقامتهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات واعلم أن هذا القول باطل باجماع الامة فلا يلتفت اليه (المسئلة الثانية) كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والاقرب ان الصلاة التى تقام فى طرفى النهار هى الفجر والعصر وذلك لان أحد طرفى النهار طلوع الشمس والطرف الثانى منه غروب الشمس فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثانى لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثانى على صلاة العصر اذا عرفت هذا كانت الآية دليلا على قول أبى حنيفه رحمه الله فى أن التنوير بالفجر أفضل وفى أن تأخير العصر أفضل وذلك لان ظاهر هذه الآية يدل على وجوب اقامة الصلاة فى طرفى النهار وبينا أن طرفى النهار هما الزمان الاول لطلوع الشمس والزمان الثانى لغروبها وأجمعت الامة على أن اقامة الصلاة فى ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية فوجب حمله على المجاز وهو أن يكون المراد أقم الصلاة فى الوقت الذى يقرب من طرفى النهار لان ما يقرب من الشئ يجوز أن يطلق عليه اسمه واذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب الى طلوع الشمس والى غروبها كان أقرب الى ظاهر اللفظ واقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب الى وقت الطلوع من اقامتها عند التغليس وكذلك اقامة صلاة العصر عند ما يصير ظل كل شئ مثليه أقرب الى وقت الغروب من اقامتها عند ما يصير ظل كل شئ مثله والمجاز كلما كان أقرب الى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه اولى فثبت أن ظاهر هذه الآية يقوى قول أبى حنيفة فى هاتين المسئلتين وأما قوله وزلفا من الليل فهو يقتضى الامر باقامة الصلاة فى ثلاث زلف من الليل لان أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب ايقاع الصلاة فيها واذا ثبت وجوب الوتر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وجب فى حق غيره لقوله تعالى واتبعوه ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فالذى هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر والذى هو قبل غروبها هو صلاة العصر ثم قال تعالى ومن آناء الليل فسبح وهو نظير قوله وزلفا من الليل (المسئلة الثالثة) قال المفسرون نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما تقول فى رجل أصاب من امرأة محرمة كلما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع فقال عليه الصلاة والسلام ليتوضأ وضوأ

حسنا ثم ليقم وليصل فانزل الله تعالى هذه الآية فقيل للنبي عليه الصلاة والسلام هذا له خاصة فقال بل هو للناس عامة وقوله وزلفا من الليل قال الليث زلفة من أول الليل طائفة والجمع الزلف قال الواحدى وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى هى القربى يقال أزلفته فازدلف أى قربته فاقترب (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف قرئ زلفا بضمتين وزلفا باسكان اللام وزلفى بوزن قربى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمتين نحو يسر فى يسر والزلفى بمعنى الزلفة كما أن القربى بمعنى القربة وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل وقيل فى تفسير قوله وزلفا من الليل وقربا من الليل ثم قال ان الحسنات يذهبن السيئات وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير الحسنات قولان (الاول) قال ابن عباس المعنى ان الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر (والثانى) روى عن مجاهد أن الحسنات هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (المسئلة الثانية) احتج من قال ان المعصية لا تضر مع الايمان بهذه الآية وذلك لان الايمان أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيآت فالايمان الذى هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو أعلى درجة فى العصيان فلأن يقوى على المعصية التى هى أقل السيآت درجة كان أولى فان لم يفد ازالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد ازالة العذاب الدائم المؤبد ثم قال تعالى ذلك ذكرى للذاكرين فقوله ذلك اشارة الى قوله فاستقم كما أمرت الى آخرها ذكرى للذاكرين عظة للمتعظين وارشاد للمسترشدين ثم قال واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين قيل على الصلاة وهو كقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها * قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) اعلم أنه تعالى لما بين ان الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران (السبب الاول) أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى فلولا كان من القرون والمعنى فهلا كان وحكى عن الخليل أنه قال كل ما كان فى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التى فى الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى فى غير الصافات لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء ولولا رجال مؤمنون ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وقوله أولو بقية فالمعنى أولو فضل وخير وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار هذا اللفظ مثلا فى الجودة يقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرئ أولو بقية بوزن لقية من بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره والبقية المرة من مصدره والمعنى فلولا كان منهم أولو

المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر (فاستقم كما أمرت) لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الامم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وانه لولم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التام الى يوم القيامة لفعل بهم ما ف بآبائهم من قبل وأنهم يوفو نصيبهم غير منقوص وأن ك واحد من المؤمنين والكافر يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقام كما أمر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمن ولا سيما الاعمال الخاصة ب عليه السلام من تبليغ الاحكا الشرعية والقيام بوظائف الن وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق صدرك الآية وبالجملة فهذ الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعمل والخروج عن عهدته فى غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه و شيبتنى سورة هود (ومن تاب معك) أى تاب من الشرك والكف وشاركك فى الايمان وهو المعن بالمعية وهو معطوف على المستك فى قوله فاستقم وحسن من غي تأكيد لمكان الفصل القائم مقا وفى الحقيقة هو من عطف الجم على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك (ولا تطغوا) ولا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفى قصد الامور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للامر والنهى وفى

الآية دلالة على وجوب اتباع النصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (ولاتركنوا) أى لاتميلوا أدنى ميل (الى الذين ظلموا) أى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وماقيل من أن ذلك للمبالغة فى النهى من حيث ان كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم أن لوكان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم) بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فاظنك بمن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى أحد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه (ومالكم من دون الله من أولياء) أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الاولياء ليس بطريق نفى أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولى بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لاتنصرون) من جهة الله سبحانه اذ قدسبق فى حكمه أن يعذبكم بركونكم اليهم

✻ انكرهما ✻

مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى ثم قال الا قليلا ولا يمكن جعله استثناء متصلا لانه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لأولى البقية فى النهى عن الفساد الا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين فى قراءة القرآن واذا ثبت هذا قلنا انه استثناء منقطع والتقدير لكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى (والسبب الثانى) لنزول عذاب الاستئصال قوله واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه والترفة النعمة وصبى مترف اذا كان منعم البدن والمترف الذى أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركى النهى عن المنكرات أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو فى رواية الجعفى واتبع الذين ظلموا ما أترفوا أى واتبعوا حرا ما أترفوا فيه ثم قال وكانوا مجرمين ومعناه ظاهر ✻ قوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) اعلم أنه تعالى بين انه ما أهلك أهل القرى الا بظلم وفيه وجوه (الاول) ان المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم والمعنى انه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء والظلم ولهذا قال الفقهاء ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال فى الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم فمعنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أى لا يهلكهم بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية قالوا والدليل عليه ان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب انما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (والوجه الثانى) فى التأويل وهو الذى تختاره المعتزلة هو انه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعاليا عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل انما يهلكهم لاجل سوء أفعالهم ثم قال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار وقد سبق الكلام عليه ثم قال ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك والمراد افتراق الناس فى الاديان والاخلاق والافعال واعلم انه لا سبيل الى استقصاء مذاهب العالم فى هذا الموضع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذى سميناه بالرياض المونقة الا انا نذكر ههنا تقسيما جامعا للمذاهب فنقول الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بان النار حارة والشمس مضيئة والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفى والاثبات لا يجتمعان ومنهم من

ولايبقى عليكم وثم للتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لاينقذهم أنتج انهم لايبصرون أصلا (وأقم الصلوة طرفى النهار) اى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت (وزلفا من الليل) اى ساعات منه قريبة من النهار فانه من أزلفه اذا قربه جمع ❊ ١٤٥ ❊ زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لان ما بعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (ان الحسنات) التى من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات (يذهبن السيآت) التى قلما يخلو منها البشر أى يكفرنها وفى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى أبى اليسر الانصارى اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام أنتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ذلك) اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن (ذكرى للذاكرين) اى عظة للمتعظين (واصبر) على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الاوامر السابقة وأما ما نهى عنه من الطغيان ❊ ١٩ ❊ خا والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به ما لايمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لايخفى (فان الله لايضيع أجر المحسنين) اى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير

أنكرهما والمنكرون هم السوفسطائية والمقرون هم الجمهور الاعظم من أهل العالم وهم فريقان منهم من سلم انه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ومنهم من أنكره وهم الذين ينكرون أيضا النظر الى العلوم وهم قليلون والاولون هم الجمهور الاعظم من أهل العالم وهم فريقان منهم من لايثبت لهذا العالم الجسمانى مبدأ أصلا وهم الاقلون ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان منهم من يقول ذلك المبدأ موجب بالذات وهم جمهور الفلاسفة فى هذا الزمان ومنهم من يقول انه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم ثم هؤلاء فريقان منهم من يقول انه ما أرسل رسولا الى العباد ومنهم من يقول انه أرسل الرسول فالاولون هم البراهمة والقسم الثانى أرباب الشرائع والاديان وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وفى كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لاحد لها ولاحصر والعقول مضطربة والمطالب غامضة ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ولما حسن من بقراط أن يقول فى صناعة الطب العمر قصير والصناعة طويلة والقضاء عسر والتجربة خطر فلان يحسن ذكره فى هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة كان ذلك أولى فان قيل انكم حملتم قوله تعالى ولايزالون مختلفين على الاختلاف فى الاديان فما الدليل عليه ولم لايجوز أن يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال قلنا الدليل عليه ان ما قبل هذه الآية هو قوله ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة وما بعد هذه الآية هو قوله الا من رحم ربك فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله الا من رحم ربك وذلك ليس الا ما قلنا ثم قال تعالى الا من رحم ربك احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والايمان لاتحصل الا بتخليق الله تعالى وذلك لان هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف فى الدين لايحصل الا لمن خصه الله برحمته وذلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا أن يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة قال القاضى معناه الا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب فيرحمه الله بالثواب ويحتمل الا من رحمه الله بألطافه فصار مؤمنا بألطافه وتسهيله وهذان الجوابان فى غاية الضعف (أما الاول) فلان قوله ولايزالون مختلفين الا من رحم ربك يفيد ان ذلك الاختلاف انما زال بسبب هذه الرحمة فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف والثواب شئ متأخر عن زوال هذا الاختلاف فالاختلاف جار مجرى المسبب له ومجرى المعلول فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد (وأما الثانى) وهو حمل هذه الرحمة على الالطاف فنقول جميع الالطاف التى فعلها فى حق المؤمن فهى مفعولة أيضا فى حق الكافر وهذه الرحمة أمر اختص به المؤمن فوجب أن يكون شيئا زائدا على تلك

موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها البيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى أن الصبر على ما ذكر من باب الاحسان (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) ﴿ ١٤٦ ﴾ على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أولو بقية) من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسميابها لان الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم اى من خيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذوو ابقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرئ أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره اى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (ينهون عن الفساد فى الارض) الواقع منهم حسب ما حكى عنهم (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع اى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون ولا لصحة الاتصال على ظاهر الكلام لانه يكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا القليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريدا لاستثناء الصلحاء من المحضضين ﴿ من ﴾ على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما أترفوا فيه) أى أنعموا من الشهوات واهتموا

الالطاف وأيضا فحصول تلك الالطاف هل يوجب رجحان وجود الايمان على عدمه أولا يوجبه فان لم يوجبه كان وجود تلك الالطاف وعدمها بالنسبة الى حصول هذا المقصود سيان فلم يك لطفا فيه وان أوجب الرجحان فقد بينا فى الكتب العقلية انه متى حصل الرجحان فقد وجب وحينئذ يكون حصول الايمان من الله ومما يدل على أن حصول الايمان لا يكون الا بخلق الله انه ما لم يتميز الايمان عن الكفر والعلم عن الجهل امتنع القصد الى تكوين الايمان والعلم وانما يحصل هذا الامتياز اذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقا للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك وانما يصح حصول هذا العلم ان لو عرف ان ذلك المعتقد فى نفسه كيف يكون وهذا يوجب انه لا يصح من العبد القصد الى تكوين العلم بالشئ الا بعد أن كان عالما وذلك يقتضى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال فثبت ان زوال الاختلاف فى الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل الا بخلق الله تعالى وهو المطلوب ثم قال تعالى ولذلك خلقهم وفيه ثلاثة أقوال (القول الاول) قال ابن عباس وللرحمة خلقهم وهذا اختيار جمهور المعتزلة قالوا ولا يجوز أن يقال وللاختلاف خلقهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان عود الضمير الى أقرب المذكورين أولى من عوده الى أبعدهما وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة والاختلاف أبعدهما (والثانى) انه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الايمان لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه اذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف (الثالث) اذا فسرنا الآية بهذا المعنى كان مطابقا لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فان قيل لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال ولتلك خلقهم ولم يقل ولذلك خلقهم قلنا ان تأنيث الرحمة ليس تأنيثا حقيقيا فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله هذا رحمة من ربى وقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين (والقول الثانى) ان المراد وللاختلاف خلقهم (والقول الثالث) وهو المختار انه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا وأهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا والذى يدل على صحة هذا التأويل وجوه (الاول) الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما فى العبد الا بتخليق الله تعالى (الثانى) أن يقال انه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وعلى الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك والا لزم انقلاب العلم جهلا وهو محال (الثالث) انه تعالى قال بعده وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وهذا تصريح بانه تعالى خلق أقواما للهداية والجنة وأقواما آخرين للضلالة والنار وذلك يقوى هذا التأويل * قوله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر فى هذه الآية نوعين

بتحصيلها اما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة (وكانوا مجرمين) اى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام اى لم ينهوا واتبع الخ فيكون

العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله الا قليلا اى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع اى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ وأتبع اى أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء (وما كان ربك ليهلك القرى) اى ما صح وما استقام بل استحال فى الحكمة أن يهلك القرى التى أهلكها حسبما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتاكيد النفى وقوله (بظلم) اى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل اى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقدم تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم

من الفائدة (أولهما) تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت فاذا سمع الرسول هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء صلوات الله عليهم مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (والفائدة الثانية) قوله وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وفى قوله فى هذه وجوه (أحدها) فى هذه السورة (وثانيها) فى هذه الآية (وثالثها) فى هذه الدنيا وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك لاحتمال أن يكون الحق المذكور فى هذه السورة أكمل حالا مما ذكر فى سائر السور ولو لم يكن فيها الا قوله فاستقم كما أمرت لكان الامر كما ذكرنا ثم انه تعالى بين انه جاء فى هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى (أما الحق) فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة (وأما الذكرى) فهى اشارة الى الارشاد الى الاعمال الباقية الصالحة (وأما الموعظة) فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح أحوالها فى الدار الآخرة والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة وذلك لان الروح انما جاء من ذلك العالم الا انه لاستغراقه فى محبة الجسد فى هذا العالم نسى أحوال ذلك العالم فالكلام الالهى يذكره أحوال ذلك العالم فلهذا السبب صح اطلاق لفظ الذكر عليه (ثم ههنا دقيقة أخرى عجيبة) وهى ان المعارف الالهية لابد لها من قابل ومن موجب وقابلها هو القلب والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الالهية والتجليات القدسية لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب وهو تثبيت الفؤاد ثم لما ذكر صلاح حال القابل أردفه بذكر الموجب وهو مجىء هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى وهذا الترتيب فى غاية الشرف والجلالة * قوله تعالى (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية فى الاعذار والانذار والترغيب والترهيب أتبع ذلك بأن قال للرسول وقل للذين لا يؤمنون ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة اعملوا على مكانتكم انا عاملون وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه والمعنى افعلوا كل ما تقدرون عليه فى حقى من الشر فنحن أيضا عاملون وقوله اعملوا وان كانت صيغته صيغة الامر الا ان المراد منها التهديد كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وكقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان قال ابن عباس رضى الله عنهما وانتظروا الهلاك فانا منتظرون لكم

لدلالته على تقييد نفى الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية اى لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام النهى عن المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الارض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت انباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ماهم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) فى الحق اى مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (الا من رحم ربك) الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه اى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور (ولذلك) اى ولما ذكر من الاختلاف (خلقهم) اى ﴿ هذه ﴾ الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أولهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين (وتمت كلمة ربك) اى وعيده أو قوله للملائكة (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) اى من عصاتهما

العذاب * ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال ولله غيب السموات والارض واعلم أن مجموع ما يحتاج الانسان الى معرفته أمور ثلاثة وهى الماضى والحاضر والمستقبل أما الماضى فهو أن يعرف الموجود الذى كان موجودا قبله وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذى نقله من العدم الى الوجود وذلك هو الاله تعالى وتقدس واعلم أن حقيقة ذات الاله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة وانما المعلوم للبشر صفاته ثم ان صفاته قسمان صفات الجلال وصفات الاكرام أما صفات الجلال فهى سلوب كقولنا انه ليس بجوهر ولا جسم ولا كذا ولا كذا وهذه السلوب فى الحقيقة ليست صفات الكمال لان السلوب عدم والعدم المحض والنفى الصرف لا كمال فيه فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم انما أفاد الكمال لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرا عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا ألا ترى ان الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله وهو يطعم ولا يطعم انما أفاد الجلال والكمال والكبرياء لان قوله ولا يطعم يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنيا عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه فثبت ان صفات الكمال والعز والعلو هى الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان العلم والقدرة فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته فى هذه الآية بهما فى معرض التعظيم والثناء والمدح أما صفة العلم فقوله ولله غيب السموات والارض والمراد ان علمه نافذ فى جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات وتمام البيان والشرح فى دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه فى تفسير قوله سبحانه وتعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وأما صفة القدرة فقوله واليه يرجع الامر كله والمراد ان مرجع الكل اليه وانما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذى يكون مبدأ لجميع الممكنات واليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهارا للعدم بالوجود والتحصيل جبارا له بالقوة والفعل والتكميل فهذان الوصفان هما المذكوران فى شرح جلال المبدا ونعت كبريائه (والمرتبة الثانية) من المراتب التى يجب على الانسان كونه عالما بها أن يعرف ماهو مهم له فى زمان حياته فى الدنيا وما ذلك الا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية وهذه المرتبة لها بداية ونهاية اما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية أما العبادات الجسدانية فأفضل الحركات الصلاة وأكمل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة وأما العبادة الروحانية فهى الفكر والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى فى ملكوت السموات والارض كما قال تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض وأما نهاية هذه المرتبة فالانتهاء من الاسباب الى مسببها وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات وتوجيه حدقة العقل الى نور عالم الجلال واستغراق الروح فى اضواء عالم الكبرياء ومن وصل الى

أجمعين أومنهما أجمعين لا من احدهما (وكلا) اى وكل نبا فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نقص عليك) نخبرك به وقوله تعالى (من أنباء الرسل) بيان لكلا وقوله تعالى (مانثبت به فؤادك) بدل منه والاظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص اى كل اقتصاص اى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من انباء الرسل وقوله تعالى مانثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الامم السالفة فى تماديهم فى الضلال ومالقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك فى هذه) السورة أو الانباء المقصوصة عليك (الحق) الذى لا محيد عنه (وموعظة وذكرى للمؤمنين) اى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالاله فى نفسه حلى باللام دون ماهو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لان المقصود بيان منافع السورة أو الانباء المقصوصة فيها واشتمالها على ماذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولان عند تاخير ماحقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (وقل للذين لا يؤمنون) بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان (انا عاملون) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به (وانتظروا) بنا الدوائر (انا منتظرون) أن ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله) ليرجع لا محالة أمرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى

هذه الدرجة رأى كل ماسواه مهرولا تائها فى ساحة كبريائه هالكا فانيا فى فناء سناء أسمائه وحاصل الكلام ان أول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله وآخرها التوكل على الله فلهذا السبب قال فاعبده وتوكل عليه (والمرتبة الثالثة) من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل وهو انه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية وهل لاعماله أثر فى السعادة والشقاوة واليه الاشارة بقوله تعالى ومار بك بغافل عما تعملون والمقصود انه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين وذلك بأن يحضروا فى موقف القيامة و يحاسبوا على النقير والقطمير و يعاتبوا فى الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الامر فريق فى الجنة وفريق فى السعير فظهر ان هذه الآية وافية بالارشاد الى جميع المطالب العلوية والمقاصد القدسية وانه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادى للصواب تمت السورة بحمد الله وعونه وقد وجد بخط المصنف رضى الله عنه فى النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة احدى وستمائة وقد كان لى ولد صالح حسن السيرة فتوفى فى الغربة فى عنفوان شبابه وكان قلبى كالمحترق لذلك السبب فانا أنشد الله اخوانى فى الدين وشركائى فى طلب اليقين وكل من نظر فى هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❋ (سورة يوسف مائة واحدى عشرة آية مكية) ❋

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقد ذكرنا فى أول سورة يونس تفسير الر تلك آيات الكتاب الحكيم فقوله تلك اشارة الى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة المسماة الر هى آيات الكتاب المبين وهو القرآن وانما وصف القرآن بكونه مبينا لوجوه (الاول) ان القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم (والثانى) انه بين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام ولما بينت هذه الاشياء فيه كان الكتاب مبينا لهذه الاشياء (الثالث) انه بينت فيه قصص الاولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين ثم قال انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وفيه مسائل (المسألة الاولى) روى ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها و يقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل

الله تعالى وفى تاخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لاينفع دونها (ومار بك بغافل عما يعملون) فيجازيهم بموجبه
وقرئ تعملون على تغليب المخاطب اى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق * عن رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة
والسلام و بعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله * ١٥٠ * سبحانه وتعالى * (سورة يوسف عليه
السلام وهى مائة واحدى
عشرة آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الر) الكلام فيه وفى محله
وفيما أريد بالاشارة والآيات
والكتاب فى قوله تعالى (تلك
آيات الكتاب) عين ما سلف
فى مطلع سورة يونس (المبين)
من أبان بمعنى بان اى الظاهر
أمره فى كونه من عند الله
تعالى وفى اعجازه بنوعيه
لاسيما الاخبار عن الغيب أو
الواضح معانيه للعرب بحيث
لايشتبه عليهم حقائقه
ولايلتبس لديهم دقائقه
لنزوله على لغتهم أو بمعنى
بين اى المبين لما فيه من الاحكام
والشرائع وخفايا الملك
والملكوت وأسرار النشأتين
فى الدارين وغير ذلك من الحكم
والمعارف والقصص وعلى
تقدير كون الكتاب عبارة
عن السورة فابانته انباؤه عن
قصة يوسف عليه السلام
فانه قد روى أن أحبار اليهود
قالوا لرؤساء المشركين سلوا
محمدا صلى الله عليه وسلم
لماذا انتقل آل يعقوب من الشام
الى مصر وعن قصة يوسف
عليه السلام ففعلوا ذلك
فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سياتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف * من *
الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافى فقيل (انا أنزلناه) اى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان
عبارة عن الكل وهو الاظهر الانسب بقوله تعالى (قرآنا عربيا) اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع
الى الفهم عند اطلاقهما فالامر ظاهر وان جعل

والبعض (المسئلة الثانية) احتج الجبائى بهذه الآية على كون القرآن مخلوقا من ثلاثة
أوجه (الاول) ان قوله انا أنزلناه يدل عليه فان القديم لايجوز تنزيله وانزاله وتحويله من
حال الى حال (الثانى) انه تعالى وصفه بكونه عربيا والقديم لايكون عربيا ولافارسيا
(الثالث) انه لما قال انا أنزلناه قرآنا عربيا دل على انه تعالى كان قادرا على أن ينزله لاعربيا
وذلك يدل على حدوثه (الرابع) ان قوله تلك آيات الكتاب يدل على انه مركب من
الآيات والكلمات وكل ما كان مركبا كان محدثا (والجواب) عن هذه الوجوه بأسرها
أن نقول انها تدل على ان المركب من الحروف والكلمات والالفاظ والعبارات محدث
وذلك لانزاع فيه انما الذى ندعى قدمه شئ آخر فسقط هذا الاستدلال (المسئلة الثالثة)
احتج الجبائى بقوله لعلكم تعقلون فقال كلمة لعل يجب حملها على الجزم والتقدير
انا أنزلناه قرآنا عربيا لتعقلوا معانيه فى أمر الدين اذلايجوز أن يراد بلعلكم تعقلون
الشك لانه على الله محال فثبت ان المراد انه أنزله لارادة أن يعرفوا دلائله وذلك يدل على
انه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه من عرف منهم ومن لم يعرف
بخلاف قول المجبرة (والجواب) هب أن الامر على ما ذكرتم الا أنه يدل على انه تعالى أنزل
هذه السورة وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم انها تدل على أنه تعالى
أراد من الكل الايمان والعمل الصالح * قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص
بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) روى سعيد بن جبير انه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكان يتلوه على قومه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم
فقالوا لو حدثتنا فنزل الله نزل أحسن الحديث كتابا فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يأن للذين
آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله (المسئلة الثانية) القصص اتباع الخبر بعضه بعضا
وأصله فى اللغة المتابعة قال تعالى وقالت لاخته قصيه أى اتبعى أثره وقال تعالى فارتدا
على آثارهما قصصا أى اتباعا وانما سميت الحكاية قصصا لان الذى يقص الحديث يذكر
تلك القصة شيئا فشيئا كما يقال تلا القرآن اذا قرأه لانه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد
آية والقصص فى هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص يقال قص
الحديث يقصه قصا وقصصا اذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله ارسالا ويجوز أن يكون
من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى أى مقدوره وهذا الكتاب علم
فلان أى معلومه وهذا رجاؤنا أى مرجونا فان حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك
أحسن الاقتصاص وعلى هذا التقدير فالحسن يعود الى حسن البيان لا الى القصة
والمراد من هذا الحسن كون هذه الالفاظ فصيحة بالغة فى الفصاحة الى حد الاعجاز
ألا ترى ان هذه القصة مذكورة فى كتب التواريخ مع أن شيئا منها لايشابه هذه السورة
فى الفصاحة والبلاغة وان حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه

من العبر والنكت والحكم والعجائب التى ليست فى غيرها فان احدى الفوائد التى فى هذه القصة أنه لادافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى اذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه (والفائدة الثانية) دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان (والفائدة الثالثة) أن الصبر مفتاح الفرج كما فى حق يعقوب عليه السلام فانه لما صبر فاز بمقصوده وكذلك فى حق يوسف عليه السلام فأما قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن فالمعنى بوحينا اليك هذا القرآن وهذا التقدير ان جعلنا ما مع الفعل بمنزلة المصدر ثم قال وان كنت من قبله يريد من قبل أن نوحى اليك لمن الغافلين عن قصة يوسف واخوته لانه عليه السلام انما علم ذلك بالوحى ومنهم من قال المراد انه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ❊ قوله تعالى (اذ قال يوسف لابيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تقدير الآية اذكر اذ قال يوسف قال صاحب الكشاف الصحيح أنه اسم عبرانى لانه لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف وقرأ بعضهم يوسف بكسر السين ويوسف بفتحها وأيضا روى فى يونس هذه اللغات الثلاث وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام (المسئلة الثانية) قرأ ابن عامر يا أبت بفتح التاء فى جميع القرآن والباقون بكسر التاء أما الفتح فوجهه أنه كان فى الاصل يا أبتاه على سبيل الندبة فحذفت الالف والهاء وأما الكسر فأصله يا أبى فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال يا أبت ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فادخلوا عليه الاضافة وهذا قول ثعلب وابن الانبارى واعلم أن النحويين طولوا فى هذه المسئلة ومن أراد كلامهم فليطالع كتبهم (المسئلة الثالثة) ان يوسف عليه السلام رأى فى المنام ان أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدت له وكان له أحد عشر نفرا من الاخوة ففسر الكواكب بالاخوة والشمس والقمر بالاب والام والسجود بتواضعهم له ودخولهم تحت أمره وانما حملنا قوله انى رأيت أحد عشر كوكبا على الرؤيا لوجهين (الاول) أن الكواكب لاتسجد فى الحقيقة فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا (والثانى) قول يعقوب عليه السلام لاتقصص رؤياك على اخوتك وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله رأيتهم لى ساجدين فقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات قلنا ان جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية وكذلك احتجوا بقوله تعالى وكل فى فلك يسبحون والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء وقال الواحدى انه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل فأخبر عنها كما يخبر

عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف والسر فى ذلك أنه اسم جنس فى الاصل يقع على الكل والبعض كالكتاب او لانه مصدر بمعنى المفعول اى أنزلناه حال كونه مقروا بلغتكم (لعلكم تعقلون) اى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر (نحن نقص عليك) اى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره اذا اتبعه لان من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا كما يقال تلا القرآن لانه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية (أحسن القصص) اى أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما فى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول اما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل (بما أوحينا) اى بايحائنا (اليك هذا القرآن) اى هذه السورة فان كونها موحاة منبئ عن كون ما فى ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحى غير المتلو واما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود وأحسنيته لانه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الاولين والآخرين وان كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال واليمين وفى كلمة هذا ايماء الى مغايرة هذا القرآن لما فى قوله تعالى قرآنا عربيا بأن يكون المراد بذلك المجموع فتامل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الانباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمى به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه (وان كنت) ان مخففة من الثقيلة وضمير الشان الواقع اسما لها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وان الشان كنت (من قبله) من قبل ايحائنا اليك هذه السورة (لمن الغافلين) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك

ط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شان النبي عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين (اذ قال يوسف) نصب باضمار اذكر وشروع في القصة انجاز للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص و يوسف اسم عبري لاعربي والخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها ﴿ ١٥٢ ﴾ على بعض القرآآت بناء على التلاعب به لاعلى أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لابيه) يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (ياأبت) أصله ياأبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة فلذلك قلبت هاء في الوقف على قراءة ابن كثير وأبي عمرو و يعقوب وكسرها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر في كل القرآن لانها حركة أصلها أو لان الاصل ياأبتا فحذف الالف وبقي الفتحة وانما لم يجز ياأبتي لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كأصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب (اني رأيت) من الرؤيا لامن الرؤية لقوله لاتقصص رؤياك هذا تاويل رؤياي ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة في عالم الشهادة لايختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لايخفى على أحد من الناس ﴿ قال ﴾ (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) روى عن جابر رضي الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله عليه وسلم فقال أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبي عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق

عمن يعقل كما قال في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون وكما في قوله ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم (السؤال الثاني) قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية وقال رأيتهم لي ساجدين فما الفائدة في هذا التكرير (الجواب) قال القفال رحمه الله ذكرا لرؤية الاولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له كيف رأيت فقال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا القائل لم يبين ان أيهما يحمل على الرؤية وأيهما على الرؤيا فذكر قولا مجملا غير مبين (السؤال الثالث) لم أخر الشمس والقمر قلنا أخرهما لفضلهما على الكواكب لان التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال (السؤال الرابع) المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله

ترى الاكم فيه سجدا للحوافر * قلنا كلا هما محتمل والاصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له (السؤال الخامس) متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا قلنا لاشك أنه رآها حال الصغر فاما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم الا بالاخبار قال وهب رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كان مركوزة في الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لاتذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون سنة واعلم أن الحكماء يقولون ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لايحصل الاعلام بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم (السؤال السادس) قال بعضهم المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه قلنا انما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لان رؤيا الانبياء عليهم السلام لابد وأن تكون وحيا وهذه الحجة غير قوية لان يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الانبياء (السؤال السابع) وما تلك الكواكب قلنا روى صاحب الكشاف أن يهوديا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي ان أخبرتك هل تسلم

قال نعم قال جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له فقال اليهودى اى والله انها لاسماؤها واعلم أن كثيرا من هذه الاسماء غير مذكور فى الكتب المصنفة فى صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال * قوله تعالى (قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حفص يا بنى بفتح الياء والباقون بالكسر (المسئلة الثانية) ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالامارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن اخوته وأبويه يخضعون له فقال لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدا (المسئلة الثالثة) قال الواحدى الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى الا أنه لما صار اسما لهذا المتخيل فى المنام جرى مجرى الاسماء قال صاحب الكشاف الرؤيا بمعنى الرؤية الا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفى التأنيث كما قيل القربة والقربى وقرئ رويالك بقلب الهمزة واوا وسمع الكسائى يقرأ ريالك و ريالك بالادغام وضم الراء وكسرها وهى ضعيفة ثم قال تعالى فيكيدوا لك كيدا وهو منصوب باضمار ان والمعنى ان قصصتها عليهم كادوك فان قيل فلم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى قلنا هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل هى من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيدا لك قال أهل التحقيق وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا والا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدا وغضبا ثم قال ان الشيطان للانسان عدو مبين والسبب فى هذا الكلام انهم لو اقدموا على الكيد لكان ذلك مضافا الى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ثم ان يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكر أمورا (أولها) قوله وكذلك يجتبيك ربك يعنى وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شان كذلك يجتبيك لامور عظام قال الزجاج الاجتباء مشتق من جبيت الشئ اذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض واختلفوا فى المراد بهذا الاجتباء فقال الحسن يجتبيك ربك بالنبوة وقال آخرون المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه (وثانيها) قوله ويعلمك من تأويل الاحاديث وفيه وجوه (الاول) المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رآه فى المنام يعنى تأويل أحاديث الناس فيما يرونه فى منامهم قالوا انه عليه السلام كان فى علم التعبير غاية

والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى اى والله انها الاسماؤها وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام ﴿ ١٥٣ ﴾ وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الارض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لى ساجدين) استئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف ﴿ ٢٠ ﴾ خا العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما فى ضمنه من رعاية الفاصلة (قال يا بنى) صغره للشفقة أو لها واصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من

هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة و يصطفيه للنبوة و ينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة و بغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطمعا فى حصوله بلامشقة (لاتقصص رؤياك) هى مافى المنام كما أن الرؤية مافى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة

وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لايكون التفاوت الابالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والااحتاجت اليه (على اخوتك فيكيدوا) نصب باضمار أن أى فيفعلوا (لك) أى لاجلك ولاهلاكك (كيدا) متينا راسخا لاتقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل مادلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل ﴿ عليه ﴾ انما جئ باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم

(والثانى) تأويل الاحاديث فى كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين كما ان الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله وتأويل الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم (والثالث) الاحاديث جمع حديث والحديث هو الحادث وتأويلها مآلها ومآل الحوادث الى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته والمراد من تأويل الاحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته (وثالثها) قوله و يتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لايمكنه أن يفسر اتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضا والالزم التكرار بل يفسر اتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والحشم واجلاله فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية فههنا يفسر اتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بامور (الاول) ان اتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان وماذاك فى حق البشر الا بالنبوة فان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة الى كمال النبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشر ليس الا النبوة (والثانى) قوله كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ومعلوم أن النعمة التامة التى بها حصل امتياز ابراهيم واسحق عن سائر البشر ليس الا النبوة فوجب أن يكون المراد باتمام النعمة هو النبوة واعلم انا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء وذلك لانه قال و يتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب فلما كان المراد من اتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به فى حق من عدا أبنائه فوجب أن يبقى معمولا به فى حق أولاده وأيضا ان يوسف عليه السلام قال انى رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله أحد عشر نفسا لهم فضل وكمال و يستضئ بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لاشئ أضوأ من الكواكب و بها يهتدى وذلك يقتضى أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء و رسلا فان قيل كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام قلنا ذاك وقع قبل النبوة وعندنا العصمة انما تعتبر فى وقت النبوة لاقبلها (القول الثانى) أن المراد من قوله و يتم نعمته عليك خلاصه من المحن و يكون وجه التشبيه فى ذلك بابراهيم واسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على ابراهيم بانجائه من النار وعلى ابنه اسحق بتخليصه من الذبح (والقول الثالث) أن اتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه فى الدنيا بنعمة الآخرة بان جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى فى الجنة واعلم أن القول الصحيح هو الاول لان النعمة التامة فى حق البشر ليست الا النبوة وكل ماسواها فهى ناقصة بالنسبة اليها ثم انه

عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله ان ربك عليم حكيم فقوله عليم اشارة الى قوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقوله حكيم اشارة الى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لا يضع النبوة الا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية فان قيل هذه البشارات التى ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها أم لا فان كان قاطعا بصحتها فكيف حزن على يوسف عليه السلام وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله وكيف خاف عليه من اخوته أن يهلكوه وكيف قال لاخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه و يجعله رسولا فاما اذا قلنا انه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الاحوال فكيف قطع بها وكيف حكم بوقوعها حكما جازما من غير تردد قلنا لا يبعد أن يكون قوله وكذلك يجتبيك ربك مشروطا بأن لا يكيدوه لان ذكر ذلك قد تقدم وأيضا فبتقدير أن يقال انه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل الى هذه المناصب الا أنه لا يمتنع أن يقع فى المضايق الشديدة ثم يتخلص منها و يصل الى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب و يكون معنى قوله وأخاف أن يأكله الذئب الزجر عن التهاون فى حفظه وان كان يعلم أن الذئب لا يصل اليه * قوله تعالى (لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفى ضلال مبين) فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر صاحب الكشاف أسماء اخوة يوسف يهودا روبيل شمعون لاوى ربالون يشجر دينة دان نفتالى جاد آشر ثم قال السبعة الاولون من ليا بنت خالة يعقوب والاربعة الآخرون من سريتين زلفة و بلهة فلما توفيت ليا تزوج يعقوب اختها راحيل فولدت له بنيامين و يوسف (المسئلة الثانية) قوله آيات للسائلين قرأ ابن كثير آية بغير ألف جعله على شأن يوسف والباقون آيات على الجمع لان أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه (المسئلة الثالثة) ذكروا فى تفسير قوله تعالى آيات للسائلين وجوها (الاول) قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبى صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد الى اليهود فاعلمهم أنه سمعها منه كما هى فى التوراة فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع فقالوا له من علمك هذه القصة فقال الله علمنى فنزل لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين وهذا الوجه عندى بعيد لان المفهوم من الآية ان فى واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذى نقلناه ما كانت الآيات فى قصة يوسف بل كانت الآيات فى اخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة و بين الكلامين فرق ظاهر (والثانى) ان أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته و يظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة و بين أن اخوة يوسف بالغوا فى ايذائه لاجل الحسد و بالاخرة فان الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ومثل هذه الواقعة اذا سمعها العاقل كانت زاجرة له عن الاقدام على الحسد

بنو علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة و بلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أوفى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس ﴿ ١٥٥ ﴾ بداخل تحت هذا النهى اذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا اذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا (ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها و بين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالى فقال (وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك و بحسبه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) يختارك لجناب كبريائه ويستنبؤك افتعال من جباه اذا جمعه و يصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة و يبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال و بين ما وقعت هى صورا وأشباحا له من

الكائنات الظاهرة بحسبها في عالم الشهادة أي كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل ﴿ ١٠٦ ﴾ كأنه قال وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أي ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقية ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقي ما سيأتي بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هي أحاديث الملك ان كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والاول هو الاظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه جعل المرئي آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ﴿ تقديم ﴾ ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما يبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها باتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن

(والثالث) ان يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك ان الله تعالى لما وعد محمدا عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الاعداء فاذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذبا فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه (الرابع) ان اخوة يوسف بالغوا في ابطال أمره ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الامر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الاعداء فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله لما ضمن له اعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في ابطال أمره وأما قوله للسائلين فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى في أربعة أيام سواء للسائلين ثم قال تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ليوسف اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين وانما قالوا أخوه وهم جميعا اخوة لان أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ونقل عن علي رضي الله عنه انه قرأ ونحن عصبة بالنصب قيل معناه ونحن نجتمع عصبة (المسئلة الثانية) المراد منه بيان السبب الذي لاجله قصدوا ايذاء يوسف وذلك ان يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الاولاد في الحب وانهم تأذوا منه لوجوه (الاول) انهم كانوا أكبر سنا منهما (وثانيها) انهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياما بمصالح الاب منهما (وثالثها) انهم قالوا انا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات اذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل ثم انه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا ان أبانا لفي ضلال مبين يعني هذا حيف ظاهر وضلال بين وههنا سؤالات (الاول) ان من الامور المعلومة ان تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد ويورث الآفات فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضا الاسن والاعلم والانفع أفضل فلم قلب هذه القضية (والجواب) انه عليه السلام ما فضلهما على سائر الاولاد الا في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم (السؤال الثاني) ان أولاد يعقوب عليه السلام ان كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله وان كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم (والجواب) انهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى الا انهم لعلهم جوزوا من الانبياء عليهم السلام أن يفعلوا افعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد ثم ان اجتهادهم أدى الى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد وذلك لانهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات واصراره على

تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول زيادة المحبة ليست فى الوسع والطاقة فليس لله على فيه تكليف وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل انه كان لوجوه (أحدها) ان أمهما ماتت وهما صغار (وثانيها) لانه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة مالم يجد فى سائر الاولاد (وثالثها) لعله عليه السلام وان كان صغيرا الا انه كان يخدم اباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الاولاد والحاصل ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر أو فى عرضه (السؤال الثالث) انهم نسبوا أباهم الى الضلال المبين وذلك مبالغة فى الذم والطعن ومن بالغ فى الطعن فى الرسول كفر لاسيما اذا كان الطاعن ولدا فان حق الابوة يوجب مزيد التعظيم (والجواب) المراد منه الضلال عن رعاية المصالح فى الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب (السؤال الرابع) ان قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر لاسيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح والقائه فى ذل العبودية وتبعيده عن الاب المشفق وألقوا أباهم فى الحزن الدائم والاسف العظيم وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة فى الشر والفساد الا وقد أتوا بها وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة (والجواب) الامر كما ذكرتم الا ان المعتبر عندنا عصمة الانبياء عليهم السلام فى وقت حصول النبوة وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم * قوله تعالى (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين) واعلم انه لما قوى الحسد وبلغ النهاية قالوا لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لايحصل الا بأحد طريقين القتل أو التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه فى الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم يخل لكم وجه أبيكم والمعنى ان يوسف شغله عنا وصرف وجهه اليه فاذا فقده أقبل علينا بالميل والمحبة وتكونوا من بعده قوما صالحين وفيه وجوه (الاول) انهم علموا ان ذلك الذى عزموا عليه من الكبائر فقالوا اذا فعلنا ذلك تبنا الى الله ونصير من القوم الصالحين (والثانى) انه ليس المقصود ههنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محبا لكم مشتغلا بشأنكم (الثالث) المراد انكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لاتتفرغون لاصلاح مهم فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم واختلفوا فى أن هذا القائل الذى أمر بالقتل من كان على قولين (أحدهما) ان بعض اخوته قال هذا (والثانى) انهم شاوروا أجنبيا فأشار عليهم بقتله ولم يقل ذلك أحد من اخوته فأما من قال بالاول فقد اختلفوا فقال وهب انه شمعون وقال مقاتل روبيل فان قيل كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء قلنا من

تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بان من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ماهو آفاقى منها مما هو أنفسى كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون اقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون انموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدار الجريان أحكامه فان لكل نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى أحكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجى ولما أشرنا اليه من كون أثره وسيلة الى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة (وعلى آل يعقوب) وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل مايخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لامحالة وأما اذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم

يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال (كما أتمها على أبو يك) نصب على المصدرية أى ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على أبو يك وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ﴿ ١٥٨ ﴾ ولا يجب فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل وجه (من قبل) أى من قبل هذا الوقت أو من قبلك (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به فى ضمن التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محالة (ان ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى يفعل ما ذكر لانه (عليم) بكل شئ فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شئ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل ﴿ يعقوب ﴾ كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين لتربية تحقق وقوع ما ذكر من الافاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك

الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا فى هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين وهذا ضعيف لانه يبعد من مثل نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم انسان عاقل يمنعهم عن القبائح وأيضا انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وهذا يدل على انهم قبل التوبة لا يكونون صالحين وذلك ينافى كونهم من الصبيان ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر وهذا أيضا بعيد لان ايذاء الاب الذى هو نبى معصوم والكذب معه والسعى فى اهلاك الاخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر بل الجواب الصحيح أن يقال انهم ما كانوا أنبياء وان كانوا أنبياء الا ان هذه الواقعة انما أقدموا عليها قبل النبوة * ثم انه تعالى حكى ان قائلا قال لا تقتلوا يوسف قيل انه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأيا فيه فمنعهم عن القتل وقيل يهودا وكان أقدمهم فى الرأى والفضل والسن * ثم قال وألقوه فى غيابة الجب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع فى غيابات الجب على الجمع فى الحرفين هذا والذى بعده والباقون غيابة على الواحد فى الحرفين اما وجه الغيابات فهو ان للجب أقطارا ونواحى فيكون فيها غيابات ومن وحد قال المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب وقرأ الجحدرى فى غيبة الجب (المسئلة الثانية) قال اهل اللغة الغيابة كل ما غيب شيئا وستره فغيابة الجب غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله والجب البئر التى ليست بمطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها غير القطع من طى أو ما أشبهه وانما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على ان المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى اذ كان يحتمل أن يلقى فى موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين (المسئلة الثالثة) الالف واللام فى الجب تقتضى المعهود السابق واختلفوا فى ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو بأرض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم يلتقطه بعض السيارة وذلك لان تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيرا وكان يعلم انه اذا طرح فيها يكون الى السلامة أقرب لان السيارة اذا جازوا وردوها واذا وردوها شاهدوا ذلك الانسان فيها واذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان القاؤه فيها أبعد عن الهلاك (المسئلة الرابعة) الالتقاط تناول الشئ من الطريق ومنه اللقطة واللقيط وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء على المعنى لان بعض السيارة أيضا سيارة والسيارة الجماعة الذين يسيرون فى الطريق للسفر قال ابن عباس يريد المارة وقوله ان كنتم فاعلين فيه اشارة الى ان الاولى أن لا تفعلوا شيئا من ذلك وأما ان كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به يعنى الاولى أن لا تفعلوا ذلك * قوله تعالى (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع و يلعب وانا له لحافظون) اعلم ان هذا الكلام يدل على ان

للنبوة والملك اولامور عظام و يتم نعمته عليك بالنبوة أو بان يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا انبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى (لقد كان فى يوسف واخوته) أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا اماجيعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيماسلف اذ عليهم يدور رحاها (آيات) ﴿ ١٥٩ ﴾ علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فاخبرهم بذلك على ماهى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شئ من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ماذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لماقيل من انه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف و بغى اخوته عليه لمارأى من بغى قومه عليه ليتأسى به (اذ قالوا ليوسف وأخوه) أى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر

يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك والا لما قالوا هذا القول واعلم انهم لما احكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم انهم فى غاية المحبة ليوسف وفى غاية الشفقة عليه وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة الى الرعى فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وارسله معهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف لاتأمنا قرئ باظهار النونين و بالادغام باشمام و بغير اشمام والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به (المسئلة الثانية) فى يرتع و يلعب خمس قراآت (الاولى) قرأ ابن كثير بالنون و بكسر عين نرتع من الارتعاء و يلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت يقال رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيا اذ أكلته وقوله نرتع الارتعاء للابل والمواشى وقد أضافوه الى أنفسهم لان المعنى نرتع ابلنا ثم نسبوه الى أنفسهم لانهم هم السبب فى ذلك الرعى والحاصل انهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال الى أنفسهم لانهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب الى يوسف لصغره (القراءة الثانية) قرأ نافع كلاهما بالياء و كسر العين من يرتع أضاف الارتعاء الى يوسف بمعنى انه يباشر رعى الابل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان (القراءة الثالثة) قرأ أبو عمرو وابن عامر نرتع بالنون وجزم العين ومثله نلعب قال ابن الاعرابى الرتع الاكل بشره وقيل انه الخصب وقيل المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان وأما نلعب فروى انه قيل لابى عمرو كيف يقولون نلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا كان لعبهم الاستباق والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورته (القراءة الرابعة) قرأ أهل الكوفة كليهما بالياء وسكون العين ومعناه اسناد الرتع واللعب الى يوسف عليه السلام (القراءة الخامسة) يرتع بالياء ونلعب بالنون وهذا بعيد لانهم انما سألوا ارسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب والله أعلم * قوله تعالى (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) اعلم انهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر اليهم بشيئين (احدهما) ان ذهابهم به ومفارقتهم اياه مما يحزنه لانه كان لايصبر عنه ساعة (والثانى) خوفه عليه من الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به قيل انه رأى فى النوم ان الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم الحجة وفى أمثالهم البلاء موكل بالمنطق وقيل الذئاب كانت فى أراضيهم كثيرة وقرئ الذئب بالهمز على الاصل و بالتخفيف وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا أتت من كل جهة فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا

باسمه تلويحا بان مدار المحبة اخوته ليوسف من الطرفين الاحرى الى أنهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب الى أبينا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدا لان أفعل من كذا لايفرق فيه بين الواحد ومافوقه ولابين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب الفرق واذا أضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده * ١٦٠ * (ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم (ان أبانا) فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الامور بالصغر والقلة (لفى ضلال) أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين) ظاهر الحال روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ماقص عنهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) من جملة ماحكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أو دان والباقون كانوا راضين الامن قال لاتقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وادرجوا تحت القول المسند الى الجميع أوقاله كل واحد منهم مخاطبا للبقية وهو أدل على مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أى أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل) بالجزم جواب للامر

لخاسرون وفيه سؤالات (السؤال الاول) مافائدة اللام فى قوله لئن أكله الذئب (والجواب) من وجهين (الاول) ان كلمة ان تفيد كون الشرط مستلزما للجزاء أى ان وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام (الثانى) قال صاحب الكشاف هذه اللام تدل على اضمار القسم تقديره والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين (السؤال الثانى) مافائدة الواو فى قوله ونحن عصبة (الجواب) انها واو الحال حلفوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب انهم اذا القوم خاسرون (السؤال الثالث) ماالمراد من قولهم انا اذا لخاسرون (الجواب فيه وجوه الاول) خاسرون أى هالكون ضعفا وعجزا ونظيره قوله تعالى لئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أى لعاجزون (الثانى) انهم يكونون مستحقين لان يدعى عليهم بالخسارة والدمار وان يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون (الثالث) المعنى انا ان لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها (الرابع) انهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم فى خدمة أبيهم واجتهدوا فى القيام بمهماته وانما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا لوقصرنا فى هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الاعمال وخسرنا كل ماصدر منا من أنواع الخدمة (السؤال الرابع) ان يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر (والجواب) ان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه * قوله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) اعلم انه لابد من الاضمار فى هذه الآية فى موضعين (الاول) ان تقدير الآية قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله فلما ذهبوا به (والثانى) انه لابد لقوله فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب من جواب اذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وههنا كذلك قال السدى ان يوسف عليه السلام لما برز مع اخوته أظهروا له العداوة الشديدة وجعل هذا الاخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يايعقوب لوتعلم مايصنع بابنك فقال يهودا أليس قد أعطيتمونى موثقا أن لاتقتلوه فانطلقوا به الى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب فقال لهم ردوا على قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا لتؤنسك ثم دلوه فى البئر حتى اذا بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام بها وهو يبكى فنادوه فظن انه رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام وروى انه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال ياشاهدا غير

* غائب *

أى يخلص (لكم وجه أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن والواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب فى لكم و مابعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد ﴿ ١٦١ ﴾ يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه

غائب ويا قريبا غير بعيد و يا غالبا غير مغلوب اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وروى ان ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحاق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه اياه ثم قال تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله وأوحينا اليه قولان (أحدهما) ان المراد منه الوحى والنبوة و الرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أنه عليه السلام هل كان فى ذلك الوقت بالغا أو كان صبيا قال بعضهم انه كان فى ذلك الوقت بالغا وكان سنه سبع عشرة سنة وقال آخرون انه كان صغيرا الا ان الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما فى حق عيسى عليه السلام (والقول الثانى) ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وقوله وأوحى ربك الى النحل (والاول) أولى لان الظاهر من الوحى ذلك فان قيل كيف يجعله نبيا فى ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة قلنا لا يمتنع أن يشرفه بالوحى والتنزيل و يأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحى تأنيسه وتسكين نفسه وازالة الغم والوحشة عن قلبه (المسئلة الثانية) فى قوله وهم لا يشعرون قولان (الاول) المراد ان الله تعالى اوحى الى يوسف انك لتخبرن اخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لايشعرون فى ذلك الوقت بانك يوسف والمقصود تقوية قلبه بانه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم و يصيرون تحت قهره وقدرته وروى انهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه فى البئر وقلتم لابيكم أكله الذئب (والثانى) ان المراد انا أوحينا الى يوسف عليه السلام فى البئر بانك تنبئ اخوتك بهذه الاعمال وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحى عليه والفائدة فى اخفاء نزول ذلك الوحى عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله (المسئلة الثالثة) اذا حملنا قوله وهم لا يعشرون على التفسير الاول كان هذا أمرا من الله تعالى نحو يوسف فى ان يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة مع علمه بوجد أبيه به خوفا من مخالفة أمر الله تعالى وصبر على تجرع تلك المرارة فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل اليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه الى الله تعالى و ينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل الى درجة عالية فى العبودية لا يمكن الوصول اليها الا بتحمل المحن الشديدة والله أعلم ﴿ قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاؤا على

(قوما صالحين) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذى قال فلن أبرح الارض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال أتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتى الضيم أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم (لاتقتلوا يوسف) أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه او استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى وأحاله على أولوية ماعرضه عليهم بقوله (وألقوه فى غيابة الجب) أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لانها أرض جبت جبا ﴿ ٢١ ﴾ خا من غير أن يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة (يلتقطه) بأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ مشرف على الضياع (بعض السيارة) أى بعض طائفة تسير فى الارض واللام فى السيارة

كما فى الجب وما فيهما وفى البعض من الابهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذى هو تنائى يوسف عنهم بحيث لايدرى اثره ولا يروى خبره وقرئ تلتقطه على التانيث لان بعض السيارة سيارة كقوله ❋ كما شرقت صدره القناة من الدم ❋ ومنه قطعت بعض أصابعه (ان كنتم فاعلين) بمشورتى لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تاليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى ﴿ ١٦٢ ﴾ رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات

قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) اعلم انهم لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا الى أبيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جنى عشا بضم العين والقصر وقال عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال هل أصابكم فى غنمكم شئ قالوا الا قال فما فعل يوسف قالوا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب فبكى وصاح وقال أين القميص فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص وروى أن امرأة تحاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبى يا أبا أمية ما تراها تبكى قال قد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لاينبغى للانسان أن يقضى الا بالحق واختلفوا فى معنى الاستباق قال الزجاج يسابق بعضهم بعضا فى الرمى ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا فى خف أو نصل أو حافر يعنى بالنصل الرمى وأصل السبق فى الرمى بالسهم هو أن يرمى اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهما وأبعد غلوة ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال استبقا وتسابقا اذا فعلا ذلك ليتبين ايهما أسبق سهما ويدل على صحة هذا التفسير ما روى أن فى قراءة عبد الله انا ذهبنا ننتضل (والقول الثانى) فى تفسير الاستباق ما قاله السدى ومقاتل نستبق نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدوا فان قيل كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان قلنا الاستباق منهم كان مثل الاستباق فى الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولانه كالآلة لهم فى محاربة العدو ومدافعة الذئب اذا اختلس الشاة وقوله فأكله الذئب قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع والوجه هو الاول ثم قالوا وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا فى يوسف لشدة محبتك اياه وظننت أنا قد كذبنا والحاصل انا وان كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لانك تتهمنا وقيل المعنى انا وان كنا صادقين فانك لا تصدقنا لانه لم تظهر عندك امارة تدل على صدقنا (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الايمان فى أصل اللغة عبارة عن التصديق لان المراد من قوله وما أنت بمؤمن لنا أى بمصدق واذا ثبت أن الامر كذلك فى أصل اللغة وجب أن يبقى فى عرف الشرع كذلك وقد سبق الاستقصاء فيه فى أول سورة البقرة فى تفسير قوله الذين يؤمنون بالغيب ثم قال تعالى وجاؤا على قميصه بدم كذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما جاؤا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين فى مقالتهم قيل ذبحوا جديا ولطخوا ذلك القميص بدمه قال القاضى ولعل غرضهم فى نزع قميصه عند القائه فى غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم لانه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعا فى نفس القميص ولا بد فى المعصية من أن يقرن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الايهام أقوى فلما شاهد يعقوب القميص صحيحا علم كذبهم (المسئلة الثانية) قوله وجاؤا على قميصه أى وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال جاؤا على جمالهم

أو ان كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لامحالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أولا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج فى تضاعيفه قبولهم له بما سيجئ من قوله وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فقيل (قالوا يا أبانا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الاخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام عن رأيه فى حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا (مالك) أى اى شئ لك (لا تأمنا) أى لا تجعلنا أمناء (على يوسف) مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا (وانا له لناصحون) مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضى الله عنه ﴿ باجمال ﴾ ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (أرسله معنا غدا) الى الصحراء (يرتع) أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع فى الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له

بصورة مايلائم حاله عليه السلام وقرئ نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب
وقرئ يرتع من أرتع ماشيته و يرتع بكسر العين و يلعب بالرفع على الابتداء (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه أكدوا
مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بان واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى
تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبنى على سؤال من يقول فاذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال (انى
ليحزننى) اللام للابتداء
كما فى قوله عز وجل ان
ربك ليحكم بينهم (أن
تذهبوا به) لشدة مفارقته
على وقلة صبرى عنه
(و) مع ذلك (أخاف أن
يأكله الذئب) لان
الارض كانت مذأبة
والحزن ألم القلب بفوت
المحبوب والخوف انزعاج
النفس لنزول المكروه
ولذلك أسند الاول الى
الذهاب به المفوت لاستمرار
مصاحبته ومواصلته
ليوسف والثانى الى
مايتوقع نزوله من أكل
الذئب وقيل رأى فى
المنام أنه قد شد عليه
عليه السلام ذئب وكان
يحذره فقال ذلك وقد
لقنهم العلة ان البلاء موكل
بالمنطق وقرأ ابن كثير
ونافع فى رواية البزى
بالهمز على الاصل
وأبو عمرو به وقفا وعاصم
وابن عامر وحمزة درجا
وقيل اشتقاقه من تذاءبت
الريح اذا هاجت من كل
جانب وقال الاصمعى
الامر بالعكس وهو اظهر لفظا ومعنى (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه (قالوا لئن أكله
الذئب ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الامور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا
واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (انا اذا لخاسرون) جواب مجزئ عن الجزاء أى انا لكون ضعفا وخورا
وعجزا أو مستحقون للهلاك اذ لا غناء

باحال (المسئلة الثالثة) قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الانبارى
بدم كذب أى مكذوب فيه الا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذى كذب ولكنه جعل
نفسه كذبا للمبالغة قالوا والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال ماء سكب أى
مسكوب ودرهم ضرب الامير وثوب نسج اليمن والفاعل كقوله ان أصبح ماؤكم غورا
ورجل عدل وصوم ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمى المصدر أيضا بهما فقالوا للعقل المعقول
وللجلد المجلود ومنه قوله تعالى بأيكم المفتون وقوله اذا مزقتم كل ممزق قال الشعبى قصة
يوسف كلها فى قيصه وذلك لانهم لما القوه فى الجب نزعوا قيصه ولطخوه بالدم وعرضوه على
أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قيصه قد من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب عليه
السلام فالقى على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى أن اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام
واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت لكم
أنفسكم أمرا قال ابن عباس معناه بل زينت لكم أنفسكم أمرا والتسويل تقدير معنى
فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو
أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز غير ان العرب استثقلوا فيه
الهمز وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء اذا عرفت هذا
فنقول قوله بل رد لقولهم أكله الذئب كأنه قال ليس كما تقولون بل سولت لكم أنفسكم
فى شأنه أمرا أى زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون واختلفوا فى السبب الذى به
عرف كونهم كاذبين على وجوه (الاول) أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد
فى قلوبهم (والثانى) أنه كان عالما بأنه حى لانه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف وكذلك
يجتبيك ربك وذلك دليل قاطع على انهم كاذبون فى ذلك (القول الثالث) قال سعيد بن جبير
لما جاؤا على قيصه بدم كذب وما كان متخرقا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قيصه وعن
السدى انه قال ان يعقوب عليه السلام قال ان هذا الذئب كان رحيما فكيف أكل لحمه
ولم يخرق قيصه وقيل انه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال
كيف قتلوه وتركوا قيصه وهم الى قيصه أحوج منه الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف
بسبب ذلك كذبهم ثم قال يعقوب عليه السلام فصبر جميل وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
منهم من قال انه مرفوع بالابتداء وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل أولى من الجزع
ومنهم من اضمر المبتدأ قال الخليل الذى أفعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبرى صبر
جميل وقال الفراء فهو صبر جميل (المسئلة الثانية) كان يعقوب عليه السلام قد سقط
حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فاوحى الله
تعالى اليه يا يعقوب أتشكونى فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى وروى عن عائشة
رضى الله عنها فى قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقونى وان اعتذرت
لا تعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

فأنزل الله عزوجل فى عذرها ما أنزل (المسئلة الثالثة) عن الحسن أنه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله فصبر جميل فقال صبر لاشكوى فيه فمن بث لم يصبر و يدل عليه من القرآن قوله تعالى انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال مجاهد فصبر جميل أى من غير جزع وقال الثورى من الصبر أن لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولاتزكى نفسك وههنا بحث وهو ان الصبر على قضاء الله تعالى واجب فأما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين فغير واجب بل الواجب ازالته لاسيما فى الضرر العائد الى الغير وههنا ان اخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ولم لم يبالغ فى التفتيش والبحث سعيا منه فى تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان فى الاحياء وفى اقامة القصاص ان صح أنهم قتلوه فثبت ان الصبر فى هذا المقام مذموم ومما يقوى هذا السؤال انه عليه الصلاة والسلام كان عالما بأنه حى سليم لانه قال له وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث والظاهر أنه انما قال هذا الكلام من الوحى واذا كان عالما بأنه حى سليم فكان من الواجب أن يسعى فى طلبه وأيضا ان يعقوب عليه السلام كان رجلا عظيم القدر فى نفسه وكان من بيت عظيم شريف وأهل العالم كانوا يعرفونه و يعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ فى الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما السبب فى أنه عليه السلام مع شدة رغبته فى حضور يوسف عليه السلام ونهاية حبه له لم يطلبه مع ان طلبه كان من الواجبات فثبت ان هذا الصبر فى هذا المقام مذموم عقلا وشرعا (والجواب) عنه أن نقول لاجواب عنه الا أن يقال انه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديدا للمحنة عليه وتغليظا للامر عليه وأيضا لعله عرف بقرائن الاحوال ان أولاده أقوياء وأنهم لايمكنونه من الطلب والتفحص وأنه لو بالغ فى البحث فربما أقدموا على ايذائه وقتله وأيضا لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وان أمره سيعظم بالآخرة ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضى بالقائهم فى ألسنة الناس وذلك لان أحد الولدين اذا ظلم الآخر وقع الاب فى العذاب الشديد لانه ان لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وان انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذى ينتقم منه فلما وقع يعقوب عليه السلام فى هذه البلية رأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر الى الله تعالى بالكلية (المسئلة الرابعة) قوله فصبر جميل يدل على أن الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلا وما قد يكون غير جميل فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك فى أن يتصرف فى ملك نفسه فيصير استغراق قلبه فى هذا المقام مانعا له من اظهار الشكاية (والوجه الثانى) أنه يعلم ان منزل هذا البلاء حكيم لايجهل وعالم لايغفل عليم لاينسى رحيم لايطغى واذا كان كذلك فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابا فعند ذلك يسكت ولايعترض (والوجه الثالث) أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق فاستغراقه فى شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال

﴿ بالشكاية ﴾

عند نا ولاجدوى فى حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار و يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شئ عند نا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لانه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أى أزمعوا ﴿ ١٦٤ ﴾ (أن يجعلوه) مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولايستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها (فى غيابة الجب) قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما مايقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام و بين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله مما لايحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا به من الاذية ما فعلوا يروى أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه و يضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح و يستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى أن لاتقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لابيه فقال يا اخوتاه ردوا على قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه

واظن أنها رحمة أدركتهم فاجابهم فرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم و يروى ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فالبسه اياه (وأوحينا اليه) عندذلك تبشيراله بمايؤل اليه أمره وازالة لوحشته وايناساله قيل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لايشعرون) بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للاشكال والاول أدخل فى التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس و يجوز أن يتعلق وهم لايشعرون بالايحاء على معنى أنا آنسناه بالوحى وازلنا عن قلبه الوحشة التى اورثوه وهم لايشعرون بذلك و يحسبون انه مرهق ومستوحش لاانيس له وقرئ لننبئنهم بالنون على انه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير (وجاؤا أباهم عشاء) آخر النهار وقرئ عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع اعشى

بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لاتزداد بالوفاء ولاتنقص بالجفاء لانها لوازدادت بالوفاء لكان المحبوب هوالنصيب والحظ وموصل النصيب لايكون محبوبا بالذات بل بالغرض فهذا هوالصبر الجميل أما اذا كان الصبر لالاجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لايكون جميلا والضابط فى جميع الافعال والاقوال والاعتقادات ان كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنا والافلا وههنا يظهر صدق ماروى فى الاثر استفت قلبك ولو أفتاك المفتون فليتأمل الرجل تأملا شافيا ان الذى أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا فان أهل العلم لو أفتونا بالشئ مع أنه لايكون فى نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة ولماذكر يعقوب قوله فصبر جميل قال والله المستعان على ماتصفون والمعنى أن اقدامه على الصبر لايمكن الا بمعونة الله تعالى لان الدواعى النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهى قوية والدواعى الروحانية تدعوه الى الصبر والرضا فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين فمالم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجرى مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ماتصفون يجرى مجرى قوله واياك نستعين * قوله تعالى (وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بمايعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل فى خلاص يوسف من تلك المحنة فقال وجاءت سيارة يعنى رفقة تسير للسفر قال ابن عباس جاءت سيارة أى قوم يسيرون من مدين الى مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران لم يكن الا للرعاة وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام فارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء والوارد الذى يرد الماء ليستقى للقوم فادلى دلوه ونقل الواحدى عن عامة أهل اللغة أنه يقال أدلى دلوه اذا أرسلها فى البئر ودلاها اذا نزعها من البئر يقال أدلى يدلى ادلاء اذا أرسل ودلا يدلو دلوا اذا جذب وأخرج والدلو معروف والجمع دلاء * قال يابشرى هذا غلام وههنا محذوف والتقدير فظهر يوسف قال المفسرون لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف فى ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد اليه ورأى حسنه نادى فقال يا بشرى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بشرى بغير الالف و بسكون الياء والباقون يابشراى بالالف وفتح الياء على الاضافة (المسئلة الثانية) فى قوله يابشرى قولان (الاول) انها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم ياعجبا من كذا وقوله ياأسفا على يوسف وعلى هذا القول ففى تفسير النداء وجهان (الاول) قال الزجاج معنى النداء فى هذه الاشياء التى لاتجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فاذا قلت ياعجباه فكأنك قلت اعجبوا (الثانى) قال أبو على كأنه يقول ياأيتها البشرى هذا الوقت وقتك ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت

ای عشوا من البکاء (یبکون) متباکین روی انه لما سمع یعقوب علیه السلام بکاءهم فزع وقال مالکم یا بنی واین یوسف (قالوا یا ابانا انا ذهبنا نستبق) ای متسابقین فی العدو والرمی وقد یشترک الافتعال والتفاعل کالانتضال والتناضل ونظائرهما (وترکنا یوسف عند متاعنا) ای ما نتمتع به من الثیاب والازواد وغیرهما (فاکله الذئب) عقیب ذلک من غیر مضی زمان یعتاد فیه التفقد والتعهد وحیث لا یکاد یطرح المتاع عادة

الا فی مقام یؤمن فیه الغوائل لم یعد ترکه علیه السلام عنده من باب الغفلة وترک الحفظ الملتزم لاسیما اذا لم یبرحوه ولم یغیبوا عنه فکأنهم قالوا انا لم نقصر فی محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل ترکناه فی مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لان میدان السباق لا یکون عادة الا بحیث یتراءی غایتاه وما فارقناه الا ساعة یسیرة بیننا وبینه مسافة قصیرة فکان ما کان (وما انت بمؤمن لنا) بمصدق لنا فی هذه المقالة الدالة علی عدم تقصیرنا فی امره (ولو کنا) عندک و فی اعتقادک (صادقین) موصوفین بالصدق والثقة لشدة محبتک لیوسف فکیف وانت سیء الظن بنا غیر واثق بقولنا وکلمة لو فی امثال هذه المواقع لبیان تحقق ما یفیده الکلام السابق من الحکم الموجب او المنفی علی کل حال مفروض من الاحوال المقارنة له علی الاجمال بادخالها علی ابعدها منه واشدها منافاة له لیظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع غیره من الاحوال بطریق الاولویة

لما ان الشیء متی تحقق مع المنافی القوی فلأن یتحقق مع غیره اولی ولذلک لا یذکر معه شیء من سائر الاحوال و یکتفی عنه بذکر الواو العاطفة للجملة علی نظیرتها المقابلة لها الشاملة لجمیع الاحوال المغایرة لها عند تعددها وقد مر تفصیله

الآن ولامرت بالحضور واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاما فی غایة الحسن وقالوا نبیعه بثمن عظیم و یصیر ذلک سببا لحصول الغنی (والقول الثانی) وهو الذی ذکره السدی ان الذی نادی صاحبه وکان اسمه بشری کما تقول یا زید وعن الاعمش أنه قال دعا امرأة اسمها بشری یا بشری قال أبو علی الفارسی ان جعلنا البشری اسما للبشارة وهو الوجه جاز أن یکون فی محل الرفع کما قیل یا رجل لاختصاصه بالنداء وجاز أن یکون فی موضع النصب علی تقدیر أنه جعل ذلک النداء شائعا فی جنس البشری ولم یخص کما تقول یا رجلا و یا حسرة علی العباد ❊ وأما قوله تعالی وأسروه بضاعة ففیه مسئلتان (المسئلة الاولی) الضمیر فی وأسروه الی من یعود فیه قولان (الاول) انه عائد الی الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فی الجب وذلک لانهم قالوا ان قلنا للسیارة التقطناه شارکونا فیه وان قلنا اشتریناه سألونا الشرکة فالاصوب أن نقول ان أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا علی أن نبیعه لهم بمصر (والثانی) نقل عن ابن عباس أنه قال وأسروه یعنی أخوة یوسف أسروا شأنه والمعنی انهم أخفوا کونه أخاهم بل قالوا انه عبد لنا أبق منا وتابعهم علی ذلک یوسف لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانیة والاول أولی لان قوله وأسروه بضاعة یدل علی ان المراد انهم أسروه حال ما حکموا بانه بضاعة وذلک انما یلیق بالوارد لا باخوة یوسف (المسئلة الثانیة) البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم اذا قطعته قال الزجاج و بضاعة منصوبة علی الحال کأنه قال وأسروه حال ما جعلوه بضاعة ❊ ثم قال تعالی والله علیم بما یعملون والمراد منه أن یوسف علیه السلام لما رأی الکواکب والشمس والقمر فی النوم سجدت له وذکر ذلک حسده اخوته علیه واحتالوا فی ابطال ذلک الامر علیه فأوقعوه فی البلاء الشدید حتی لا یتیسر له ذلک المقصود وأنه تعالی جعل وقوعه فی ذلک البلاء سببا الی وصوله الی مصر ثم تمادت وقائعه وتتابع الامر الی أن صار ملک مصر وحصل ذلک الذی رآه فی النوم فکان العمل الذی عمله الاعداء فی دفعه عن ذلک المطلوب صیره الله تعالی سببا لحصول ذلک المطلوب فلهذا المعنی قال والله علیم بما یعملون ❊ ثم قال تعالی وشروه بثمن بخس دراهم معدودة اما قوله وشروه ففیه قولان (الاول) المراد من الشراء هو البیع وعلی هذا التقدیر ففی ذلک البائع قولان (الاول) قال ابن عباس رضی الله عنهما ان اخوة یوسف لما طرحوا یوسف فی الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث یتعرفون خبره فلما لم یروه فی الجب ورأوا آثار السیارة طلبوهم فلما رأوا یوسف قالوا هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم فبیعوه منا فباعوه منهم والمراد من قوله وشروه أی باعوه یقال شریت الشیء اذا بعته وانما وجب حمل هذا الشراء علی البیع لان الضمیر فی قوله وشروه وفی قوله وکانوا فیه من الزاهدین عائد الی شیء واحد لکن الضمیر فی قوله وکانوا فیه من الزاهدین عائد الی الاخوة فکذا فی قوله وشروه یجب أن یکون عائدا الی الاخوة واذا کان کذلک فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء علی البیع (والقول الثانی) أن بائع

يوسف هم الذين استخرجوه من البئر وقال محمد بن اسحق ربك أعلم أاخوته باعوه أم السيارة وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال المراد من الشراء نفس الشراء والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين لانهم علموا بقرائن الحال أن اخوة يوسف كذابون فى قولهم انه عبدنا وربما عرفوا أيضا أنه ولد يعقوب فكرهوا اشتراءه خوفا من الله تعالى ومن ظهور تلك الواقعة الا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لانهم اشتروه بثمن قليل مع انهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين وغرضهم أن يتوصلوا بذلك الى تقليل الثمن ويحتمل أيضا ان يقال ان الاخوة لما قالوا انه عبدنا أبق صار المشترى عديم الرغبة فيه قال مجاهد وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق * ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث (الصفة الاولى) كونه بخسا قال ابن عباس يريد حراما لان ثمن الحر حرام وقال كل بخس فى كتاب الله نقصان الا هذا فانه حرام قال الواحدى سموا الحرام بخسا لانه ناقص البركة وقال قتادة بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أى نقصه وقال عكرمة والشعبى قليل وقيل ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا وقيل كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار قال الواحدى رحمه الله تعالى وعلى الاقوال كلها فالبخس مصدر وضع موضع الاسم والمعنى بثمن مبخوس (الصفة الثانية) قوله دراهم معدودة قيل تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون الا اذا بلغ أوقية وهى الاربعون ويعدون ما دونها فقيل للقليل معدود لان الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها وعن ابن عباس كانت عشرين درهما وعن السدى اثنين وعشرين درهما قالوا والاخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين الا يهوذا لم يأخذ شيئا (الصفة الثالثة) قوله وكانوا فيه من الزاهدين ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه وأصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وفيه وجوه (احدها) أن اخوة يوسف باعوه لانهم كانوا فيه من الزاهدين (والثانى) أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به لا يبالى بأى شئ يبيعه او لانهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم فلا جرم باعوه بأوكس الاثمان (والثالث) ان الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين وقد سبق توجيه هذه الاقوال فيما تقدم والضمير فى قوله فيه يحتمل أن يكون عائدا الى يوسف عليه السلام ويحتمل أن يكون عائدا الى الثمن البخس والله أعلم * قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه ثبت فى الاخبار ان الذى اشتراه اما من الاخوة أو من الواردين على الماء ذهب به الى مصر وباعه هناك وقيل ان الذى اشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان يلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى

فى سورة البقرة عند قوله تعالى أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون وفى سورة الاعراف عند قوله تعالى أولو كنا كارهين (وجاؤا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحماله أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه ﴿١٦٧﴾ أو بمعنى ذى كذب اى ملابس لكذب وقرئ كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكذب وهو الفوق البياض الذى يخرج على اظفار الاحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر (قال) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل سولت لكم أنفسكم) أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شئ فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز

وقيل من السول وهو الاسترخاء (أمرا) من الامور منكرا لا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لاشكوى فيه أى الى الخلق والا فقد قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ما هذا قال طول الزمان و كثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يا يعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا (والله المستعان) أى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة (على ماتصفون) على اظهار حال ماتصفون و بيان كونه كذبا واظهار سلامته فانه علم فى الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الاليق بما سيجئ من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال مايصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا تساعده الصيغة فانها قد غلبت فى وصف الشئ بما ليس فيه كما أشير اليه (وجاءت) شروع فى بيان ما جرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين اخوته و بين أبيه والتعبير بالمجئ ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ايثاره على المرور أو الاتيان أو نحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة ﴿ عن ﴾ والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان فى أمم المثناء فان المتبادر من اسناد المجئ الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت (سيارة)

السلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وقيل ادخلوه السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه فى الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن وقالوا اسم تلك المرأة زليخا وقيل راعيل * واعلم ان شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت أيضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شئ من هذه الروايات فالاليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها (المسئلة الثانية) قوله أكرمى مثواه أى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان اذا أقمت به ومصدره الثواء والمعنى اجعلى منزله عندك كريما حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربى أحسن مثواى وقال المحققون أمر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما أمرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا أى يقوم باصلاح مهماتنا أو نتخذه ولدا لانه كان لا يولد له ولد وكان حصورا * ثم قال تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بان عطفنا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك الى أن صار متمكنا من الامر والنهى فى أرض مصر واعلم ان الكمالات الحقيقية ليست الا القدرة والعلم وانه سبحانه لما حاول اعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين اما تكميله فى صفة القدرة والمكنة فاليه الاشارة بقوله مكنا ليوسف فى الارض واما تكميله فى صفة العلم فاليه الاشارة بقوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث وقد تقدم تفسير هذه الكلمة * واعلم انا ذكرنا انه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وذلك يدل ظاهرا على انه تعالى أوحى اليه فى ذلك الوقت وعندنا الارهاص جائز فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت ما كان لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ثم انه تعالى قال ههنا ولنعلمه من تأويل الاحاديث والمراد منه ارساله الى الخلق بتبليغ التكاليف ودعوة الخلق الى الدين الحق ويحتمل أيضا أن يقال ان ذلك الوحى الاول كان لاجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث على انه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالا مما كان قبله وقال ابن مسعود أشد الناس فراسة ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة لما رأت موسى فقالت ياأبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر ثم قال تعالى * والله غالب على أمره وفيه وجهان (الاول) غالب على أمر نفسه لانه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع

عن حكمه فى أرضه وسمائه (والثانى) والله غالب على أمر يوسف يعنى ان انتظام أموره كان الهيا وما كان بسعيه واخوته ارادوا به كل سوء ومكر و والله اراد به الخير فكان كما اراد الله تعالى ودبر ولكن أكثر الناس لايعلمون ان الامر كله بيد الله واعلم ان من تأمل فى أحوال الدنيا وعجائب احوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله غالب

* قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم أن يقال بين تعالى ان اخوته لما أساؤا اليه ثم انه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى فى الارض ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم والمقصود بيان ان جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ومن الناس من قال ان النبوة جزاء على الاعمال الحسنة ومنهم من قال ان من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة واحتجوا على صحة قولهم بانه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر انه أعطاه النبوة والرسالة ثم قال وكذلك نجزى المحسنين وهذا يدل على ان كل من أتى بالطاعات الحسنة التى أتى بها يوسف فان الله يعطيه تلك المناصب وهذا بعيد لاتفاق العلماء على ان النبوة غير مكتسبة واعلم ان من الناس من قال ان يوسف ماكان رسولا ولا نبيا البتة وانما كان عبدا أطاع الله تعالى فأحسن الله اليه وهذا القول باطل بالاجماع وقال الحسن انه كان نبيا من الوقت الذى قال الله تعالى فى حقه وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وما كان رسولا ثم انه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ومنهم من قال انه كان رسولا من الوقت الذى ألقى فى غيابة الجب (المسئلة الثانية) قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان وهذا اللفظ يستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ أشده و بلغوا أشدهم وقد ذكرنا تفسير الاشد فى سورة الانعام عند قوله حتى يبلغ أشده وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ولما بلغ أشده قال ثلاثا وثلاثين سنة وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لان الاطباء قالوا ان الانسان يحدث فى أول الامر و يتزايد كل يوم شيئا فشيئا الى أن ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع والانتقاص الى أن لايبقى منه شئ فكانت حالته شبيهة بحال القمر فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لايزال يزداد الى ان يصير بدرا تاما ثم يتراجع الى أن ينتهى الى العدم والمحاق اذا عرفت هذا فنقول مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوما و كسر فاذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة ايام فلا جرم رتبوا أحوال الابدان على الاسابيع فالانسان اذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب الى أن يتم له سبع سنين ثم اذا دخل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لايزال فى الترقى الى أن يتم له أربع عشرة سنة فاذا دخل فى السنة الخامسة عشرة دخل فى الاسبوع الثالث وهناك يكمل العقل و يبلغ الى حد التكليف

أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام (فارسلوا واردهم) الذى يرد الماء و يستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر مثنى الارسال كما لم يذكر منتهى المجئ أعنى الجب للايذان ﴿ ١٦٩ ﴾ بأن ذلك معهود لايضرب عنه الذكر صفحا (فأدلى دلوه) أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بهـا يوسف فخرج (قال) استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال (يابشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأى نعمة مكان مايوجد مباحا من الماء وقيل اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ يابشرى بالادغام وهى لغة و بشراى على قصد الوقف (وأسروه) أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها ﴿ ٢٢ ﴾ خا فأخبر اخوته فاتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه أى قطعت للتجارة (والله عليم بما يعملون) وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو عرضة للابتذال

بالبيع والشراء وماذبروا فى ذلك من الحيل (وشروه) أى باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بثمن بخس) زيف ناقص العيار
(دراهم) بدل من ثمن أى لادنانير (معدودة) أى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه
اذ المعتاد فيما لايبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله
عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) أى البائعون ﴿١٧٠﴾ (فيه) فى يوسف (من الزاهدين) من الذين لايرغبون
فيما بأيديهم فلذلك باعوه بماذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ماحكى وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لماظن فى أذانهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لمامر من أن أخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لمازهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل فى أى شئ زهدوا فقيل زهدوا فيه لان مايتعلق بالصلة لايتقدم على الموصول (وقال الذى اشتراه من مصر) وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه
من مصر لتربية مايتفرع عليه من الامور مع الاشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بماذكر من الثمن ﴿ لمعان ﴾
البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقى ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس
بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة

ويتحرك فيه الشهوة ثم لايزال يرتقى على هذه الحالة الى أن يتم السنة الحادية والعشرين وهناك يتم الاسبوع الثالث ويدخل فى السنة الثانية والعشرين وهذا الاسبوع آخر أسابيع النشو والنماء فاذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء وينتقل الانسان منه الى زمان الوقوف وهو الزمان الذى يبلغ الانسان فيه أشده وبتمام هذا الاسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ثم ان هذه المراتب مختلفة فى الزيادة والنقصان فهذا الاسبوع الخامس الذى هو اسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين الى الثالثة والثلاثين وقد يمتد الى الخامسة والثلاثين فهذا هو الطريق المعقول فى هذا الباب والله أعلم بحقائق الاشياء (المسئلة الثالثة) فى تفسير الحكم والعلم وفيه أقوال (الاول) ان الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ومنعها ممايشينها فالمراد من الحكم الحكمة العملية والمراد من العلم الحكمة النظرية وانما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية لان أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية وأما أصحاب الافكار العقلية والانظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية وطريقة يوسف عليه السلام هو الاول لانه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله تعالى عليه أبواب المكاشفات فلهذا السبب قال آتيناه حكما وعلما (القول الثانى) الحكم هو النبوة لان النبى يكون حاكما على الخلق والعلم علم الدين (والقول الثالث) يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الامارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الانوار القدسية والاضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول فى هذا الباب ان جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والانوار العقلية الا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية ان جواهر الارواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة ومنها عظيمة الميل الى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة فى الجسمانيات فهذه الاقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والاضعف والاكمل والانقص فاذا اتفق ان كان جوهر النفس الناطقة جوهرا مشرقا شريفا شديد الاستعداد لقبول الاضواء العقلية واللوائح الالهية فهذه النفس فى حال الصغر لايظهر منها هذه الاحوال لان النفس الناطقة انما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات فى حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لان تستعملها النفس الانسانية واذا كانت النفس فى أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم

لمعان الاضواء فيها فقوله ولما بلغ أشده اشارة الى اعتدال الآلات البدنية وقوله آتيناه حكما وعلما اشارة الى استكمال النفس فى قوتيها العملية والنظرية والله أعلم * قوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون) اعلم ان يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضا ان زوجها كان عاجزا يقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هى عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وغلقت الابواب والسبب ان ذلك العمل لا يؤتى به الا فى المواضع المستورة لا سيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد وقوله وغلقت الابواب أى أغلقتها قال الواحدى وأصل هذا من قولهم فى كل شئ نشب فى شئ فلزمه قد غلق يقال غلق فى الباطل وغلق فى غضبه ومنه غلق الرهن ثم يعدى بالالف فيقال أغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه قال المفسرون وانما جاء غلقت على التكثير لانها غلقت سبعة أبواب ثم دعته الى نفسها ثم قال تعالى وقالت هيت لك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويد اوصه ومه ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة وقال الاخفش هيت لك مفتوحة الهاء والتاء ويجوز أيضا كسر التاء ورفعها قال الواحدى قال أبو الفضل المنذرى أفادنى ابن التبريزى عن أبى زيد قال هيت لك بالعبرانية هياخ أى تعال عربه القرآن وقال الفراء انها لغة لاهل حوران سقطت الى مكة فتكلموا بها قال ابن الانبارى وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى القسطاس ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغة العرب والترك فى الغساق ولغة العرب والحبشة فى ناشئة الليل (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان هيت بكسر الهاء وفتح التاء وقرأ ابن كثير هيت لك مثل حيث وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر هئت لك بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك والباقون بفتح الهاء واسكان الياء وفتح التاء ثم انه تعالى قال ان المرأة لما ذكرت هذا الكلام قال يوسف عليه السلام معاذ الله انه ربى أحسن مثواى فقوله معاذ الله أى أعوذ بالله معاذا والضمير فى قوله انه للشان والحديث ربى أحسن مثواى أى ربى وسيدى ومالكى أحسن مثواى حين قال لها أكرمى مثواه فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الاحسان بهذه الخيانة القبيحة انه لا يفلح الظالمون الذين يجازون الاحسان بالاساءة وقيل أراد الزناة لانهم ظالمون أنفسهم أولان عملهم يقتضى وضع الشئ فى غير موضعه وهنا سؤالات (السؤال الاول) ان يوسف عليه السلام كان حرا وما كان عبدا لاحد فقوله انه ربى يكون كذبا وذلك ذنب وكبيرة (والجواب) انه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبدا له وايضا انه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه رباله كونه مربياله وهذا من باب المعاريض الحسنة فان أهل الظاهر يحملونه على

سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الاولاد بأحوال الآباء واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة ﴿ ١٧١ ﴾ سنة وأقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الاول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمى مثواه) اجعلى محل اقامته كريما مرضيا والمعنى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما (وكذلك) نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أى مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف فى الارض) اى جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه أى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم أى ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم فى الارض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز أو مكانا عليا فى قلبه حتى

كونه ربا له وهو كان يعني به انه كان مربيا له ومنعما عليه (السؤال الثاني) هل يدل قول يوسف عليه السلام معاذ الله على صحة مذهبنا في القضاء والقدر (والجواب) انه يدل عليه دلالة ظاهرة لان قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذا طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل وتلك الاعاذة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل والآلة وازاحة الاعذار وازالة الموانع وفعل الالطاف لان كل ما كان في مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله فيكون ذلك اما طلبا لتحصيل الحاصل أو طلبا لتحصيل الممتنع وانه محال فعلمنا ان تلك الاعاذة التي طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها الا ان يخلق فيه داعية جازمة في جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية وذلك هو المطلوب والدليل على ان المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع بصره على زينب قال يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة وازالة داعية المعصية فكذا ههنا وكذا قوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فالمراد من الاصبعين داعية الفعل وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يحصلان الا بخلق الله تعالى والا افتقرت الى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت ان قول يوسف عليه السلام معاذ الله من أدل الدلائل على قولنا والله أعلم (السؤال الثالث) ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء (أحدها) قوله معاذ الله (والثاني) قوله تعالى عنه انه ربي أحسن مثواي (والثالث) قوله انه لا يفلح الظالمون فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض (والجواب) هذا الترتيب في غاية الحسن وذلك لان الانقياد لامر الله تعالى وتكليفه أهم الاشياء لكثرة انعامه وألطافه في حق العبد فقوله معاذ الله اشارة الى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل وأيضا حقوق الخلق واجبة الرعاية فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة انعامه واحسانه بالاساءة وأيضا صون النفس عن الضرر واجب وهذه اللذة لذة قليلة ويتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة واللذة القليلة اذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله انه لا يفلح الظالمون اشارة اليه فثبت ان هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب ❊ قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها وفي هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) في انه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا وفي هذه المسئلة قولان (الاول) ان يوسف عليه السلام هم بالفاحشة قال الواحدي في كتاب البسيط قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع الى روايتهم هم يوسف أيضا بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه قال جعفر الصادق رضي الله عنه باسناده عن علي رضي الله تعالى عنه انه قال طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها انه هم أن يحل التكة وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال حل الهميان

أمر امرأته دون سائر حواشيه باكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين اهلها ومحببا في قلوبهم كافة كما في قلب العزيز لانه الذي يؤدي الى الغاية المذكورة في قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أي نوقفه لتعبير بعض المنامات التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمني ربي سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف في الارض وجعلنا قلب أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الاحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدي ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الامور انما هو التمكين في جانب العزيز وأما التمكين في جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق ان يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله وكون ذلك تمكينا في الارض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر ❊ وجلس ❊ في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شان المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما

وجلس منها مجلس الخائن وعنه أيضا انها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه ثم ان الواحدى طول فى كلمات عديمة الفائدة فى هذا الباب وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثا صحيحا يعول عليه فى تصحيح هذه المقالة وما أمعن النظر فى تلك الكلمات العارية عن الفائدة روى ان يوسف عليه السلام لما قال ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى ثم قال والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الانبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهم عنه فهذا خلاصة كلامه فى هذا الباب (والقول الثانى) ان يوسف عليه السلام كان بريئا عن العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب واعلم ان الدلائل الدالة على وجوب عصمة الانبياء عليهم السلام كثيرة ولقد استقصيناها فى سورة البقرة فى قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها الا انا نزيد ههنا وجوها (فالحجة الاولى) ان الزنا من منكرات الكبائر والخيانة فى معرض الامانة أيضا من منكرات الذنوب وأيضا مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضا من منكرات الذنوب وأيضا الصبى اذا تربى فى حجر انسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه الى زمان شبابه وكمال قوته فاقدام هذا الصبى على ايصال أقبح أنواع الاساءة الى ذلك المنعم المعظم من منكرات الاعمال اذا ثبت هذا فنقول ان هذه المعصية التى نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الاربع ومثل هذه المعصية لو نسبت الى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه فكيف يجوز اسنادها الى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه تعالى قال فى غير هذه الواقعة كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وذلك يدل على ان ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ولا شك أن المعصية التى نسبوها اليه أعظم أنواع السوء وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد فى عين هذه الواقعة بكونه بريئا من السوء مع انه كان قد أتى باعظم أنواع السوء والفحشاء وأيضا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر وذلك لانا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفى هذه المعصية عنه الا انه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن انسان اقدامه على معصية عظيمة ثم انه يمدحه ويثنى عليه باعظم المدائح والاثنية عقيب ان حكى عنه ذلك الذنب العظيم فان مثاله ما اذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الاعمال ثم انه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه فان ذلك يستنكر جدا فكذا ههنا والله أعلم (الثالث) أن الانبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والتواضع ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى

التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف فى أرض مصر بالامر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك فى أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا أن يراد بتعليم تأويل الاحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له فى أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالى لتلك المعانى والاحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والارشاد الى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له (والله غالب على أمره) لا يستعصى عليه أمر ولا يمانعه شئ بل انما أمره لشئ اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متول على أمر يوسف لا يكله الى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة فلم يكن الا ما اراد الله له من العاقبة الحميدة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الامر كذلك فيأتون و يذرون زعما منهم أن لهم من الامر شيئا وأنى لهم ذلك وان الامر كله لله عز وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ أشده) أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف مابين الثلاثين الى الاربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والاول هو الاظهر

لقوله تعالى (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها اونبوة (وعلما) اى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم أى حكما وعلما لايكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس اوغيرهما كيف لاوقد جعل ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى المحسنين) أى كل من يحسن فى عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الاحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تاويل الاحاديث ولاصحة له الاأن يخص بعلم تاويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهى أيام البلاء صح أن يعد ايتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبى السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على أنه سبحانه انما آتاه ما آتاه لكونه محسنا فى أعماله متقيا فى عنفوان أمره هل جزاء الاحسان الاالاحسان (وراودته التى هو فى بيتها) رجوع الى شرح ماجرى عليه فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جئ به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الامر أن مالقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن فى جميع أعماله لم يصدر عنه فى حالتى السراء والضراء مايخل بنزاهته ولايخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك فى قوله تعالى وكذلك

بالتوبة لحكى الله تعالى عنه اتيانه بها كما فى سائر المواضع وحيث لم يوجد شئ من ذلك علمنا أنه ماصدر عنه فى هذه الواقعة ذنب ولامعصية (الرابع) ان كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام وتلك المرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب وابليس أقر أيضا ببراءته عن المعصية واذا كان الامر كذلك فحينئذ لم يبق للمسلم توقف فى هذا الباب أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام هى راودتنى عن نفسى وقوله عليه السلام رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلانها قالت للنسوة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وأيضا قالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك فهو قوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك وأما الشهود فقوله تعالى وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته أربع مرات (أولها) قوله لنصرف عنه السوء واللام للتأكيد والمبالغة (والثانى) قوله والفحشاء أى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (والثالث) قوله انه من عبادنا مع انه تعالى قال وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (والرابع) قوله المخلصين وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه وأما بيان ان ابليس أقر بطهارته فلانه قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الاعبادك منهم المخلصين فاقر بانه لايمكنه اغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى انه من عبادنا المخلصين فكان هذا اقرارا من ابليس بانه ماأغواه وماأضله عن طريقة الهدى وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا الى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ان كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا فى أول الامر تلامذة ابليس الى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه فى السفاهة كما قال الخوارزمى

وكنت امرأ من جند ابليس فارتقى * بى الدهر حتى صار ابليس من جندى
فلومات قبلى كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام برئ عما يقول هؤلاء الجهال واذا عرفت هذا فنقول الكلام على ظاهر هذه الآية يقع فى مقامين (المقام الاول) أن نقول لانسلم أن

مكننا كما فعله الجمهور نأى من التعريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شئ ومنه الرائد لطلب الماء والكلا وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الافعال وان كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشئ يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فان فعل البادى وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التى هى تلك الافعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بان أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز ان يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عن نفسه) أي فعلت ما يفعل

يوسف عليه السلام هم بها والدليل عليه انه تعالى قال وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وجواب لولا ههنا مقدم وهو كما يقال قد كنت من الهالكين لولا ان فلانا خلصك وطعن الزجاج فى هذا الجواب من وجهين (الاول) أن تقديم جواب لولا شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح (الثانى) ان لولا يجاب جوابها باللام فلو كان الامر على ماذكرتم لقال ولقد همت وللهم بها ولولا وذكر غير الزجاج سؤالا ثالثا وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة واعلم أن ماذكره الزجاج بعيد لانا نسلم أن تأخير جواب لولا حسن جائز الا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال انهم يقدمون الاهم فالاهم والذى هم بشأنه أعنى فكان الامر فى جواز التقديم والتأخير مربوطا بشدة الاهتمام وأما تعيين بعض الالفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة وأيضا ذكر جواب لولا باللام جائز أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز ثم انا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج فى هذين السؤالين وهو قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها (وأما السؤال الثالث) وهو انه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة فنقول بل فيه أعظم الفوائد وهو بيان ان ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته فى النساء وعدم قدرته عليهن بل لاجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ثم نقول ان الذى يدل على أن جواب لولا ماذكرناه ان لولا تستدعى جوابا وهذا المذكور يصلح جوابا له فوجب الحكم بكونه جوابا له لا يقال انا نضمر له جوابا وترك الجواب كثير فى القرآن لانا نقول لا نزاع أنه كثير فى القرآن الا أن الاصل أن لا يكون محذوفا وأيضا فالجواب انما يحسن تركه وحذفه اذا حصل فى اللفظ ما يدل على تعينه وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفا فليس فى اللفظ ما يدل على تعين ذلك الجواب فان ههنا أنواعا من الاضمارات يحسن اضمار كل واحد منها وليس اضمار بعضها أولى من اضمار الباقى فظهر الفرق والله أعلم (المقام الثانى) فى الكلام على هذه الآية أن نقول سلمنا أن الهم قد حصل الا انا نقول ان قوله وهم بها لا يمكن حمله على ظاهره لان تعليق الهم بذات المرأة محال لان الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية فثبت أنه لابد من اضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو ايقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئا آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه (الاول) المراد انه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لان الهم هو القصد فوجب ان يحمل فى حق كل أحد على القصد الذى يليق به فاللائق بالمرأة القصد الى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث الى الخلق القصد الى زجر العاصى عن معصيته والى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يقال هممت بفلان أى بضربه ودفعه فان قالوا فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله لولا أن رأى برهان ربه فائدة قلنا بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين (الاول) انه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها

المخادع لصاحبه عن شئ لا يريد اخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارة عن التمحل في مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر أو للاستهجان بذكره وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه في بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ماحملك ما أنت عليه مما لاخير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام فى أعلى معارج العفة والنزاهة (وغلقت الابواب) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة فى الايثاق والاحكام (وقالت هيت لك) قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبنائه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كما فى هلم لك وقرئ هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهئ كجاء يجئ اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قال معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذا مما تدعينني اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وماذاك الا لانه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ماهو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عزوجل (انه ربى أحسن مثواى) تعليل للامتناع ببعض الاسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره التنبيه على سببه الذاتى الذى لاتكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة

لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله فاعلمه الله تعالى ان الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك (والثانى) انه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام وكان فى علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هى الخائنة فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا عنها حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية (الوجه الثانى) فى الجواب أن يفسر الهم بالشهوة وهذا مستعمل فى اللغة الشائعة يقول القائل فيما لايشتهيه مايهمنى هذا وفيما يشتهيه هذا أهم الاشياء الى فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هما فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها ولولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل فى الوجود (الثالث) أن يفسر الهم بحديث النفس وذلك لان المرأة الفائقة فى الحسن والجمال اذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلابد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم فى الصيف الصائف اذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فان طبيعته تحمله على شربه الا أن دينه وهداه يمنعه منه فهذا لايدل على حصول الذنب بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة فى القيام بلوازم العبودية أكمل فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذى ذهبنا اليه ولم يبق فى يد الواحدى الا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين ولو كان قد ذكر فى تقرير ذلك القول شبهة لاجبنا عنها الا أنه مازاد على الرواية عن بعض المفسرين واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ماكذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات فقلت الاولى أن لانقبل مثل هذه الاخبار فقال على طريق الاستنكار فان لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له يامسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب ابراهيم عليه السلام وان رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولاشك أن صون ابراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب اذا عرفت هذا الاصل فنقول للواحدى ومن الذى يضمن لنا ان الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين والله أعلم (المسئلة الثانية) فى ان المراد بذلك البرهان ماهو أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه (الاول) أنه حجة الله تعالى فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب (والثانى) أن الله تعالى طهر نفوس الانبياء عليهم السلام عن الاخلاق الذميمة بل نقول انه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الاخلاق وتذكير الاحوال الرادعة لهم عن الاقدام على

تقريره فى الذهن فان الضمير لايفهم منه من أول الامر الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لمايعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشان الخطير هذا وهو ربى اى سيدى العزيز أحسن مثواى أى أحسن تعهدى حيث أمرك باكرامى فكيف يمكن أن أسئ اليه بالخيانة فى حرمه وفيه ارشادلها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه وقيل الضمير لله عزوجل ور بى خبران ﴿ ١٧٧ ﴾ وأحسن مثواى خبرثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عزوجل وعلى التقديرين ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته وكونه ممالايدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى (انه لايفلح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء فى الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزنى بأهله (ولقد همت به) بمخالطته اذ الهم لايتعلق بالاعيان اى ﴿ ٢٣ ﴾ خا قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لايلويها عنه صارف بعدما باشرت مباديها وفعلت مافعلت من المراودة وتغليق الابواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة و غيرذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ماعسى يتوهم من

المنكرات (والثالث) أنه رأى مكتوبا فى سقف البيت ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا (والرابع) انه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش والدليل عليه أن الانبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون وأيضا ان الله تعالى عير اليهود بقوله أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم و مايكون عيبا فى حق اليهود كيف ينسب الى الرسول المؤيد بالمجزات ❊ وأما الذين نسبوا المعصية الى يوسف عليه السلام فقد ذكروا فى تفسير ذلك البرهان أمورا (الاول) قالوا ان المرأة قامت الى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك قالت أستحى من الهى هذا أن يرانى على معصية فقال يوسف أتستحين من صنم لايعقل ولايسمع ولاأستحى من الهى القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبدا قالوا فهذا هو البرهان (الثانى) نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضا على أصابعه و يقول له أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب فى زمرة الانبياء فاستحى منه قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت شهوته من أنامله (والثالث) قالوا انه سمع فى الهواء قائلا يقول ياابن يعقوب لاتكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه (والرابع) نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شئ من الشهوة الاخرج ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال هذا الذى ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له انك لاتأتينا البتة الابهذه التصلفات التى لافائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل و أيضا فان ترادف الدلائل على الشئ الواحد جائز وانه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعا عن الزنا بحسب الدلائل الاصلية فلما انضاف اليها هذه الزواجر قوى الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا ان جروا دخل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وبقى هناك بغير علمه قالوا فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوما وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب اليه جبريل عليه السلام والعجب أيضا أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل على زى الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل وههنا انه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت اليه ثم ان جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام الى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغى

في الدين والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام الملخص في هذه المسئلة والله أعلم (المسئلة الثالثة) في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه (الاول) ان السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا (الثاني) السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هو الزنا * أما قوله انه من عبادنا المخلصين اى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الاسواء ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية ابراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم انا أخلصناهم بخالصة (المسئلة الرابعة) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والمخلصين بكسر اللام في جميع القرآن والباقون بفتح اللام * قوله تعالى (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين) اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها همت أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال واستبقا الباب والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه الى نفسها والاستباق طلب السبق الى الشئ ومعناه تبادرا الى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح الباب وخرج وان سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج وقوله واستبقا الباب اى استبقا الى الباب كقوله واختار موسى قومه سبعين رجلا اى من قومه واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها الى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل الا الى دبر القميص فقدته اى قطعته طولا وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله وألفيا سيدها لدى الباب اى صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي وانما لم يقل سيدهما لان يوسف عليه السلام ما كان مملوكا لذلك الرجل في الحقيقة فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت الى أن رمت يوسف بالفعل القبيح وقالت ماجزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم والمعنى ظاهر * وفي الآية لطائف (احداها) ان ما يحتمل أن تكون نافية اى ليس جزاؤه الا السجن ويجوز أيضا أن تكون استفهامية يعني أي شئ جزاؤه الا أن يسجن كما تقول من في الدار الا زيد (وثانيها) أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع وذلك لانها بدأت بذكر السجن وأخرت ذكر العذاب لان المحب لايسعى في ايلام المحبوب وأيضا انها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والالم وأيضا قالت الا أن يسجن والمراد أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخفيف فأما الحبس الدائم فانه لايعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من ﴿ المسجونين ﴾

احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر (وهم بها) بمخالطتها اى مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لايكاد يدخل تحت التكليف لانه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ماسبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أوهم كل منهما بالآخر وصدر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل (لولا أن رأى برهان ربه) اى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذي تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على مانطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ماهو عليه في حد ذاته أقبح مايكون وأوجب مايجب أن يحذر منه ولذلك فعل مافعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام اى لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلي ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ماهو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه

المسجونين (وثالثها) انها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع انه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول ان يوسف عليه السلام قصدني بالسوء وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض فانظر الى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وان هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح (ورابعها) أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه وكان ذلك بالنسبة اليها جاريا مجرى السوء فقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ جار مجرى التعريض فعلها بقلبها كانت تريد اقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الامر كانت توهم انه قصدني بما لا ينبغي واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف الى ازالة هذه التهمة فقال هي راودتني عن نفسي وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الامر الا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الامر * واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق (فالاول) أن يوسف عليه السلام في ظاهر الامر كان عبدا لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه الى هذا الحد (والثاني) انهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدوا شديدا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه (والثالث) انهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى (الرابع) انهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذا الفعل المنكر وذلك أيضا مما يقوي الظن (الخامس) ان المرأة ما نسبته الى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاما مجملا مبهما وأما يوسف عليه السلام فانه صرح بالامر ولو أنه كان متهما لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فان الخائن خائف (السادس) قيل ان زوج المرأة كان عاجزا وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فالحاق هذه الفتنة بها أولى فلما حصلت هذه الامارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ثم انه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة وهو قوله وشهد شاهد من أهلها وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال (الاول) انه كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه فان كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وان كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا الى القميص ورأوا الشق من خلفه قال ابن عمها انه من

عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على أن لو لا في أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقي فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها وروءيته للبرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل ادرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الاخرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها (كذلك) الكاف منصوب المحل

وذلك اشارة الى الارادة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه اى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو الى التثبيت اللازم له أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا (والفحشاء) والزنا لانه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه

ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب (انه من عبادنا المخلصين) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جئ به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب ﴿ أنه ﴾ اى تسابقا الى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق فى ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب

كيد كن ان كيدكن عظيم اى من عملكن ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه وقال لها استغفرى لذنبك وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين (والثانى) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك ان ذلك الشاهد كان صبيا أنطقه الله تعالى فى المهد فقال ابن عباس تكلم فى المهد أربعة صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب قال الجبائى والقول الاول أولى لوجوه (الاول) انه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله انها كاذبة كافيا و برهانا قاطعا لانه من البراهين القاطعة القاهرة والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظنى ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها الى الدلالة الظنية لا يجوز (الثانى) انه تعالى قال وشهد شاهد من أهلها وانما قال من أهلها ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة لان الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والاضرار فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات انما يصار اليها عند كون الدلالة ظنية ولو كان هذا القول صادرا عن الصبى الذى فى المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها و بين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر (والثالث) ان لفظ الشاهد لا يقع فى العرف الا على من تقدمت له معرفة بالواقعة واحاطة بها (والقول الثالث) ان ذلك الشاهد هو القميص قال مجاهد الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر وهذا فى غاية الضعف لان القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب الى الاهل واعلم أن القول الاول عليه أيضا اشكال وذلك لان العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لان من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضربا وجيعا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع أن المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنبا (وجوابه) انا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا اليها هذه العلامة الاخرى لا لاجل أن يعولوا فى الحكم عليها بل لاجل أن يكون ذلك جاريا مجرى المقويات والمرجحات ثم انه تعالى أخبر وقال فلما رأى قميصه وذلك يحتمل السيد الذى هو زوجها و يحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه قال انه من كيد كن اى ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ من كيد كن ان كيد كن عظيم فان قيل انه تعالى لما خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم وأيضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء (والجواب) عن الاول ان خلقة الانسان بالنسبة الى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوان بالنسبة الى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضا فالنساء لهن فى هذا الباب من المكر والحيل مالا يكون للرجال ولان كيدهن فى هذا الباب يورث من العار مالا يورثه كيد الرجال واعلم

الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هي أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن اسراعها أثره بذلك مبالغة (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل في وصف على رضى الله عنه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها فى منعه عن الخروج

أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال يوسف أعرض عن هذا فقيل ان هذا من قول العزيز وقيل انه من قول الشاهد ومعناه أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها وكان أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال واستغفرى لذنبك وظاهر ذلك طلب المغفرة ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح وعلى هذا التقدير فالاقرب ان قائل هذا القول هو الشاهد ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله لان أولئك الاقوام كانوا يثبتون الصانع الا انهم مع ذلك كانوا يعبدون الاوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وعلى هذا التقدير فيجوز أن يكون القائل هو الزوج وقوله انك كنت من الخاطئين نسبة لها الى أنها كانت كثيرة الخطا فيما تقدم وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف فى أول الامر ان الذنب للمرأة لا ليوسف لانه كان يعرف منها اقدامها على ما لا ينبغى وقال أبو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار قال صاحب الكشاف وانما قال من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث ويحتمل أن يقال المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبث فيك والله أعلم ※ قوله تعالى (وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لم لم يقل وقالت نسوة قلنا لوجهين (الاول) أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (الثانى) قال الواحدى تقديم الفعل يدعو الى اسقاط علامة التأنيث على قياس اسقاط علامة التثنية والجمع (المسئلة الثانية) قال الكلبى هن أربع امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه وامرأة صاحب دوابه وزاد مقاتل وامرأة الحاجب والاشبه أن تلك الواقعة شاعت فى البلد واشتهرت وتحدث بها النساء ※ وامرأة العزيز هى هذه المرأة المعلومة تراود فتاها عن نفسه الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة ※ قد شغفها حبا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الشغاف فيه وجوه (الاول) ان الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلانا اذا أصبت شغافه كما تقول كبدته اذا أصبت كبده فقوله شغفها حبا اى دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب (والثانى) أن حبه أحاط بقلبها مثل احاطة الشغاف بالقلب ومعنى احاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجابا بينها و بين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها الا اياه (والثالث) قال الزجاج الشغاف حبة القلب وسويداء القلب والمعنى أنه وصل حبه الى سويداء قلبها

و بذل مجهودها فى ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح (وألفيا سيدها) اى صادفا زوجها واذا لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة (لدى الباب) اى البرانى كما مر روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب (قالت) استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ماجزاء من أراد بأهلك سوأ) من الزنا ونحوه (الا أن يسجن أو عذاب أليم) ما نافية اى ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أى أى شئ جزاؤه غير ذلك أو ذلك ولقد أتت

فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعا فى مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره

ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ماهي عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها فهي تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفي ابهام المريدتهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا في حق كل أحد كائنا من كان وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ماتوخاه بحكم الغضب والحمية (قال) استئناف وجواب عما يقال فاذا قال يوسف حينئذ وقيل قال (هي راودتني عن نفسي) اى طالبتني للمواتاة لاانى أردت بها سوأ كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ماعرضته له من الامرين الامرين وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء الى الاعراض عنها (وشهد شاهد من أهلها) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذي كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد يجوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لاتشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا في المهد أنطقه الله ﴿ بحيث ﴾ تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبي

وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم (المسئلة الثانية) قرأ جماعة من الصحابة والتابعين شعفها بالعين قال ابن السكيت يقال شعفه الهوى اذا بلغ الى حد الاحتراق وشعف الهناء البعير اذا بلغ منه الالم الى حد الاحتراق وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال الشعف بالعين احراق الحب القلب مع لذة يجدها كما ان البعير اذا هنئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه وقال ابن الانبارى الشعف رؤس الجبال ومعنى شعف بفلان اذا ارتفع حبه الى أعلى المواضع من قلبه (المسئلة الثالثة) قوله حبا نصب على التميز ثم قال انا لنراها في ضلال مبين اى في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها اياه كقوله ان أبانا لفي ضلال مبين ثم قال تعالى فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) المراد من قوله فلما سمعت بمكرهن أنها سمعت قولهن وانما سمى قولهن مكرا لوجوه (الاول) أن النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن (الثاني) أن امرأة العزيز أسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك عذرا ومكرا (الثالث) أنهن وقعن في غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر (المسئلة الثانية) انها لما سمعت انهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت ابداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ وفي تفسيره وجوه (الاول) المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه (الثاني) أن المتكأ هو الطعام قال العتبي والاصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة (والثالث) متكأ أترجا وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة في ذلك المجلس (والرابع) متكأ طعاما يحتاج الى أن يقطع بالسكين لان الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان الى أن يتكأ عليه عند القطع ثم نقول حاصل ذلك انها دعت أولئك النسوة وأعتدت لكل واحدة منهن مجلسا معينا وآتت كل واحدة منهن سكينا اى لاجل أكل الفاكهة أو لاجل قطع اللحم ثم انها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج اليهن ويعبر عليهن وانه عليه السلام ماقدر على مخالفتها خوفا منها فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وههنا مسائل (المسئلة الاولى) في أكبرنه قولان (الاول) أعظمنه (والثاني) أكبرن بمعنى حضن قال الازهرى والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وفيه وجه آخر وهو ان المرأة اذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت فان صح تفسير الاكبار بالحيض فالسبب فيه ماذكرناه وقوله وقطعن أيديهن كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن انها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها أو يقال انها لما دهشت صارت

هريرة رضي الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من اهلها البيان الواقع اذ لايختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (ان كان قميصه قد من قبل) اى ان علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الى فاعتد باحساني السابق اليك (فصدقت) بتقدير قد لانها تقرب الماضي الى الحال اى فقد صدقت وكذا الحال في قوله فكذبت وهى وان لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوأ الآن كلاهما حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاآت (وهو من الكاذبين) وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة في شئ وانما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة أعني مضمون الشرطية الثانية التي هى قوله عز وجل (وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) الى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الاقوال أو بتقدير القول اى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع أنه لاحكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتاديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم

بحيث لاتميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها (المسئلة الثانية) اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بي الى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا فقال هذا يوسف فقيل يارسول الله كيف رأيته قال كالقمر ليلة البدر وقيل كان يوسف اذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها وقيل كان يشبه آدم يوم خلقه ربه وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه وعندي انه يحتمل وجها آخر وهو أنهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن وعندي أن حمل الآية على هذا الوجه أولى فان قيل فاذا كان الامر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها فذلكن الذي لمتنني فيه وكيف تصير هذه الحالة عذرا لها في قوة العشق وافراط المحبة قلنا قد تقرر ان الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهذا السبب وقعت في المحبة والحسرة والارق والقلق وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم (المسئلة الثالثة) قرأ أبو عمرو وقلن حاشا لله باثبات الالف بعد الشين وهى رواية الاصمعي عن نافع وهى الاصل لانها من المحاشاة وهى التنحية والتبعيد والباقون بحذف الالف للتخفيف وكثرة دورها على الالسن اتباعا للمصحف وحاشا كلمة تفيد معنى التنزيه والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله وأما قوله حاش لله ماعلمنا عليه من سوء فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله (المسئلة الرابعة) قوله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم فيه وجهان (الاول) وهو المشهور ان المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا لانه تعالى ركز في الطباع أن لاحى أحسن من الملك كما ركز فيها أن لاحى أقبح من الشيطان ولذلك قال تعالى في صفة جهنم طلعها كأنه رؤس الشياطين وذلك لما ذكرنا انه تقرر في الطباع أن أقبح الاشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع ان أحسن الاحياء هو الملك فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لاجرم شبهنه بالملك (والوجه الثاني) وهو الاقرب عندي ان المشهور عند الجمهور ان الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ثم ان النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن البتة ورأين عليه

بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبى فظاهر اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة ر
الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ماهى
عليه اما مشاهدة أو اخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الاولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم
بانتفاء تالى الاولى وبوقوع تالى الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته

هيبة النبوة وهيبة الرسالة وسيما الطهارة قلن انا ما رأينا فيه أثرا من أثر الشهوة ولا شيئا من البشرية ولا صفة من الانسانية فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة فى البشر وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل فى الملكية فان قالوا فان كان المراد ماذكرتم فكيف تمهد عذر تلك المرأة عند النسوة فالجواب قد سبق والله أعلم (المسئلة الخامسة) القائلون بأن الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا لاشك أنهن انما ذكرن هذا الكلام فى معرض تعظيم يوسف عليه السلام فوجب أن يكون اخراجه من البشرية وادخاله فى الملكية سببا لتعظيم شأنه واعلاء مرتبته وانما يكون الامر كذلك لو كان الملك أعلى حالا من البشر ثم نقول لا يخلو اما أن يكون المقصود بيان كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الظاهر أو كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الباطن والاول باطل لوجهين (الاول) انهم وصفوه بكونه كريما وانما يكون كريما بسبب الاخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة (والثانى) أنا نعلم بالضرورة ان وجه الانسان لايشبه وجوه الملائكة البتة اما كونه بعيدا عن الشهوة والغضب معرضا عن اللذات الجسمانية متوجها الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة واذا ثبت هذا فنقول تشبيه الانسان بالملك فى الامر الذى حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى هذه الآية انما وقع فى الخلق الباطن لا فى الصورة الظاهرة وثبت انه متى كان الامر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالا من الانسان فى هذه الفضائل فثبت ان الملك أفضل من البشر والله أعلم (المسئلة السادسة) لغة أهل الحجاز اعمال ما عمل ليس وبها ورد قوله ماهذا بشرا ومنها قوله ماهن أمهاتهم ومن قرأ على لغة بنى تميم قرأ ماهذا بشر وهى قراءة ابن مسعود وقرئ ماهذا بشرا أى ماهو بعبد مملوك للبشر ان هذا الا ملك كريم ثم نقول ماهذا بشرا أى حاصل بشرا بمعنى هذا مشترى وتقول هذا لك بشرا أم بكرا والقراءة المعتبرة هى الاولى لموافقتها المصحف ولمقابلة البشر للملك * قوله تعالى (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) اعلم ان النسوة لما قلن فى امرأة العزيز قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين عظم ذلك عليها فجمعتهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن فعند ذلك ذكرت انهن باللوم أحق لانهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع انه طال مكثه عندها فان قيل فلم قالت فذلكن مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرا (والجواب) عنه من وجوه (الاول) قال ابن الانبارى أشارت بصيغة ذلكن الى يوسف بعد انصرافه من المجلس (والثانى) وهو الذى ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ما قيل ان النسوة كن يقلن انها عشقت عبدها الكنعانى فلما رأينه ووقعن فى تلك الدهشة قالت هذا الذى رأيتموه هو ذلك العبد الكنعانى الذى لمتننى

مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لان الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لامحالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محققا البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأته تزوجنى نفسك فقالت لى زوج فكذبها فى ذلك فقالت ان لم يكن لى زوج فقد زوجتك نفسى فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح اذ تعليق الشئ بأمر مقرر تنجيز له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا

الصرف للتأنيث والعلمية وقرئ بسكون العين (فلما رأى قميصه قد من دبر) كأنه لم يكن رأى ﴿ فيه ﴾
ذلك بعد أولم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال (قال انه) أى الامر الذى وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن
ارادة السوء التى أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الى آخره لكن لامن حيث

صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى (من كيدكن) أي من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يمكن تجريده عن الاضافة اليها الا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق * ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها * سجية نفس كل غانية ✻ ١٨٥ ✻ هند * ورجع الضمير الى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن ارادة السوء من هي الى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء أو للأمر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا اليه (ان كيدكن عظيم) فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال (يوسف) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) أي عن هذا الامر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفري) ✻ ٢٤ ✻ خا أنت يا هذه (لذنبك) الذي صدر عنك وثبت عليك (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطئ اذا اذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل

فيه يعني انكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة واعلم انها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم واعلم ان هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة وعن السدي أنه قال فاستعصم بعد حل السراويل وما الذي يحمله على الحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب ثم قال ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين والمراد ان يوسف عليه السلام ان لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار ومعلوم ان التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام وقوله وليكونا كان حمزة والكسائي يقفان على وليكونا بالالف وكذلك قوله لنسفعا والله أعلم ✻ قوله تعالى (قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) واعلم ان المرأة لما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر انهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها والا وقعت في السجن وفي الصغار فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة (أحدها) ان زليخا كانت في غاية الحسن (والثاني) انها كانت ذات مال وثروة وكانت على عزم ان تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها (والثالث) ان النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ومكر النساء في هذا الباب شديد (والرابع) انه عليه السلام كان خائفا من شرها واقدامها على قتله واهلاكه فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الاسباب القوية الكثيرة فيه واعلم أن القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه وقرئ السجن بالفتح على المصدر وفيه سؤالان (السؤال الاول) السجن في غاية المكروهية وما دعونه اليه في غاية المطلوبية فكيف قال المشقة أحب الي من اللذة (والجواب) ان تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة فلهذا السبب قال السجن أحب الي مما يدعونني اليه (السؤال الثاني) ان حبسهم له معصية كما كان الزنا معصية فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية (والجواب) تقدير الكلام انه اذا كان لا بد من التزام أحد الامرين أعني الزنا والسجن فهذا أولى لانه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل ثم قال والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين أصب اليهن أمل اليهن يقال صبا الى اللهو يصبو صبوا اذا مال واحتج أصحابنا

الغيرة (وقال نسوة) أى جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المراة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى اسم لجماعة النساء والشبة وهى اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (فى المدينة) ظرف لقال أى أشعن الامر فى مصر أو صفة لنسوة (امرأة العزيز) أى الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها واسمه ليست لقصد المبالغة فى اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوى الاخطار أميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الاشباع فى لومها بقولهن (تراود فتاها) أى تطالبه بمواقعته اياها وتتمحل فى ذلك وتخادعه (عن نفسه) وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب واصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفى الحديث لا يقل احدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذى لا تستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع فى اللوم فان من لا زوج لها من النساء او لها زوج دنئ قد تعذر ﴿ لم يفد ﴾ فى مراودة الاخدان لاسيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التى لها زوج وأى زوج عزيز مصر فراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها فى ذلك غاية الغى ونهاية الضلال (قد شغفها حبا) أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه

بهذه الآية على ان الانسان لا ينصرف عن المعصية الا اذا صرفه الله تعالى عنها قالوا لان هذه الآية تدل على انه تعالى ان لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقريره ان القدرة والداعى الى الفعل والترك ان استويا امتنع الفعل لان الفعل رجحان لاحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال وان حصل الرجحان فى أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد والا لذهبت المراتب الى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحا لانه متى صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لان الوقوع رجحان فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية وهو يقتضى حصول الجمع بين النقيضين وهو محال فثبت بهذا ان انصراف العبد عن القبيح ليس الا من الله تعالى وتوجهه الى الطاعة ليس الا من الله تعالى ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر وهو انه كان قد حصل فى حق يوسف عليه السلام جميع الاسباب المرغبة فى تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل فى الاعراض عنها جميع الاسباب المنفرة ومتى كان الامر كذلك فقد قويت الدواعى فى الفعل وضعفت الدواعى فى الترك فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث فى قلبه أنواعا من الدواعى المعارضة النافية لدواعى المعصية اذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع فى المعصية خاليا عما يعارضه وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله أصب اليهن وأكن من الجاهلين * قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى يحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها فلم يلتفت يوسف اليها فلما أيست منه احتالت فى طريق آخر وقالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على اظهار عذرى فاما ان تأذن لى فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فهذا هو المراد من قوله ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين لان البداء عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى الاول والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر وخمش الوجه والزام الحكم اياها بقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وذكرنا انه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيا فى اخفاء الفضيحة (المسئلة الثانية) قوله بدا لهم فعل وفاعله فى هذا الموضع قوله ليسجننه وظاهر هذا الكلام يقتضى اسناد الفعل الى فعل آخر الا أن النحويين اتفقوا على ان اسناد الفعل الى الفعل لا يجوز فاذا قلت خرج ضرب

لم يفد البتة فعند هذا قالوا تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه الا انه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم وأقول الذوق يشهد بان جعل الفعل مخبرا عنه لا يجوز وليس لاحد أن يقول الفعل خبر فجعل الخبر مخبرا عنه لا يجوز لانا نقول الاسم قد يكون خبرا كقولك زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا ان كون الشئ خبرا لا ينافى كونه مخبرا عنه بل نقول فى هذا المقام شكوك (أحدها) انا اذا قلنا ضرب فعل فالمخبر عنه بانه فعل هو ضرب فالفعل صار مخبرا عنه فان قالوا المخبر عنه هو هذه الصيغة وهى اسم فنقول فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بانه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل بل نقول المخبر عنه بانه فعل ان كان فعلا فقد ثبت ان الفعل يصح الاخبار عنه وان كان اسما كان معناه انا أخبرنا عن الاسم بانه فعل ومعلوم انه باطل وفى هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها فى كتب المعقولات (المسئلة الثالثة) قال أهل اللغة الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه وعلى الطويل وقال ابن عباس يريد الى انقطاع المقالة وما شاع فى المدينة من الفاحشة ثم قيل الحين ههنا خمس سنين وقيل بل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتى عشرة سنة والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقى محبوسا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد أمة اما قوله تعالى ودخل معه السجن فتيان فههنا محذوف والتقدير لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله ودخل معه السجن فتيان عليه قيل هما غلامان كانا للملك الاكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه والآخر صاحب شرابه رفع اليه ان صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن ان الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقى فى الآية سؤالات (الاول) كيف عرفا انه عليه السلام عالم بالتعبير (والجواب) لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا انا رأينا فى المنام هذه الرؤيا ويحتمل انهما رأياه وقد أظهر معرفته بامور منها تعبير الرؤيا فعند هذا ذكرا له ذلك (السؤال الثانى) كيف عرف انهما كانا عبدين للملك (الجواب) لقوله فيسقى ربه خمرا أى مولاه ولقوله اذكرنى عند ربك (السؤال الثالث) كيف عرف ان أحدهما كان صاحب شراب الملك والآخر صاحب طعامه (والجواب) رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لان أحدهما رأى انه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزا (السؤال الرابع) كيف وقعت رؤية المنام (والجواب) فيه قولان (الاول) ان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لاهله انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين هلم فلنختبر هذا العبد العبرانى برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا قال ابن مسعود ما كانا رأيا شيئا وانما تحالما ليختبرا علمه (والقول الثانى) قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها فقال الساقى أيها العالم انى رأيت كأنى فى بستان فاذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله انى أرانى أعصر خمرا وقال صاحب الطعام انى رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز وألوان الاطعمة

أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هناه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأياما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها تعليل لدوام المراودة من حيث الآنية مصير الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية. اذا الاصل قد شغفها حبه كما أشير اليه (انا لنراها) أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (فى ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل (مبين) واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم وانما لم يقلن انها لفى ضلال مبين اشعارا بان ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هى عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهره لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام (أرسلت اليهن) تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أى أحضرت وهيأت (لهن متكأ) أى ما يتكئن عليه

من النمارق والوسائد أو ريدت لهن مجلس طعام وشراب لانهم كانوا يتكؤن للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين
ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكأ وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل فظللنا بنعمة
واتكأنا * وشربنا الحلال من قلله وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع
يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد ﴿ ١٨٨ ﴾ باشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح و ينباع
فى ينبع وقرئ متكأ وهو الاترج وأنشدوا
وأهدت متكة لبنى أبيها * تخب بها العثمثمة الوقاح
أوما يقطع من متك الشئ اذا بتكه ومتكأ من تكى اذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) لتستعمله فى قطع مايعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ماسيقع من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين واعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى أن قولها (اخرج عليهن) أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن (فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف
تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة ﴿ الكلام ﴾
فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله
عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الافاعيل (أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق
فان فضل جماله على جمال كل جميل

واذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا
تأكل الطير منه (السؤال الخامس) كيف عرف يوسف عليه السلام ان المراد من قوله انى
أرانى أعصر خمرا رؤيا المنام (الجواب) لوجوه (الاول) انه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله
أعصر يغنيه عن ذكر قوله أرانى (والثانى) دل عليه قوله نبئنا بتأويله (السؤال السادس)
كيف يعقل عصر الخمر (الجواب) فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أن يكون المعنى أعصر عنب
خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف (الثانى) ان العرب تسمى الشئ
باسم مايؤل اليه اذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا
(والثالث) قال أبو صالح أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى أهل مكة
فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب (السؤال السابع) مامعنى
التأويل فى قوله نبئنا بتأويله (الجواب) تأويل الشئ مايرجع اليه وهو الذى يؤل اليه آخر
ذلك الامر (السؤال الثامن) ما المراد من قوله انا نراك من المحسنين (الجواب) من وجوه
(الاول) معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتى بمكارم الاخلاق وجميع الافعال الحميدة
قيل انه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم فقالوا انك من المحسنين اى فى حق الشركاء
والاصحاب وقيل انه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك
من المحسنين فى أمر الدين ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور
وقيل المراد انا نراك من المحسنين فى علم التعبير وذلك لانه متى عبر لم يخط كما قال وعلمنى من
تأويل الاحاديث (السؤال التاسع) ماحقيقة علم التعبير (الجواب) القرآن والبرهان
يدلان على صحته أما القرآن فهو هذه الآية وأما البرهان فهو انه قد ثبت انه سبحانه خلق
جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود الى عالم الافلاك ومطالعة اللوح المحفوظ
والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفى وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى
على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الاحوال تركت آثارا مخصوصة مناسبة
لذلك الادراك الروحانى الى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك
الادراكات العقلية فهذا كلام مجمل وتفصيله مذكور فى الكتب العقلية والشريعة
مؤكدة له روى عن النبى عليه السلام أنه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا مايحدث به الرجل نفسه
ورؤيا تحدث من الشيطان ورؤيا التى هى الرؤيا الصادقة حقة وهذا تقسيم صحيح فى العلوم
العقلية وقال عليه السلام رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة * قوله
عز وجل (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى انى
تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق
ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر
الناس لا يشكرون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المذكور فى هذه الآية ليس
بجواب لما سألاه عنه فلابد ههنا من بيان الوجه الذى لاجله عدل عن ذكر الجواب الى هذا

الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب ولا شك انه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه حتى اذا جاء بهما من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة (الثانى) لعله عليه السلام أراد أن يبين ان درجته فى العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه وذلك لانهم طلبوا منه علم التعبير ولاشك أن هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فبين لهما انه يمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه واذا كان الامر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس فى علم التعبير كان أولى فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا فى علم التعبير واصلا فيه الى ما لم يصل غيره (والثالث) قال السدى لا يأتيكما طعام ترزقانه فى النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شئ دون غيره ولذلك قال الا نبأتكما بتأويله (الرابع) لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله فاورد عليهما ما دل على كونه رسولا من عند الله تعالى فان الاشتغال باصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا (والخامس) لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد فى أن يدخله فى الاسلام حتى لا يموت على الكفر ولا يستوجب العقاب الشديد وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة (والسادس) قوله لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله محمول على اليقظة والمعنى أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه الا أخبرتكما أى طعام هو وأى لون هو وكم هو وكيف يكون عاقبته أى اذا أكله الانسان فهو يفيد الصحة أو السقم وفيه وجه آخر قيل كان الملك اذا أراد قتل انسان صنع له طعاما مسموما فارسله اليه فقال يوسف لا يأتيكما طعام الا أخبرتكما ان فيه سما أم لا هذا هو المراد من قوله لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وحاصله راجع الى أنه أدعى الاخبار عن الغيب وهو يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فالوجوه الثلاثة الاول لتقرير كونه فائقا فى علم التعبير والوجوه الثلاثة الاخر لتقرير كونه نبيا صادقا من عند الله تعالى فان قيل كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع انه لم يتقدم ادعاء للنبوة قلنا انه وان لم يذكر ذلك لكن يعلم لانه لابد وأن يقال انه كان قد ذكره وأيضا ففى قوله ذلكما مما علمنى ربى وفى قوله واتبعت ملة آبائى ما يدل على ذلك ثم قال تعالى ذلكما مما علمنى ربى أى لست اخبر كما على جهة الكهانة والنجوم وانما اخبرتكما بوحى من الله وعلم حصل بتعليم الله ثم قال انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول فى قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله توهم انه عليه السلام كان فى هذه الملة فنقول جوابه من وجوه (الاول) ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ وليس من شرطه ان يكون قد كان خائضا فيه (والثانى) وهو الاصح أن يقال انه عليه السلام كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والايمان خوفا منهم على سبيل التقية ثم انه أظهره فى هذا الوقت

كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ❊ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى ❊ خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ❊ فان لحت ❊ ١٨٩ ❊ حاضت فى الخدور العواتق (وقطعن أيديهن) أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن ما فعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع واصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت الفه الأخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به الا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرا كما فى سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الالف الاخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الالف فى الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف

أى صارفى ناجية من أن يقارف ما رمته به لله أى اطاعته أولمكانه اوجانب المعصية لاجل الله (ماهذا بشرا) على اعمال ما بمعنى ليس وهى لغة اهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرئ بشر على لغة تميم و بشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لماشاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصر على الملكية بقولهن (ان هذا الاملك كريم) بناء على ماركز فى العقول

من أن لاحى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لاأقبح من الشيطان ولذلك لايزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قالت فذلكن) الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الامر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو (الذى لمتننى فيه) أى عيرتننى فى الافتتان به حيث ربأتن بمحلى بنسبتى الى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفتنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ماقلتن فالآن قد علمتن من هو وماقولكن فينا وأما ما يقال تعنى انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد مامهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ماصدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لامزيد عليه وماذكر من المقال فحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية ان الجمع بين الجمال الرائق

فكان هذا جاريا مجرى تركه ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر (المسئلة الثانية) تكرير لفظهم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون لبيان اختصاصهم بالكفر ولعل انكارهم للمعاد كان اشد من انكارهم للمبدا فلاجل مبالغتهم فى انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد واعلم ان قوله انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله اشارة الى علم المبدا وقوله وهم بالآخرة هم كافرون اشارة الى علم المعاد من تأمل فى القرآن المجيد وتفكر فى كيفية دعوة الانبياء عليهم السلام علم أن المقصود من ارسال الرسل وانزال الكتب صرف الخلق الى الاقرار بالتوحيد و بالمبدا والمعاد وان ماوراء ذلك عبث ثم قال تعالى واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق و يعقوب وفيه سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى ذكر هذا الكلام (الجواب) انه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة وان أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله فان الانسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه وأيضا فكما أن درجة ابراهيم عليه السلام واسحق و يعقوب كان أمرا مشهورا فى الدنيا فاذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له أتم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل (السؤال الثانى) لما كان نبيا فكيف قال انى اتبعت ملة آبائى والنبى لابد وان يكون مختصا بشريعة نفسه قلنا لعل مراده التوحيد الذى لم يتغير وأيضا لعله كان رسولا من عند الله الا أنه كان على شريعة ابراهيم عليه السلام (السؤال الثالث) لم قال ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ وحال كل المكلفين كذلك (والجواب) ليس المراد بقوله ماكان لنا أنه حرم ذلك عليهم بل المراد انه تعالى طهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله ماكان لله أن يتخذ من ولد (السؤال الرابع) ما الفائدة فى قوله من شئ (الجواب) ان أصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة فقوله ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق وارشاد الى الدين الحق وهو أنه لاموجد الا الله ولا خالق الا الله ولا رازق الا الله ثم قال ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس وفيه مسئلة وهى أنه قال ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ ثم قال ذلك من فضل الله فقوله ذلك اشارة الى ماتقدم من عدم الاشراك فهذا يدل على ان عدم الاشراك وحصول الايمان من الله ثم بين أن الامر كذلك فى حقه بعينه وفى حق الناس ثم بين أن أكثر الناس لايشكرون و يجب أن يكون المراد أنهم لايشكرون الله على نعمة الايمان حكى أن واحدا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر وقال هل تشكر الله على الايمان أم لا فان قال لا فقد خالفت الاجماع وان شكرته فكيف تشكره على ماليس فعلاله فقال له بشر انا نشكره على انه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة فيجب علينا أن نشكره على اعطاء القدرة والآلة فاما أن نشكره على الايمان مع ان الايمان ليس فعلاله فذلك باطل وصعب الكلام على بشر فدخل عليهم ثمامة بن الاشرس وقال انا لانشكر الله على الايمان بل الله يشكرنا

والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لايلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان
العصمة ممانيا فى تمشية مرامها ثم بعد ما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله
عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت (ولقد راودته عن نفسه) حسبما قلتن وسمعتن (فاستعصم)
امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كانه فى عصمة وهو
يجتهد فى الاستزادة منها
كما فى استمسك واستجمع
الرأى وفيه برهان نير
على انه لم يصدر عنه
عليه السلام شئ مخل
باستعصامه بقوله معاذ الله
من الهم وغيره اعترفت
لهن أولا بما كن يسمعنه
من مراودتها له وأكدته
اظهارا لابتهاجها بذلك
ثم زادت على ذلك أنه
أعرض عنها على أبلغ
مايكون ولم يمل اليها قط
ثم زادت عليه أيضا أنها
مستمرة على ما كانت
عليه غير مرعوبة عنه
لا بلوم العواذل
ولا باعراض الحبيب فقالت
(ولئن لم يفعل ما آمره)
أى آمر به فيما سيأتى
كما لم يفعل فيما مضى فحذف
الجار وأوصل الفعل
الى الضمير كما فى أمرتك
الخير فما الضمير للموصول
أو أمرى اياه أى موجب
أمرى ومقتضاه
فما مصدرية والضمير
ليوسف وعبرت عن
مراودتها بالامر اظهارا
لجريان حكومتها عليه
واقتضاء للامتثال بأمرها (ليسجنن) بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو ايهاما لسرعة
ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لايدخل بينهما فعل فاعل (وليكونا) بالمخففة (من الصاغرين)
أى الاذلاء فى السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لان النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم
الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط

عليه كما قال فأولئك كان سعيهم مشكورا فقال بشر لما صعب الكلام سهل واعلم ان الذى
الزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية وذلك لانه تعالى بين ان عدم الاشراك من فضل الله ثم
بين ان اكثر الناس لايشكرون هذه النعمة وانما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على انه
يجب على كل مؤمن ان يشكر الله تعالى على نعمة الايمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل
الدلالة قال القاضى قوله ذلك ان جعلناه اشارة الى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله
تعالى لانه انما حصل بألطافه وتسهيله ويحتمل ان يكون اشارة الى النبوة (والجواب) ان ذلك
اشارة الى المذكور السابق وذاك هو ترك الاشراك فوجب أن يكون ترك الاشراك من
فضل الله تعالى والقاضى يصرفه الى الالطاف والتسهيل فكان هذا تركا للظاهر وأما
صرفه الى النبوة فبعيد لان اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه الى أقرب المذكورات
وهو ههنا عدم الاشراك * قوله تعالى (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله
الواحد القهار ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من
سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
لايعلمون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله ياصاحبى السجن يريد ياصاحبى
فى السجن ويحتمل أيضا انه لما حصلت مرافقتهما فى السجن مدة قليلة أضيفا اليه واذا
كانت المرافقة القليلة كافية فى كونه صاحبا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بان
يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب (المسئلة الثانية) اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة
فى الآية الاولى وكان اثبات النبوة مبنيا على اثبات الالهيات لاجرم شرع فى هذه الآية
فى تقرير الالهيات ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الاله العالم القادر وانما الشأن
فى أنهم يتخذون أصناما على صورة الارواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول
النفع والضر منها لاجرم كان سعى أكثر الانبياء فى المنع من عبادة الاوثان فكان الامر
على هذا القانون فى زمان يوسف عليه السلام فلهذا السبب شرع ههنا فى ذكر ما يدل على
فساد القول بعبادة الاصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج (الحجة الاولى) قوله أأرباب
متفرقون خير أم الله الواحد القهار وتقرير هذه الحجة أن نقول ان الله تعالى بين أن كثرة
الآلهة توجب الخلل والفساد فى هذا العالم وهو قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا
فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل وكون الاله واحدا يقتضى حصول النظام وحسن
الترتيب فلما قرر هذا المعنى فى سائر الآيات قال ههنا أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد
القهار والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار (والحجة الثانية) ان هذه الاصنام
معمولة لاعاملة ومقهورة لاقاهرة فان الانسان اذا أراد كسرها وابطالها قدر عليها فهى
مقهورة لاتأثير لها ولايتوقع حصول منفعة ولامضرة من جهتها واله العالم فعال قهار
قادر يقدر على ايصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة
المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار فقوله أأرباب اشارة الى الكثرة فجعل

موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التاكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام انها ليست فى امرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فماصنع يوسف حينئذ قيل (قال) مناجيا لربه عز سلطانه (رب السجن) الذى أوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر (أحب الى) أى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافدة اثرها راحات جليلة أبدية (مما يدعوننى اليه) من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر (والا تصرف) أى ان لم تصرف (عنى كيدهن) فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بان تثبتنى على ما أنا عليه من العصمة والعفة (أصب اليهن) أى أمل الى اجابتهن أو الى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام الى ألطاف الله تعالى جريا

فى مقابلته كونه تعالى واحدا وقوله متفرقون اشارة الى كونها مختلفة فى الكبر والصغر واللون والشكل وكل ذلك انما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله متفرقون اشارة الى كونها مقهورة عاجزة وجعل فى مقابلته كونه تعالى قهارا فبهذا الطريق الذى شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين (والحجة الثالثة) ان كونه تعالى واحدا يوجب عبادته لانه لو كان له ثان لم نعلم من الذى خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا فيقع الشك فى أنا نعبد هذا أم ذاك وفيه اشارة الى ما يدل على فساد القول بعبادة الاوثان وذلك لان بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة الا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما وحينئذ يقع الشك فى أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما اذا كان المعبود واحدا ارتفع هذا الشك وحصل اليقين فى أنه لا يستحق للعبادة الا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات الا هو فهذا أيضا وجه لطيف مستنبط من هذه الآية (الحجة الرابعة) ان بتقدير أن يساعد على أن هذه الاصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات الا أنه لا نزاع فى أنها تنفع فى أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة والاله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الاطلاق نافذ المشيئة والقدرة فى كل الممكنات على الاطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى (الحجة الخامسة) وهى شريفة عالية وذلك لان شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارا لكل ما سواه وهذا يقتضى أن يكون الاله واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لا قاهرا ويجب أن يكون واحدا اذ لو حصل فى الوجود واجبان لما كان قاهرا لكل ما سواه فالاله لا يكون قهارا الا اذا كان واجبا لذاته وكان واحدا واذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضى أن يكون الاله شيئا غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس فأما من تمسك بالكواكب فهى أرباب متفرقون وهى ليست موصوفة بانها قهارة وكذا القول فى الطبائع والارواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف فى اثبات هذا التوحيد المطلق وانه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقى فيها سؤالان (السؤال الاول) لم سماها أربابا وليست كذلك (والجواب) لاعتقادهم فيها أنها كذلك وأيضا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير والمعنى انها ان كانت أربابا فهى خير أم الله الواحد القهار (السؤال الثانى) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير أم الله الواحد القهار (الجواب) انه خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار ثم قال ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان وفيه سؤال وهو انه تعالى قال فيما قبل هذه الآية أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وذلك يدل على وجود هذه المسميات ثم قال عقيب تلك الآية ما تعبدون من دونه الا أسماء

سميتموها

على سنن الانبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عزوجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لاطاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى والاهلكت لأنه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس ﴿ ١٩٣ ﴾ تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق (وأكن من الجاهلين) الذين لايعملون بما يعلمون لان من لاجدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أومن السفهاء بارتكاب مايدعوننى اليه من القبائح لان الحكيم لايفعل القبيح (فاستجاب له ربه) دعاءه الذى تضمنه قوله والاتصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كامر وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام مالايخفى من اظهار اللطف (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة (انه هو السميع) لدعاء المتضرعين اليه (العليم) بأحوالهم ومايصلحهم (ثم بدالهم) أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك (من بعد ﴿ ٢٥ ﴾ خا مارأوا الآيات) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله (ليسجننه) والمعنى بدالهم بداء اورأى أوسجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء الا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب

سميتموها وهذا يدل على ان المسمى غير حاصل و بينهما تناقض (الجواب) ان الذات موجودة حاصلة الأ أن المسمى بالاله غير حاصل و بيانه من وجهين (الاول) أن ذوات الاصنام وان كانت موجودة الأ أنها غير موصوفة بصفات الالهية واذا كان كذلك كان الشئ الذى هو مسمى بالاله فى الحقيقة غير موجود ولا حاصل (الثانى) يروى أن عبدة الاوثان مشبهة فاعتقدوا أن الاله هو النور الاعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الانوار هذه الاوثان ومعبودهم فى الحقيقة هو تلك الانوار السماوية وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسما كبيرا مستقرا على العرش و يعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح أنهم لايعبدون الامجرد الاسماء واعلم ان جماعة ممن يعبدون الاصنام قالوا نحن لانقول ان هذه الاصنام آلهة للعالم بمعنى انها هى التى خلقت العالم الأ أنا نطلق عليها اسم الاله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا ان الله أمرنا بذلك فاجاب الله تعالى عنه فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل فى حصول هذه التسمية حجة ولا برهانا ولادليلا ولاسلطانا وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والامر والتكليف ليس الاله ثم انه أمر أن لاتعبدوا الا اياه وذلك لان العبادة نهاية التعظيم والاجلال فلا تليق الا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الاله تعالى لان منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ونعم الله كثيرة وجهات احسانه الى الخلق غير متناهية ثم انه تعالى لما بين هذه الاشياء قال ولكن أكثر الناس لايعلمون وتفسيره ان أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الارضية الى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لاجل أنه تقرر فى العقول أن الحادث لابد له من سبب فاذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم فى الحر والبرد والفصول الاربعة انما يحصل عند تغير أحوال الشمس فى أرباع الفلك ربطوا الفصول الاربعة بحركة الشمس ثم لما شاهدوا ان احوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الاربعة ربطوا حدوث النبات و تغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الاربعة فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث فى هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ثم انه تعالى اذا وفق انسانا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها فى ذواتها وصفاتها مفتقرة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم فذلك الشخص يكون فى غاية الندرة فلهذا قال ولكن أكثر الناس لايعلمون * قوله عزوجل (ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان) اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه والمعنى ظاهر وذلك لان الساقى لما قص رؤياه على يوسف وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف ما أحسن مارأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك وأما الاغصان الثلاثة فثلاثة ايام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن وقال للخباز لما قص عليه بئسما رأيت

وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال السدى انها قالت للعزيز ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بانى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها وتليين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وباعوانها وقرئ لتسجننه على صيغة الخطاب ﴿ ١٩٤ ﴾ بان خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس (حتى حين) الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرئ عتى حين بلغة هذيل (ودخل معه) أى فى صحبته (السجن فتيان) من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل ﴿ فى ﴾ عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا

السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ثم نقل فى التفسير أنهما قالا ما رأينا شيئا فقال قضى الامر الذى فيه تستفتيان واختلف فيم الاجله قالا ما رأينا شيئا فقيل انهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيئا وقيل انهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيئا فان قيل هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحى من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير والاول باطل لان ابن عباس رضى الله عنهما نقل انه انما ذكره على سبيل التعبير وايضا قال تعالى وقال للذى ظن انه ناج منهما ولو كان ذلك التعبير مبنيا على الوحى لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين (والثانى) ايضا باطل لان علم التعبير مبنى على الظن والحسبان والقضاء هو الالزام بالجزم والحكم البتة فكيف بنى الجزم والقطع على الظن والحسبان (الجواب) لا يبعد أن يقال انهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فان الله تعالى أوحى اليه ان عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص فلما نزل الوحى بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع فى الظن انه ذكره على سبيل التعبير ولا يبعد أيضا أن يقال انه بنى ذلك الجواب على علم التعبير وقوله قضى الامر الذى فيه تستفتيان ما عنى به ان الذى ذكره واقع لا محالة بل عنى به انه حكمه فى تعبير ما سألاه عنه ذلك الذى ذكره ﴿ قوله عز وجل (وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجى فعلى الاول كان المعنى وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا وعلى هذا القول ففيه وجهان (الاول) أن نحمل هذا الظن على العلم واليقين وهذا اذا قلنا بأنه عليه السلام انما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحى قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن قال تعالى الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وقال انى ظننت أنى ملاق حسابيه (والثانى) ان نحمل هذا الظن على حقيقة الظن وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحى بل على الاصول المذكورة فى ذلك العلم وهى لا تفيد الا الظن والحسبان (والقول الثانى) ان هذا الظن صفة الناجى فان الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ولكنهما كانا حسنى الاعتقاد فيه فكان قوله لا يفيد فى حقهما الا مجرد الظن (المسئلة الثانية) قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذى حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك اذكرنى عند ربك أى عند الملك والمعنى اذكر عنده أنه مظلوم من جهة اخوته لما أخرجوه وباعوه ثم انه مظلوم فى هذه الواقعة التى لاجلها حبس فهذا هو المراد من الذكر ثم قال تعالى فأنساه الشيطان ذكر ربه وفيه قولان (الاول) انه راجع الى يوسف والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وعلى هذا القول ففيه وجهان (احدهما) ان تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه وتقريره من وجوه (الاول) أن مصلحته كانت فى أن لا يرجع

وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قال أحدهما) استئناف مبنى على سؤال من يقول ما صنعا بعدما دخلا معه السجن فاجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابى (انى أرانى) أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أعصر خمرا) أى عنبا سماه بما يؤل اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا (وقال الآخر) وهو الخباز

(انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله (تأكل الطير منه) أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ماذكر من الرؤيين أو مارؤى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما فى قوله * فيها خطوط من سواد وبلق * كأنه فى الجلد توليع البهق * أى كأن ذلك والسر فى المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لا حاجة اليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رؤى أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله باحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما اذا قاله كل منهما اثر ما قص ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما الى تعدد المرجع بل عبارة كل منهما ينبئ بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة

فى تلك الواقعة الى أحد من المخلوقين وان لا يعرض حاجته على أحد سوى الله وان يقتدى بجده ابراهيم عليه السلام فانه حين وضع فى المنجنيق ليرمى الى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال هل من حاجة فقال أما اليك فلا فلما رجع يوسف الى المخلوق لاجرم وصف الله ذلك بان الشيطان أنساه ذلك التفويض وذلك التوحيد ودعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين ثم لما وصفه بذلك ذكر انه بقى لذلك السبب فى السجن بضع سنين والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع الى ربه الى هذا المخلوق عوقب بأن لبث فى السجن بضع سنين وحاصل الامر ان رجوع يوسف الى المخلوق صار سببا لامرين (أحدهما) انه صار سببا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه (الثانى) أنه صار سببا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة (الوجه الثانى) أن يوسف عليه السلام قال فى ابطال عبادة الاوثان أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ثم انه ههنا أثبت ربا غيره حيث قال اذكرنى عند ربك ومعاذ الله أن يقال انه حكم عليه بكونه ربا بمعنى كونه الها بل حكم عليه بالربوبية كما يقال رب الدار ورب الثوب على أن اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفى الارباب (الوجه الثالث) انه قال فى تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ وذلك نفى للشرك على الاطلاق وتفويض الامور بالكلية الى الله تعالى فههنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة الا ان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا أن الاولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب (الوجه الثانى) فى تأويل الآية أن يقال هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى أن يشرح حاله عند ذلك الملك الا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلى ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول ان شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك (القول الثانى) أن يقال ان قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه راجع الى الناجى والمعنى ان الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الامر فلبث فى السجن بضع سنين بهذا السبب ومن الناس من قال القول الاول أولى لما روى عنه عليه السلام قال رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك مالبث فى السجن وعن قتادة ان يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه الى غير الله وعن ابراهيم التيمى انه لما انتهى الى باب السجن قال له صاحبه ما حاجتك قال أن تذكرنى عند رب سوى الرب الذى قال يوسف وعن مالك لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال طول البلاء أنسانى ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاخوتى * قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازى رحمه الله والذى جربته من أول عمرى الى آخره ان الانسان كلما عول فى أمر من الامور على غير الله صار ذلك سببا الى البلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول العبد على الله ولم يرجع الى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من

مفردة خاصة به (انا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا بالمار أياه نقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أى فاحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك روى أنه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى فقال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالما ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهس منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة (الا نبأتكما بتأويله) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الاحوال الا حال ما نبأتكما به بان بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله (قبل أن يأتيكما) واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى ما روئى فى المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما

أول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت فيه الى السابع والخمسين فعند هذا استقر قلبى على انه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه ومن الناس من رجح القول الثانى لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل أولى من صرفها الى يوسف الصديق ولان الاستعانة بالعباد فى التخلص من الظلم جائزة واعلم أن الحق هو القول الاول وما ذكره هذا القائل الثانى تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الاول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة ومن كان له ذوق فى مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف ان الامر كما ذكرناه وأيضا ففى الفاظ الآية ما يدل على ان هذا القول ضعيف لانه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه (المسئلة الثالثة) الاستعانة بغير الله فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة لا انكار عليه الا انه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين فى بحار العبودية لاجرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذا به وعند هذا نقول الذى يصير مؤاخذا بهذا القدر لان يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الاحسان بالاساءة كان أولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ولم يؤاخذه فى تلك القضية البتة وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه (المسئلة الرابعة) الشيطان يمكنه القاء الوسوسة وأما النسيان فلا لانه عبارة عن ازالة العلم عن القلب والشيطان لا قدرة له عليه والا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بنى آدم (وجوابه) انه يمكنه من حيث انه بوسوسته يدعو الى سائر الاعمال واشتغال الانسان بسائر الاعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة (المسئلة الخامسة) قوله فلبث فى السجن بضع سنين فيه بحثان (الاول) بحسب اللغة قال الزجاج اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال الفراء ولا يذكر البضع الامع عشرة أو عشرين الى التسعين وذلك يقتضى أن يكون مخصوصا بما بين الثلاثة الى التسعة وقال هكذا رأيت العرب يقولون وما رأيتهم يقولون بضع ومائة وروى الشعبى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لاصحابه كم البضع قالوا الله ورسوله أعلم قال ما دون العشرة واتفق الاكثرون على أن المراد ههنا بضع سنين سبع سنين قالوا ان يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل اذكرنى عند ربك كان قد بقى فى السجن خمس سنين ثم بقى بعد ذلك سبع سنين قال ابن عباس رضى الله عنهما لما تضرع يوسف عليه السلام الى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث فى السجن بعده سبع سنين وروى ان الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها ما لبث فى السجن هذه المدة الطويلة ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا أمر تضرعنا الى الناس * قوله تعالى (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) اعلم أنه تعالى اذا أراد شيئا

﴿ هيأله ﴾

من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشيء الآيل لا المآل فانه في الاصل جعل شيء آيلا الى شيء آخر فكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الاول فالمعنى الا أنبأتكما بما يؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجد انه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يبهم مهما من الامور المترقبة قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤييين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤييين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال في التنبئة وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام اظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لانهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سمط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فاراد أن يخرج آثر ذي أثير عما في عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض في ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شانه وثقة بامره ووقوفا على علو طبقته في بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه على في طرف

هيأ له أسبابا ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها وتعبيرها فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) قال الليث العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والانثى عجفاء والجمع عجاف في الذكران والاناث وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعا على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا سمان وعجاف لانهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض واللام في قوله للرؤيا تعبرون على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل وقال صاحب الكشاف يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر أو حالا ويقال عبرت الرؤيا أعبرها عبارة وعبرتها تعبيرا اذا فسرتها وحكى الازهري أن هذا مأخوذ من العبر وهو جانب النهر ومعنى عبرت النهر والطريق قطعته الى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر لانه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين الى الآخر والاضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى وخذ بيدك ضغثا اذا عرفت هذا فنقول الرؤيا ان كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث

(المسئلة الثانية) انه تعالى جعل هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن وذلك لان الملك لما رآه قلق واضطرب بسببه لانه شاهد ان الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وانه منذر بنوع من أنواع الشر الا انه ما عرف كيفية الحال فيه والشيء اذا صار معلوما من وجه وبقي مجهولا من وجه آخر عظم تشوف الناس الى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في اتمام الناقص لا سيما اذا كان الانسان عظيم الشان واسع المملكة وكان ذلك الشيء دالا على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ثم انه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسئلة وعماه عليهم ليصير ذلك سببا لخلاص يوسف من تلك المحنة واعلم ان القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير بل قالوا ان علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الامور المتخيلة الى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا ان رؤيا الملك من قسم الاضغاث ثم أخبروا انهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدي اليها ولا يحيط عقلنا بها وفيه ايهام ان الكامل في هذا العلم والمتبحر

التمام حيث رأيتما مثاله في المنام واني أبين لكما كل جليل ودقيق من الامور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذي يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بان علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهي يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال (ذلكما) أي ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد في ذلك الاشارة الى علو درجته وبعد منزلته (مما علمني ربي) ❊ ١٩٨ ❊ بالوحي والالهام أي بعض منه أو من ذلك الجنس الذي لايحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال (اني تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمني ربي وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته الى معنى انه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لان ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه وكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لاني تركت ملة الكفرة أي دينهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر في قوله تعالى انه عمل غير صالح

❊ فلهذا ❊

فيه قد يهتدي اليها فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم ❊ قوله تعالى (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) اعلم ان الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابي ان في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل وما أخطأ في حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب فهذا هو قوله وقال الذي نجا منهما وأما قوله وادكر بعد أمة فنقول سيجيء ادكر في تفسير قوله تعالى فهل من مدكر في سورة القمر قال صاحب الكشاف وادكر بالدال هو الفصيح عن الحسن واذكر بالذال أي تذكر وأما الامة ففيه وجوه (الاول) بعد أمة أي بعد حين وذلك لان الحين انما يحصل عند اجتماع الايام الكثيرة كما أن الامة انما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الايام والساعات (والثاني) قرأ الاشهب العقيلي بعد امة بكسر الهمزة والامة النعمة قال عدي

ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور

والمعنى بعد ما أنعم عليه بالنجاة (الثالث) قرئ بعد أمه أي بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها اذا نسي والصحيح انها بفتح الميم وذكره ابو عبيدة بسكون الميم وحاصل الكلام أنه اما أن يكون المراد وادكر بعد مضي الاوقات الكثيرة من الوقت الذي أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك او المراد وادكره بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك او المراد وادكر بعد النسيان فان قيل قوله وادكر بعد أمة يدل على أن الناسي هو الشرابي وأنتم تقولون الناسي هو يوسف عليه السلام قلنا قال ابن الانباري ادكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لايدل على سبق النسيان فلعل الساقي انما لم يذكره للملك خوفا من أن يكون ذلك اذكارا لذنبه الذي من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضا أن يقال حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضا لذلك الشرابي وأما قوله فأرسلون خطاب اما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم أما قوله يوسف أيها الصديق ففيه محذوف والتقدير فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق والصديق هو البالغ في الصدق وصفه بهذه الصفة لانه لم يجرب عليه كذبا وقيل لانه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على ان من اراد أن يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك ونعم ما فعل فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم اما قوله تعالى لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون فالمراد لعلي أرجع الى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وانما قال لعلي أرجع الى الناس بفتواك لانه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسئلة فخاف أن يعجز هو أيضا عنه

(وهم بالآخرة) وما فيهما من الجزاء (هم كافرون) على الخصوص دون غيرهم لافراطهم فى الكفر (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) يعنى انه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدا والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية (ما كان) أى ماصح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك بالله من شئ) أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا عن الجماد البحت (ذلك) أى التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ (من فضل الله علينا) أى ناشئ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (وعلى الناس) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الادلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله

فلهذا السبب قال لعلى ارجع الى الناس * قوله عز وجل (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال تزرعون وهو خبر بمعنى الامر كقوله والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما يخرج الخبر بمعنى الامر ويخرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذروه فى سنبله وقوله دأبا قال أهل اللغة الدأب استمرار الشئ على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا اذا استمر فى فعله وقد دأب يدأب دأبا ودأبا أى زراعة متوالية فى هذه السنين قال أبو على الفارسى الاكثرون فى دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة فيكون كشمع وشمع ونهر ونهر قال الزجاج وانتصب دأبا على معنى تدأبون دأبا وقيل انه مصدر وضع فى موضع الحال وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقى فى سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه لان ابقاء الحبة فى سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد أى سبع سنين مجدبات والشداد الصعاب التى تشتد على الناس وقوله يأكلن ما قدمتم لهن هذا مجاز فان السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسندا الى السنين وقوله الا قليلا مما تحصنون الاحصان الاحراز وهو القاء الشئ فى الحصن يقال أحصنه احصانا اذا جعله فى حرز والمراد الا قليلا مما تحرزون أى تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضى الله عنهما وقوله ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس قال المفسرون والسبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهى معلومة من الرؤيا واما حال هذه السنة فما حصل فى ذلك المنام شئ يدل عليه بل حصل ذلك من الوحى فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم وعن قتادة زاده الله علم سنة فان قيل لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضا من مدلولات المنام فلم قلتم انه حصل بالوحى والالهام قلنا هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام اما تفصيل الحال فيه وهو قوله فيه يغاث الناس وفيه يعصرون لا يعلم الا بالوحى قال ابن السكيت يقال غاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الارض تغاث وقوله يغاث الناس معناه يمطرون ويجوز أن يكون من قولهم أغاثه الله اذا أنقذه من كرب أو غم ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب وقوله وفيه يعصرون أى يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير وقيل يحلبون الضروع وقرئ يعصرون من عصره اذا انجاه وقيل معناه يمطرون من أعصرت السحابة اذا اعصرت بالمطر ومنه قوله وأنزلنا

علينا حيث اعطانا عقولا ومشاعر نستعملها فى دلائل التوحيد التى مهدها فى الانفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لايشكرون أى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ماخلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية (ياصاحبى السجن) أى ياصاحبى فى السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الاشجان ودار الاحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه و يقبلا مقالته

وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال (أأرباب متفرقون) لا ارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبدكما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خير) لكما (ام الله) المعبود بالحق (الواحد) المتفرد بالالوهية (القهار) الغالب الذى لا يغالبه أحد و بعد ما نبههما على فساد تعدد الارباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الالوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما (ما تعبدون من دونه) أى من دون الله شيئا (الا أسماء) فارغة لا مطابق لها فى الخارج لان ماليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الاسماء فقط (سميتموها) جعلتموها أسماء وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وايذانا بان تسميتهم فى البطلان ✻ وماحالهن ✻ حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود (أنتم وآباؤكم) بمحض جهلكم وضلالتكم (ما أنزل الله بها) أى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (من سلطان) من جهة تدل على صحتها (ان الحكم) فى أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية (الا لله) عز سلطانه لانه المستحق

من المعصرات ماء ثجاجا ✻ قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم قال ماخطبكن اذراودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين) اعلم أنه لما رجع الشرابى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال ائتونى به وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لايكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فعاد الشرابى الى يوسف عليه السلام قال أجب الملك فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن الا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الى الباب ولما ابتغيت العذر انه كان حليما ذا أناة واعلم أن الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف الى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل وبيانه من وجوه (الاول) انه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثرها فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها الى الطعن فيه (الثانى) ان الانسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة اذا طلبه الملك وأمر باخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات وذلك يصير سببا لان يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ولأن يحكم بان كل ما قيل فيه كان كذبا و بهتانا (الثالث) ان التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته اذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفا أن يذكر ماسبق (الرابع) انه حين قال للشرابى اذكرنى عند ربك فبقى بسبب هذه الكلمة فى السجن بضع سنين وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقم لطلبه وزنا واشتغل باظهار براءته عن التهمة ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى فى قلبه التفات الى رد الملك وقبوله وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافى لما صدر منه من التوسل اليه فى قوله اذكرنى عند ربك ليظهر أيضا هذا المعنى لذلك الشرابى فانه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معا أما قوله فاسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير والكسائى فسله بغير همز والباقون فاسئله بالهمز وقرأ عاصم برواية أبى بكر عنه النسوة بضم النون والباقون بكسر النون وهما لغتان (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف (أولها) ان معنى الآية فسل الملك بان يسأل ماشأن تلك النسوة

وما حالهن ليعلم براءتى عن تلك التهمة الا انه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجرى مجرى أمر الملك بعمل أو فعل (وثانيها) انه لم يذكر سيدته مع أنها هى التى سعت فى القائه فى السجن الطويل بل اقتصر على ذكر سائر النسوة (وثالثها) أن الظاهر ان أولئك النسوة نسبنه الى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل ثم قال يوسف عليه السلام بعد ذلك ان ربى بكيدهن عليم وفى المراد من قوله ان ربى وجهان (الاول) انه هو الله تعالى لانه تعالى هو العالم بخفيات الامور (والثانى) أن المراد به الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن واعلم أن كيدهن فى حقه يحتمل وجوها (أحدها) ان كل واحدة منهن ربما طمعت فيه فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه الى القبيح (وثانيها) لعل كل واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة فى حق السيد المنعم لا تجوز فأشار بقوله ان ربى بكيدهن عليم الى مبالغتهن فى الترغيب فى تلك الخيانة (وثالثها) انه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل فى تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام انه لما التمس ذلك أمر الملك باحضارهن وقال لهن ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه وفيه وجهان (الاول) ان قوله اذ راودتن يوسف عن نفسه وان كانت صيغة الجمع فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم (والثانى) أن المراد منه خطاب الجماعة ثم ههنا وجهان (الاول) ان كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها (والثانى) ان كل واحدة منهن راودت يوسف لاجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه وعند هذا السؤال قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء وهذا كالتأكيد لما ذكرن فى أول الامر فى حقه وهو قولهن ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات انما وقعت بسببها ولاجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهرا عن جميع العيوب وههنا دقيقة وهى أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة فعرفت المرأة أنه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عليها فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم ازالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل ورأيت فى بعض

لها بالذات اذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره (أمر) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله فى هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الانبياء عليهم السلام (ألا تعبدوا) أى بأن لا تعبدوا (الا اياه) حسبما تقضى به قضية العقل أيضا (ذلك) أى تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) الثابت المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * ٢٠١ * أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أولا يعلمون شيئا أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (يا صاحبى السجن أما أحدكما) وهو الشرابى وانما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام أمر صاحبه حذارا مشافهته بما يسوءه (فيسقى ربه) أى سيده (خمرا) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أى يسقى ما يروى به (وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير * ٢٦ * خا من رأسه) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل (قضى) أى تم وأحكم (الامر الذى فيه تستفتيان) وهو ما رأياه من الرؤيين قطعا لا ما آله الذى هو عبارة عن